

القرآن المعتر



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العددان : ٤٢ - رجب ١٤١١ كانون الثاني «يناير» ١٩٩١
٤٣ - شوال ١٤١١ نيسان «أبريل» ١٩٩١ السنة ١١

مركز تحقيق وتكنولوجيا علوم إرسودي

مب - مج

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها



مركز بحوث وتطوير علوم إلكترونية

الاشتراك السنوي

داخل القطر	للأفراد	: ١٠٠ ل.س
في الأقطار العربية	»	: ٢٠٠ ل.س أو (١٠) دولار أميركي
خارج الوطن العربي	»	: ٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي
الدوائر الرسمية داخل القطر		: ٢٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي		: ٣٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي		: ٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي
أعضاء اتحاد الكتاب		: ٥٠ ل.س

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع نقداً الى : (معاصم مجلة التراث العربي) ■

الإخراج الفني : أكسوم السدار

المحتويات

- الميراث الديمغرافي العربي للحضارة العربية الاسلامية
د. عبد الكريم البقاي ٧
- عصر الترجمة والعصر الذهبي للطب العربي
د. عبد الرزاق الشققي ٦٩
- العرف العربي بين الأصالة والعدالة
حسن عباس ٨٠
- سيد قريش - رواية بين الواقع التاريخي والواقع الفني
عبد اللطيف ارناؤوط ١٠٤
- طائر سليمان عليه السلام - الهدى
نادية الفزي ١٢٨
- اللغة العربية والاصطلاح العلمي
د. وليد سراج ١٤١
- الجملة الفعلية والجملة الاسمية
صلاح الدين الزهبلاوي ١٥٢
- الشاعر القطامي
سكينة الشهابي ١٧٢
- ثابت بن قرة - أبو الحسن
زهير حميدان ١٨١
- الشعر الشعبي الفنائي - في الفراتين والبادية
دراسة : عبدالفتاح قلعهجي ١٩٣
- ديوان ابن أحمر ومصادر شعره
محمد مهدي الدين مينو ٢١٦
- استدرارك على ديوان ديك الجن الحمصي
خير الدين شمسي باشا ٢٣١



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الميراث الديمغرافي العربي

للحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافي

توطئة

يتناول هذا البحث ديمغرافية الوطن العربي أي سكانه من الوجهة الكمية والإحصائية في الوقت الحاضر . ولفظ الديمغرافية بتخفيف الياء لفظ أجنبي مصرب حديثا يتألف من أصلين يونانيين معناهما وصف الشعب أو وصف السكان . وقد راج للدلالة على علم يتناول المجتمعات البشرية من حيث حجمها وتركيب كل منها وخصائصه ولا سيما من النواحي الكمية . وهو أحد العلوم الاجتماعية الحديثة . ويقال له أيضا علم السكان . ونحن نستعمل اللفظين العربي والأجنبي المعرب ونسبنا إليهما فنقول سكاني . والنسبة التي الجمع واردة في اللغة العربية ، كما نقول ديمغرافي . هذا ولكل علم مصطلحاته وتصويراته ودلالاته المحددة . ونظراً لذلك وتحريماً للدقة نتطرق إلى شرح بعض المصطلحات فيه لبيان ما يراد منها عند ورودها في هذا البحث . ولا يغلو هذا التطرق من فائدة . وإنما نريد أن نحدد واقع الميراث الديمغرافي العربي المتطور ونجلو في الوقت نفسه معالم المجتمع العربي البشرية ، ونشير إلى ملامح المشكلات المعترضة ، ونعقق في بعض الشؤون العلمية والاصطلاحية .

تستند الدراسات السكانية إلى ثلاثة مصادر مهمة : وهي أولاً « التعداد » الذي يتناول جميع السكان في بلد من البلدان وفي وقت واحد ويقال له « تعداد عام » . ولكن قد يجري تعداد صنف من السكان لفرض من الأغراض أو تعداد في جزء من البلاد فيقال له « تعداد جزئي » . ولا يقتصر التعداد على مجرد العد واعطاء رقم المجموع بل يتسبب توزيع الناس في المناطق ويستعمل بعضاً من صفاتهم وخصائصهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها .

فالاطلاع على ذلك كله بالاحصاء في زمن من الأزمان هو الاطلاع على ما يسمى في الديمغرافية « حالة السكان » . حالة السكان هذه اذن كأنها صورة ضوئية لهم مأخوذة من الوجة الاحصائية في وقت من الأوقات .

وللتعداد طرق وشروط وأنواع معروفة ومتداولة في كتب الاحصاء . ولكن الشعب ليس ثابتاً بل هو متغير ودائم التغير وذلك بالولادات والوفيات والتقدم في العمر وبتغير الحال المدنية بالزواج والطلاق والترمل ، ثم كذلك بالهجرة الى البلد وبالهجرة منه . ومجموع هذه التغيرات يدمى « حركة السكان العامة » .

فاذا كانت حالة السكان تشف من الجانب السكوني منهم فان حركتهم بهذا المعنى الديمغرافي الذي حدناه تشف عن جانبهم المتطور أي الدينامي .

والتغير المدني العاصل بالولادات والوفيات فقط بصرف النظر عن الهجرة يدمى « حركة السكان الطبيعية » ولما كانت المواليد تربو على الوفيات غالباً في المجتمعات قبل هذه الحركة « نمو السكان الطبيعي » أي زيادتهم الطبيعية .

وباختبار حركة الهجرة يدمى الشعب مغلقاً اذا كان لا يتلقى هجرة من خارجه ولا تصدر عنه هجرة الى الخارج ، ومفتوحاً اذا كان تتناوله الهجرة منه واليه .

واذا اضيفت حركة الهجرة الى حركة السكان الطبيعية قيل كما سلف للمجموع « حركة السكان العامة » .

وتتم معرفة حركة السكان بضبط الأحوال المدنية أو الاحصاء الحيوي^(١) وعطالمة هذا الاحصاء في سجلات دوائر النفوس أو مكاتب الصحة حسب التسمية الرائجة في البلد العربي . والاحصاء الحيوي أو ضبط الأحوال المدنية هو المصدر الثاني الذي يستند اليه علم السكان .

كانت الدولة في الزمن السابق تتالف من فئات وهيئات اجتماعية كالأسر والطوائف والنقابات مرتبة على شكل هرم تقوم في رأسه الدولة . وكل اتصال للدولة بالأفراد كان يتم بطريق تلك الهيئات والفئات فاذا رغبت الدولة مثلاً في فرض ضرائب مالية أو توزيع مكافآت عامة عمدت الى تلك الجماعات وهذه هي التي توزع تلك المكافآت على الافراد أو تتطلب مقادير الضرائب المالية منهم . وكذلك اذا اضطرت الدولة قديماً الى التعمشة العسكرية كانت تقتضي ملاكي الأراضي والطوائف والأسر نصيباً مفروضاً من الجند .

ثم لما توطد الاحصاء الحيوي وتم ضبط الأحوال المدنية وتواتر التعداد في الدولة كل عشر سنوات أو قريباً من ذلك وأيضه الناس ازداد اشراف الدولة المباشر على الافراد . وهكذا اقرن تقدم الاحصاء الديمغرافي بتقدم أهمية الفرد ومكانته في التنظيم الاجتماعي عامة .

والدولة الحديثة في العصر العاضر على الرغم من أهمية النقابات والشركات وغيرها من المؤسسات والهيئات تقيم للفرد وزنه وتعلي شأنه وتستطيع الاتصال به فوراً اذا

التضت الحال . ولهذا أيضاً مع نشوء التعداد ازدادت المعلومات التي تتطلبها الحكومة الحديثة عن الأفراد لأنها مسؤولة عنهم ، تهتم بجميع شؤونهم الديمغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية والصحية وغيرها .

وبالجملة فإن التعداد ضروري لحسن ادارة الدولة وتصريف امورها وتوجيه شؤونها توجيهاً صحيحاً في مختلف الميادين وذلك بمعرفة عدد السكان اي حجمهم ومعرفة اعمارهم وجملة من صفاتهم الثقافية والاقتصادية والصحية وامثالها .

وكذلك ضبط الاحوال المدنية وتسجيل المواليد والوفيات والزواج وهلم جرا كل ذلك ضروري لتتبع حركة الشعب هل هو في زيادة او نقصان او ثبوت ، وللمحاولة تلافي الامراض وتحسين صحة الافراد ورعاية نموهم الفكري والجسمي وحساب الفواجم وفئات اعمارهم . وذلك كله يدخل في سياسة الدولة الديمغرافية .

ولمة مصدر ثالث يستند اليه علم السكان وهو ما يدعى بالمسح او الاستعلام وهو يتطلب معلومات في موضوع خاص وله غرض ، كالاستعلامات عن الولادات والوفيات في أي حدود هي وعن العمال مثلاً كم عددهم بين السكان او عن الأمية التي أي مدى هي متفشية مثلاً . ولا بد في الاستعلام هذا من اعتماد جزء من السكان يستطيع أن يمثلهم جميعاً تمثيلاً يعده حساب الاحتمال . وهذا الجزء يدعى بالمينة . والمسح بالمينة يدعى امتيانياً ويلجأ اليه عند الحاجة . بالتعداد الذي يبرز حالة السكان وبالأحصاء العيوي الذي يتتبع حركتهم وبالمسح الذي يستعلم بعض خصائصهم وصفاتهم تتيسر معرفة السكان وجملة قضاياهم وشؤونهم . وفي طبيعة هذه المعرفة تقدير عددهم وحساب كثافتهم .

* * *
مركز تحقيق * * *
مركز تحقيق * * *
مركز تحقيق * * *

سُكَّانُ الْعَالَمِ

هو المفيد بادئ ذي بدء معرفة حجم سكان العالم اذا اردنا ان ندرس حجم سكان الوطن العربي لكي ندرك نسبتهم في المجموع ونقدر مكانتهم بينهم ونستشف الشاؤ المتاح لهم أن يبلغوه في المستقبل .

ذلك ان الانسانية على وجه الأرض كالكائن الحي تتطور وتنمو وتتسع . وهي في هذا الاتساع والنمو والتطور تجري في أوصالها وشانج الحياة المشتركة خفية وظاهرة .

ان التضامن بين شعوب النوع الانساني كان ولا يزال دائماً أعمق مما يظن وأشد مما يقدر ، على الرغم من الحروب الفتاكة ، وعلى الرغم من عدوان الانسان في بعض الأحيان على أخيه الانسان .

ولقد ذهب فريق من الفلاسفة القدماء أمثال الرواقيين وهم طائفة من فلاسفة اليونان الى أن الكون عبارة عن حيوان كبير أي جسم حي ضخم بالغ الضخامة ، وذهب مفكرون آخرون أمثال اخوان الصفا في الحضارة العربية الاسلامية الى أنه انسان كبير اشارة منهم جميعاً الى سر الحياة المبتوثة في جوانب العالم كله . ونحن هنا بعيدون من أن نذهب هذا المذهب الميتافيزيائي الصرف . وانما نكتفي فننوه بالأواصر التي تربط بين الناس على المعمورة ، وباستفادة بعضهم من تجارب الآخرين في مختلف الميادين مادية وروحية ، واقتباسهم شملة التراث الانساني جيلا عن جيل وحمل بعض الأمم نبراسها بعد بعض ، وزيادة ايقاد تلك الشملة لتبديد الجهل والظلام ، وتقليل البؤس والشقاء ، وللتحرير من الافتئات والاستغلال ولتوطيد أركان السلام ، واسباغ التعاون والوثام ، والسمي للوصول الى حياة كريمة واسعة فاضلة .

ولم يكن الناس أشد شعوراً بالأواصر التي تصل بينهم وتجمع بين قلوبهم وأمانهم منهم في هذا العصر الحديث على الرغم من التشادّ الظاهر والتنازع الكامن . فلقد ازداد عددهم ازدياداً كبيراً ، وتقدموا في ميادين العلم والصناعة ، وتفننوا في الوسائل الداعية الى التعارف ، فانتشرت الصحف والمجلات التي تحمل أخبار المجتمعات انتشاراً واسعاً ، وشاعت الاذاعات التي تبث أمواجها فتبلغ كل مكان على المعمورة ووصل الهاتف السلكي واللاسلكي بين الأقطار المتناحية وصله بين الأقطار الدانية . ثم ان القاطرات والسيارات والسفن وعابرات المحيط والطائرات المروحية والنفاثة قربت بين جوانب الأرض ، ويسّرت الرحلات والأسفار واختصرت الأزمنة والمسافات . ولا ينفك العلم والتقانة يتقدمان تقدماً مطرداً ومستمرّاً . ورافق ذلك كله أن اشتد الاهتمام بالأموال الاقتصادية في العصر الحاضر فعمدت الدول الى زيادة الانتاج وتحسينه والى تبادل السلع والفلات والى البحث عن الأسواق استيراداً وتصديراً . وكذلك اشتد التسابق في مضمار الثقافة والابتكار والتفنن كما اشتد الانتباه للأحداث السياسية في مختلف البلدان ، اذ أصبح الحدث السياسي في قطر لا يعدم له صدى وأثراً في بقية الأقطار وسائر الشموب .

وكما أن ارتباط الأمور الثقافية والاقتصادية والصناعية والصحية بعضها ببعض واضح لا ريب فيه في القطر الواحد كذلك بدأ يتضح في العصر الحاضر ارتباط هذه الأمور في القطر بامتثالها في القطر الآخر وفي البلد القريب والبعيد للسهولة المبدئية في التنقل والسفر والاطلاع والنشر والاذاعة والتلفزيون . حتى ان اقامة بعض البلدان حوائل في هذه السبل تشير الى هذا الارتباط حين تحاول تعامي التأثير بما يجري في البلد الاخر على ميدان الثقافة أو السياسة أو الدعاية أو التجارة أو غيرها .

ولا بد في هذه الدراسة السكانية من ايراد الأرقام المناسبة لأنها مستند للفكر ومعتمد للمقايسة والموازنة وسبيل للتدقيق وأداة للتنبيه الى بعض الجوانب الاجتماعية وان كانت الأرقام أنفسهار هينة التغير مع أحوال المجتمعات وصرفها . ولذلك يلزم في العين بمدالعين مراجعتها وتجديدها .

ولا يستطيع ايراد الأرقام في ذاته أن يشف عن سريان الحياة الاجتماعية والفكرية المشتركة في الشعب الواحد ولا عن سريانها بين الشعوب والأمم . وانما قصاره أن يبرز مدى اتساع الأطر الديمغرافية التي يؤلفونها والتي تجري فيها الظواهر الانسانية .

ونذكر فيما يأتي عدد سكان العالم كله وكذلك سكان القارات وسكان الوطن العربي جملة في الوقت الحاضر ، كما نذكر المساحات التي يعمرونها وكثافتهم وتقديراتهم حتى عام ٢٠٠٠ .

وكما أنه حين نجري قياساً في العلم يلزم أن نذكر مدى ضبطه ودقته كذلك من المناسب أن نشير الى أن تلك الأرقام المذكورة تقريبية ، وليست دقيقة كل الدقة ولا مضبوطة تمام الضبط . فليست إحصاءات السكان في مختلف بلدان العالم على درجة واحدة من الجودة والتدقيق . ونحن حين نجتمع أرقام تلك الاحصاءات لا نجتمع أرقاماً متماثلة في درجة الدقة . ثم ان أصول التعداد التي استند اليها تقدير السكان تتفاوت بتفاوت البلدان . وكذلك ضبط الاحصاء الحيوي أو التسجيل المدني الذي يعومل عليه الحاسبون ليس واحداً . وليس أعداد السكان وخصائصهم ثابتة بل هي رهن التغير والتبدل بالمواليد والوفيات والهجرة كما

سلف • وهي حركات دائبة مستمرة • فالأرقام التي تقدم في تقدير سكان العالم وكثافة الأرض وسكان القارات وكثافتها ينبغي أن تعتبر دائماً أرقاماً تقريبية • ولا يستطيع أحد أن يقول لنا مثلاً ان عدد سكان الأرض أو سكان قطر من الأقطار هل هو في وقت ما زوج أم فرد لأن كلتا العالين محتملة بسبب التغير الدائب والتجدد الدائم •

وليس التقريب بقادح في قيم تلك الأرقام ولا في جدواها • بل على العكس إن جميع تلك الأرقام ومعالجتها على قواعد علمية ركيئة ورصينة وتفهم نتائج المعالجة وتبين دلالاتها تشف عن جهود كبيرة بذلتها هيئات محلية وإقليمية وعالمية ، وتشير الى تقدم علمي بالغ يتناول هذه المقادير المشتتة الضخمة الواسعة ويستطيع أن يستوعبها وأن يتعرف خصائصها في تطورها وأن يتوقع ما تصير اليه وأن يضبط هذه الصيرورة وأن يوجهها حيث تم الجدوى ويتسع النفع وتيسر المستلحة ويبلغ النمو شأوه وغايته • وانما قدمنا هذه المقدمة مع هذا الجدول العالمي تمهيداً لدراسة سكان الوطن العربي الذي هو موضوع هذا البحث •

تقدير سكان العالم والقارات والوطن العربي

الكثافة	المساحة بالوف الكيلومترات المربعة	عدد السكان بالالوف في السنوات			
		٢٠٠٠	١٩٩٠	١٩٨٨	
١٩٨٨					
٣٨	١٣٥٧٤٧	٦١٢١٨١٣	٥٢٤٦٢٠٩	٥١١٢٢٩٨	العالم
١٠٩	٢٧٥٧٢	٣٥٤٨٩٩٤	٣٥٧٦٤٩	٢٩٩٥٨١٢	آسيا
٢٠	٣٠٣١٣	٨٧١٨١٧	٦٤٥٢٨٢	٦٠٩٧١٨	إفريقية
٣	٨٥٠٩	٠٣٠٠٦٢	٢٦٤٦٧	٢٥٧٤٢	أقيانوسية
١٧	٤٢٠٧٨	٨٤٣٧٣٠	٧٢٦٣٩٧	٧٠١٧١٢	أمريكة
					أوربة مع الاتحاد السوفيتي
٢٩	٢٧٦٧٦	٨٢٧٢١٠	٧٩٠٤١٤	٧٧٩٣١٤	
١٦	١٣٧٠٨	٢٨١٤٠٦	٢١٧١٠٨	٢١٣٩٩١	الوطن العربي

أعد هذا الجدول، بالاعتدال على الحولين 1988 World Health Statistics Annual (WHO) 1988 Statistical Yearbook (Unesco)

سكان الوطن العربي

تزيد مساحة الوطن العربي على ١٣٧ مليون كيلو متر مربع ويقارب عدد سكانه ٢١٨ مليون نسمة ، فهو أوسع بلاد العالم التي تسكنها أمة واحدة إذ تربو مساحته على عشر مساحة المعمورة (٢) . ويزيد مرتين ونصف المرة على مساحة أوربة (٣) ومرة وثلث المرة على بلاد الصين ، ويكاد يبادل مرة ونصف المرة

١
مساحة الولايات المتحدة الأمريكية . أما سكانه فيؤلفون — من سكان المعمورة .
٢٥

وهو يقع في أهم مناطق الأرض إذ يصل بين قارات ثلاث . وهو يشغل شمالي افريقية وغربي آسيا . ويقع ثلثاه تقريبا في القارة الأولى وبقية في الثانية . وهو يتراعى من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي وبحر عمان والمحيط الهندي مستحما على الشاطئين الشرقي في جهة والجنوبي المتطاوول من البحر الأبيض المتوسط في جهة ثانية ومستوعبا البحر الأحمر . وهو يشرف على منطقة اتصال المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط في مضيق جبل طارق ، وعلى منطقة اتصال البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر في قناة السويس ، وعلى منطقة اتصال البحر الأحمر ومن ورائه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي بالمحيط الهندي في مضيق باب المندب . ففي يدَي الوطن العربي مفاتيح هذه البحار كلها . كما أنه واجهة آسيا وافريقية تجاه الغرب والشمال وجسر الاتصال الكبير بين القارات .

وهو واقع في أجود بقاع الأرض اعتدالا وأكثرها جمالا وأسناها ضياءً وكذلك هو غني الى أبعد حد بالتملكات الاقتصادية والانسانية والسياسية على اختلاف أنواعها .

هذا وان الثقافة العربية الاسلامية هي المألوفة لأرجاء هذا الوطن الواسع . على أنه اذا كان يسكن فيه بعض الجاليات الأجنبية القليلة فان مئات الألوف بل

الملايين من العرب يقيمون متفرقين أو جاليات في مواطن أخرى ولا سيما في أواسط
الريقية وجنوبها وفي أواسط آسيا حتى أقاصيها وفي أمريكا ولا سيما الجنوبية .
وهم على الغالب ينزعون بأفئدتهم وأفكارهم وذكرياتهم وأصولهم الى
موطنهم الأول .

والعالم العربي يسلك سبيل توطيد السلام في الأرض ويعمل على توكيد
الصداقة مع سائر الشعوب وهو اذا تقدم وقوي يستطيع أن يفتدو واحة سلام وخير
وبركة بين أنحاء العالم وملتقى حضارات تتفاعل لخير الانسانية ومنطقة تبادل للقيم
المادية والروحية في العالم ووسيلة تفاهم وتضافر بين الشعوب (وكذلك جعلناكم
أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وليكون الرسول شهيدا عليكم) (٢-١٤٣).

ولذلك كله لا نفالي اذا قلنا ان مستقبل الانسانية كلها من بعض الوجوه
مرتبط بتقدم البلاد العربية ورهين " بيمَنَّتِهَا وسلامتها حتى تكون كحصن
السلام الامن في خضم المستقبل المجهم الغامض . وفي هذا اطمئنان لجميع
الشعوب ، وفي هذا من الشاوما ينبغي أن تسمى له البلاد العربية بمد أن تتخلص
من آثار الاستعمار ومد أن تشتد وتوثق عُرا التعاون والتضامن بينها .

وكذلك ندرك عاجلا أو آجلا بطلان المحاولات غير الانسانية التي تقصد الى
تفريق شمل البلاد العربية والكيد لها وطمع أوصالها برؤوس الحروب واقامة
حوائل اقتصادية وفكرية دون تسهيل التقاء الشعب العربي ببعضه ببعض. وهذا
جدول بالدول العربية التي تتألف منها الجامعة العربية مع عدد سكان كل منها
ومساحته والنسبة المئوية للسكان والمساحة في المجموع .

★ ★ ★

الدولة	المساحة بالكم ^٢	النسبة %	عدد السكان بالآلاف	النسبة %	الكثافة
المملكة الأردنية الهاشمية	٩٧٧٤٠	٠,٧	٣٩٤٣	١,٨	٤٠
دولة الإمارات العربية المتحدة	٨٣٦٠٠	٠,٦	١٥٠١	٠,٧	١٨
دولة البحرين	٦٢٢	٠,٠٥	٤٨١	٠,٢	٧٧٣
الجمهورية التونسية	١٦٣٦١٠	١,٢	٧٨٠٩	٣,٦	٤٨
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	٢٣٨١٧٤١	١٧,٤	٢٣٨٤١	١١	١٠
جمهورية جيبوتي	٢٢٠٠٠	٠,٢	٣٨٣	٠,١٨	١٧
المملكة العربية السعودية	٢١٤٩٩٩٠	١٥,٧	١٣٠٧٠	٦	٦
جمهورية السودان الديمقراطية	٢٥٠٥٨١٣	١٨,٣	٢٣٧٩٧	١١	٩
الجمهورية العربية السورية	١٨٥١٨٠	١,٤	١١٦٣٨	٥,٤	٦٢٨
جمهورية الصومال الديمقراطية	٦٣٧٦٥٧	٤,٧	٧١٠٦	٣,٣	١١
الجمهورية العراقية	٤٣٤٩٢٤	٣,٢	١٧٦٥٦	٨	٤٠٦
سلطنة عمان	٢١٢٤٦٠	١,٥	١٣٧٧	٠,٦	٦٥
فلسطين	٢٧٠٠٩	٠,٢	٤٩٠٠		
دولة قطر	١١٦١٠	٠,١	٣٤٠	٠,٢	٢٩
دولة الكويت	١٧٨١٨	٠,١	١٩٣٨	٠,٩	١٠٩
الجمهورية اللبنانية	١٠٤٠٠	٠,١	٢٨٢٧	١,٣	٢٧٢
الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية	١٧٥٩٥٤٠	١٢,٨	٤٢٣٢	١,٩	٢
جمهورية مصر العربية	١٠٠١٤٤٩	٧,٣	٥١٤٥٣	٢٤	٥١
المملكة المغربية	٤٤٦٥٠٠	٣,٢	٢٣٩١٠	١١	٥٣٥
الجمهورية الإسلامية الموريتانية	١٠٣٠٧٠٠	٧,٥	١٩١٦	٠,٩	١٩
الجمهورية العربية اليمنية	١٩٥٠٠٠	١,٤	٧٥٣٤	٣,٥	٣٨٦
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	٣٣٢٩٧٠٠	٢,٤	٢٣٣٩	١,١	٧
المجموع	١٣٧٠٨٠٨٣		٢١٣٩٩١		

عيد السكان من 1988 World Health Statistics Annual
 والمساحات من الكتاب الإحصائي السنوي للبلاد العربية (العدد السادس) مجلس الوحدة الاقتصادية
 العربية (الأمانة العامة) (١٩٨٤).

نزيد على الجدول الصحراء الغربية في افريقية ، ثم الثغور السورية الشمالية التي اقتطعتها تركيا من سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكذلك لواء اسكندرونة الذي سلخته فرنسة المنتدبة وأعطته تركيا سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ .

ويمكن تصنيف البلاد العربية حسب حجم السكان في ست زمر . وهي بالترتيب المتصاعد .

قطر - جيبوتي - البحرين	أقل من مليون
عمان - الإمارات - موريتانيا - الكويت - اليمن الديمقراطية - لبنان - الأردن - ليبيا	١ - ٥ ملايين
الصومال - اليمن العربية - تونس	٥ - ١٠ ملايين
سورية - السعودية - العراق	١٠ - ٢٠ مليوناً
السودان - الجزائر - المغرب	٢٠ - ٢٥ مليوناً
مصر	فوق خمسين مليوناً

هذا والذي يبتدر الملاحظة الديمغرافية في مجموع العالم العربي قلة السكان فيه بالنظر لاتساع المساحة إذ تنقص الكثافة الحسائية الوسطية فيه عن ١٦ نسمة في الكيلو متر المربع منه وهي ضئيلة جداً وأقل من كثافة الأرض كلها وهي تبلغ ٣٨ . والعالم العربي اذا تقدمت الأمور الصحية والاقتصادية والعلمية فيه يستطيع أن يحمل مائتي مليون نسمة زيادة على عدد سكانه الحاليين .

ان زيادة السكان ضرورة ملحة في الوطن العربي . فكل زيادة للناس في ربوعه من شأنها أن تزيد في عمرانه وفي إمكاناته الاقتصادية وفي الدخل الفردي لأغلبية أقطاره . نعم ! ان هنالك قسماً كبيراً من الصحارى والأراضي المجدبة تقع في أجوازه ، كما أن هنالك بعض الأقطار فيه تكاد تكون غاصة بالسكان كمصر ولبنان . ولكن ثمة أراضي كثيرة في أجزاء البلاد العربية أيضاً ما زالت غير مستثمرة ، وهي تستدعي أيدياً عاملة ، وجهوداً بشرية قوية ، وتقنيات متقدمة ، واستصلاحاً ناجحاً .

ومن المعلوم أن قيام المشروعات الصناعية الكبيرة متصل ببلوغ كثافة السكان حداً مناسباً . وبهذا الاعتبار تكون زيادة السكان في الوطن العربي وسيلة من وسائل تقدمه الاقتصادي كما تكون وسيلة لمرانه ولتقدم المواصلات فيه ولجعل الكثافة السكانية تستطيع رد العدوان عليه ان وقع وتهيئة مقاومة سريعة ، أو لجعلها تقوى على اقامة مشاريع اقتصادية وعلمية وعمرانية مفيدة . ان زيادة السكان في أجزاء الوطن العربي بما تستلزم من عمران وتسهيل مواصلات وتقدم اقتصادي ونشاط فكري وتعاون اجتماعي معناها تنشيط الدم الجاري في أوصاله وزيادة القوة وبث الحياة المتوثبة فيه . ان الانسان في الوطن العربي هو أساس تقدمه وحسن نمته وسر نمائه ونشاطه .

بيد أن التنويه بمكانة زيادة السكان تثير في الديمغرافية وفي الجغرافية البشرية قضية الحد الموافق من السكان . ولا بد من الايام بها وجلاء غامضها وشرح عناصرها .

قضية الحد من الموافق وكثافات السكان

لا شك أن أبسط معيار يُستند اليه في الحكم على زيادة السكان أو قلتهم يكون بتأمل كثافتهم الحسابية وهي خارج قسمة عدد السكان على مساحة الأرض التي يعيشون عليها ، أي عدد السكان في وحدة المساحة المعتمدة . ويجوز أيضاً العكس وهو حساب خارج المساحة على عدد السكان أي ما ينوب الشخص الواحد من مساحة الأرض التي يشغلونها . ولكن قسمة السكان على المساحة أكثر استعمالاً وتداولاً .

ان كثافة الوطن العربي نحو ١٦ في الكيلومتر المربع كما سلف . ولكن أجزاء هذا العالم تختلف في درجة الكثافة . وقد سردنا في جدول سكان الدول العربية كثافات تلك الأجزاء . ولا شك أن الاغتصاص البارز انما هو في وادي النيل حيث تتجاوز كثافة السكان الذين يعيشون على الأرض المزروعة المأهولة فيه ١٢٠٠ نسمة في الكم^٢ وهي من أعلى الكثافات . ويزيد عبء هذا الاغتصاص أن السكان يعيشون في الغالب على الزراعة . بيد أن مستوى الحياة قد تحسن جداً بعد التخلص من الاستعمار وبعد اقامة دعائم الصناعة .

ان اختلاف الكثافة متعلق بموامل متعددة . ولا شك أن نظام الاقتصاد المستند الى الصناعة يزداد في طاقة استيعاب الأرض للسكان . وهذا ما هو حاصل في أوربة والبلاد الصناعية عامة . وكذلك نظام الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد أصحابه في غذائهم على البقول والحبوب لا على اللحوم . وهذا ما هو حاصل في الهند وشبه جزيرة الهند الصينية والصين . ولكن هذا النظام الزراعي اذا ساعد على زيادة السكان لا يدر بالفنى والثراء عليهم وانما يجعل مستوى معيشتهم منخفضاً . الا أن الصين بمد جمع شمل أجزائها واستتباب نظامها الحديث جعلت تعتمد على اقامة أركان الصناعة الحديثة . كذلك يتعلق اختلاف الكثافة بقضايا تاريخية كالحروب وهجرة بعض الأقوام من بعض المناطق الى مناطق أخرى وغيرها .

وقد يتعلق اختلاف الكثافة بموامل جغرافية كنوع التضاريس ودرجة خصب الأرض ووفرة المياه ومجاري الأنهار وغزارة الأمطار . وتأثير مثل هذه الموامل الجغرافية واضح في البلاد العربية حيث لم تتم سيطرة الانسان على الطبيعة . ولقد سلفت الاشارة الى ارتفاع الكثافة في وادي النيل الخصب ومن المعلوم أن الزراعة في هذا الوادي تعتمد على مياه النيل لا على الأمطار ، حتى انه قيل في مصر انها هبة النيل . واذا نظرنا الى سورية مثلاً وجدنا محافظة اللاذقية وهي على الساحل شديدة الاستيعاب نسبياً للسكان ومساحتها تؤلف ٢٥٥ بالمائة من مساحة القطر وهي من أغزر المحافظات السورية أمطاراً زيادة على صفتها الساحلية . وعدد سكان محافظة اللاذقية يكاد يعادل مجموع سكان محافظة دير الزور ومحافظة الحسكة مع أن مساحتهما معاً تؤلفان ٣٠٣ من مساحة البلاد .

على أن منطقة الجزيرة في شمال شرقي سورية قليلة السكان جداً مع أنها أخصب الأراضي . وهذا يدعو الى النظر في الموامل التاريخية والملامات التي أصابت البلاد وجعلت بعضها غامراً بعد أن كان في الماضي عامراً .

والأمر كذلك في المغرب العربي في يومنا هذا . ليس يتلقى أنفاس الصحراء الكبرى العارة ١٩! ولذلك لا غرواً اذا وجدنا السكان يتجمعون فيه حول مناطق المياه . ولو نظرنا الى الجمهورية التونسية لوجدنا الكثافة في الشمال أعلى بكثير منها

في الجنوب • والشمال أغزر مطراً من الجنوب • ومن الخطأ أيضاً أن نقتصر في المغرب على العوامل الجغرافية الطبيعية وحدها • بل ينبغي الرجوع الى التاريخ والى تغير طبيعة الأراضي وسبل المواصلات التي تربط أنحاء البلاد بعضها ببعض والى تبدل ذلك وفق الأحوال السياسية والسيادة أو التبعية • كان أكثر سبل المواصلات في الجزائر وفي المغرب موازياً لساحل البحر الأبيض المتوسط اذ كانت تصل البلاد العربية بعضها ببعض ، ثم خر بها الاستعمار وأنشأ سبلاً عمودية على الساحل ليسهل له الوصول الى أعماق البلاد ، كما استولى على أخصب الأراضي واستغلها اذ ذاك لصالحه •

بيد أن الأنهار ومياه الأمطار الغزيرة قد ينوب عنها في رفاهية السكان واجتذابهم آبار النفط • بل إن آبار النفط هذه أجدى عائدة وأوفر اقتصاداً وأشد ثراءً من مياه الأمطار ومن الأنهار لو لم تكن مدخراتها محدودة • وهي قديرة بعوائدها الجمة على تحلية مياه البحر واستصلاح الأراضي واحالة الرمال حدائق جميلة وعلى رفع مستوى معيشة السكان وعلى اجتذاب العمال والتجار وغيرهم من كل صقع • هذا ولا يخفى هجرة التجار والممال والمهندسين وأمثالهم في البلاد العربية وغيرها الى المملكة السعودية والى الكويت والى دولة الامارات والى ليبيا • ومثل تلك الآبار المتفجرة أحياناً في الصحارى تجعل الحاجة ماسة الى الأيدي العاملة والى العمران واتساع البنيان •

لهذا كله كانت الكثافة الحسابية غير كافية للدلالة على مدى استيعاب الأرض للناس • وهي في الواقع لا تُخَوِّل الموازنة والمقايسة بين سكان البلدان لاختلاف الأراضي في الخصب وتفاوت صلاحها للزراعة ولتباين الموارد الاقتصادية وغير ذلك •

فلا عجب اذا عمد الباحثون الى التماس أقيسة أكثر ملاءمة تسهل لهم الموازنة والمقابلة بين سكان البلاد المختلفة • وليس قياس من هذه القياسات التي تصوّرُها العلماء بكاف كسل الكفاية • ولكنها اذ تؤدي الى نتائج متفاوتة تكشف عن اشتباك الجوانب في قضية كثافة السكان وفي نمط معيشتهم ومستوى حياتهم • ومن المناسب أن نعرض أطرافاً من هذه القياسات •

عدد العلماء الى حساب كثافة دعوها بالكثافة الفيزيولوجية لا تدخل فيها مساحة الأراضي المجدبة وانما تقتصر على عدد السكان المام مقسوماً على مساحة الأراضي المزروعة أو الصالحة للزراعة كما ذكرنا ذلك بصدد وادي النيل . ولكن الاعتماد على هذه الكثافة لا يخلو من مساوئ ، لأن الأراضي المزروعة ليست سواء في درجة الخصب ولأن أساليب معالجاتها واستغلالها ونتاجها متفاوت بين البلدان في درجة الجودة . ولا ريب أن الفدان الواحد يعطي غلاتٍ مختلفة حسب خصب الأرض والعناية بها وتمهدها .

على أنه لو تساوت الدولتان فرضاً في خصب أراضيها وفي أساليب استغلالها لها لجاز أن تعتمد احدهما على ما تخرجه صناعتها من سجاد في معالجة أراضيها على حين تبادل الأخرى بعض سلمها الزراعية والصناعية للحصول على مثل ذلك السجاد .

ثم ان هنالك موارد أخرى للثروة غير الأراضي كالصناعة مثلاً اذ يتمكن السكان من مبادلة الغلات الزراعية المجنية في البلاد الأخرى بسلمهم المصنوعة . ولذلك يرى بعض الباحثين ابعاد السكان الذين يشتغلون بالصناعة وأمثالها والاقتنار على السكان الذين يعتمدون في معاشهم على زراعة الأرض . فينتهون في حسابهم الى ما يسمونه الكثافة الزراعية أو كثافة الزراعيين .

على أنه يلزم النظر في التجارة والصناعة الى جانب الزراعة . وكذلك لا يجوز اغفال آركزة الأرض وكنوزها ومواردها الطبيعية المعدنية ولا موارد البحار والأنهار والمياه الداخلية . وقد سبق أن أبار النفط في توفير الرزق وتيسير الثروة وتسهيل أسباب المعيشة أكبر قيمة من خصب الأرض الزراعي الغزير .

ولا يخفى أيضاً لزوم اعتبار نمط الحياة الاجتماعية والسياسية والادارية في البلاد والحذر من الشركات الرأسمالية الأجنبية التي تتحكم في الأسواق وفي أسعار النفط وأحياناً في اشغال الحروب لترويج بيع الأسلحة ثم في تعمير ما خربته تلك الحروب .

ان الانتباه لكل ذلك وحسابه أمر يتصعب جداً . ولذلك يعمد الى حساب

دخل الفرد والى اعتبار ما يدعى بالحد الموافق أو العدد الأمثل للسكان في بيان درجة ازدهام الناس أو تغلغلهم في مجتمع من المجتمعات .

ومعنى هذا الحد الموافق أو العدد الأمثل وجود حال من التوازن بين عدد السكان من جهة والموارد المتهيئة من جهة مقابلة بحيث يستمتع الشعب بأوفر قسط من الرخاء الاقتصادي أو بأوفر دخل لكل شخص .

وتكون البلاد ضئيلة الكثافة أو قليلة السكان اذا كانت كل زيادة لهم فيها ترفع الدخل الشخصي أو تزيد الرخاء العام . وتكون مكتظة اذا كانت الزيادة لا تفعل شيئاً من ذلك أو كانت تنقصه . والخلاصة أن علاقة عدد السكان بمساحة الأرض علاقة مشتبكة ينبغي أن ينظر فيها الى الموارد المختلفة والى نوع الأعمال وهل هي زراعية أو صناعية والى صفة الاختصاص عند العمال والى درجة الانتاجية والى توافر رؤوس الأموال وأمثال ذلك .

هذا وان الاكتظاظ الذي تبدو سماته في بعض البلدان مردّه الى قلة استغلال الموارد الطبيعية وضعف اختصاص العمال ومجرد الاعتماد على الزراعة . فالإكتظاظ في نهاية التحليل ظاهرة من ظواهر التأخر يزول عند أخذ المجتمع بأسباب التقدم . وهذا كله من شأنه أن يلزم الباحث بالتريث عند حكمه على قضية مشتبكة متعددة الجوانب كقضية الكثافة والحد الموافق للسكان .

وهذه كثافة بعض الدول الصناعية وغيرها عام ١٩٨٦ نوردتها لمجرد المقارنة والموازنة مع الدول العربية :

المملكة المتحدة ٢٣٣ - بلجيكا ٣٢٥ - فرنسا ١٠١ - الولايات المتحدة ٢٦ - الاتحاد السوفياتي ١٣ - الصين ١١٢ - هونغ كونغ ٥٢٩٢ .

- الأرقام مأخوذة من (Statistical Yearbook Unesco (1988

الريفيون والحضرين والبدو

ان الكثافة الزراعية تفرق كما رأينا بين المشتغلين بالزراعة وغيرهم من المواطنين . على أنه كثيراً ما يُعمد الى النظر في نسبة السكان الريفيين والمدنيين أو الحضر مكان لفظ الكثافة الزراعية .

فاذا قابلنا عدد سكان الأرياف بعدد سكان المدن في المجتمع ظهر فرق بين البلاد التي تسود فيها أشكال الاقتصاد الريفي والبلاد التي أثر النمو الاقتصادي الصناعي في نسبة المدين حتى انه قلل من عدد الريفيين جداً .

هذه المقابلة اذ تميز الريفي من الحضري أو المدني^(٤) تعتمد التفريق بين البلد وبين القرية أو المركز الريفي .

وليس هذا التفريق واحداً في المجتمعات كلها . وفي أغلب البلدان الأوربية يعتبر الحد الأعلى لسكان المركز الريفي ألفي نسمة .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يعين مكتب تعداد السكان في واشنطن مبدأ التفريق بين الريف والحضر عند كل تعداد .

وكذلك في الاتحاد السوفياتي يقرر مجلس السوفيات الأعلى حينما تعتمد الدولة إجراء التعداد أي المناطق ينفي اعتبارها مراكز ريفية لأن بعض المراكز القليلة السكان صناعية فلا تدخل في الريف عندهم .

وغالباً ما يعتبر الحد الأدنى للمدينة أو المركز الحضري في البلاد العربية عشرين ألف نسمة . وتدخل في الحضر مراكز الأقسام الادارية كمراكز الألوية والمدريات والمحافظة والأقضية والقصبات ذات المجالس البلدية .

ان تصنيف الناس ريفيين وحضريين إنما هو اعتبار اقتصادي احصائي .

تقل نسبة السكان الريفيين في مجموع السكان عن ٤٠ في المئة في الدول ذات الاقتصاد الصناعي المتقدمة . وهي بين ٤٠ الى ٧٥٪ في الدول التي تأثرت بالاقتصاد الصناعي وبتجمع رؤس الأموال لديها . وهي تتجاوز ٧٥٪ في البلاد التي ما زالت الصناعات الحديثة فيها ضعيفة .

وأحياناً يفضل حساب نسبة سكان المدن في مجموع السكان لبيان مدى التمدين أو التحضر ويمكن تصنيف البلاد العربية في مدى التحضر أي نسبة سكان المدن في مجموع السكان في ثلاث مجموعات :

١ - البلاد ذات المعدل الحضري العالمي ، وهي الكويت والبحرين وقطر وبعض الامارات في دولة الامارات العربية المتحدة ، حيث تنقص نسبة الريفيين فيها عن ٢٥٪ .

٢ - البلاد ذات المعدل الحضري المتوسط كالسعودية ومصر وليبيا وتونس والجزائر
والمغرب والمراق والأردن وسورية نسبة الريفيين فيها بين ٦٠ - ٢٥٪ .

٣ - البلاد ذات المعدل الحضري المنخفض نسبة الريفيين فيها أكثر من ٦٠٪ .
وأهم عامل في نمو الحضري بالعالم العربي الهجرة الداخلية من الريف الى المدن
والهجرة الخارجية الى هذه المناطق . وهذا النمو صائر الى الازدياد ولكنه بحاجة الى
الضبط والتنظيم .

هنالك صنف ثالث في المجتمعات العربية ليس مستقراً وهو البدو . ولا بد من
لمعة تتلمس حياتهم .

البدو ظاهرة طبيعية تطلق على حياة القبائل الرحل التي تنتقل في قلب
البادية أو الصحراء وحركة هؤلاء أفقية . ففي الشتاء والربيع ينتجعون مواقع الغيث
ومواطن الكلا ، وفي الصيف والخريف يتركون جوف الصحراء ويقتربون من
الأنهار وأبار المياه ويقيمون قريباً من المدن . أما الرعاة الذين يعيشون في شفاف
الجبال فحركتهم رأسية أي يهبطون الى الوهاد والسهول في الشتاء عند انخفاض
الحرارة وهطل الثلوج ويصعدون ابان الصيف في المرتفعات المكسوة بالكلا لرمي
قطبانهم . وجميعهم يقتضرون على الضروري من الأتوات
واللباس ويتخذون البيوت من الشعر والوبر والأكواخ من القصب وأحياناً من
اللين والحجارة قصداً للاستظلال والكنّ أما من كان معاشه في السائمة مثل الغنم
والبقر فيقال لهم شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر وهم يتقلبون في البادية
يرتادون المراعي والمياه لحيواناتهم . وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظلعنا
وأبعد في القفر مجالاً .

والبدو أصل للريف والحضر وسابق عليهما وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة
على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته الشهيرة . وهم عنده أقرب الى الخير والى
الشجاعة كما أن من صفاتهم حب الحرية والاخلاص للقبيلة .

والقبيلة هي العمود الفقري للحياة الاجتماعية البدوية وهي التي تنتمي
أفرادها الى جد واحد وتضم الأهل والأسر والأحفاد .

ومضيف شيخ القبيلة شبيه بالندوة النيابية لأفراد القبيلة يتناقل الجميع فيه الأخبار الواردة . وفيه تنزل الوفود القادمة ، وفيه يُبرم كثير من الأمور التي تهم القبيلة . وقد دخلت أجهزة الترنزستور أقصى خيام البدو . فهم يستمعون الى الأخبار العالمية والمحلية وينصتون الى ترتيل آيات القرآن الكريم والى الموسيقى والأغاني ، كما أنهم الى جانب مطاياهم من الابل والغنم يستعمل أغنياؤهم السيارات . وعندهم من الأسلحة ما يردون به عن أنفسهم المدوان وان وقع المدوان على أحد أفراد القبيلة ولم تنهياً الدية أو التعويض ولا الصلح لجأ أقرباء المعتدى عليه الى الثار ، وهو أمر كان معروفاً في جاهلية العرب فخرمه الدين الحنيف . ولكن التخلف والجهل جملاه يندر قرنهما أحياناً بين الأسر والقبائل . وقد قللت من شرفته سيطرة الحكومات المحلية وحسن تصرف الشيوخ وحكمتهم وتأثر نمط الحياة البدوية بخصائص الحياة المدنية المعاصرة وتطورها الفكري والتقني . وقد أوجدت هذه الحياة حاجات ومآرب جديدة قريبة من حياة الريف وحياة الحضرة .

ان هذا التأثير بالحياة المدنية المعاصرة كان نتيجة وسائل الاعلام ونتيجة تطور وسائل المواصلات مثل سد شبكات الطرق والسكك ووسائل النقل الحديثة التي حدثت من عزلة البدو بل قضت عليها وأودى ذلك كله الى ضعف الرابطة العصبية وانحلالها والى الاستقرار التدريجي الذي حل محل الظن والترحال . ومن استقر من البدو أصبح يزاول الزراعة وينتقل من الحياة البدوية الى الحياة الريفية ويدخل في نظام التعليم الذي تطبقه الحكومات المحلية .

وقد أخذت الدول العربية منذ أوائل القرن العشرين تهتم بهذا الجزء الطيب من سكانها وهو البدو فعمدت الى توزيع الأراضي ومعالجة الملكية الزراعية والى توفير الآبار في البوادي والى نشر التعليم ووسائل الثقافة . وشرع البدوي يرتبط بأرضه ووطنه ويبرز بين أبناء الوطن في مختلف الميادين الاجتماعية والثقافية والسياسية محافظاً على ذكائه الفطري وطباعه الأصيلة وعقيدته الرفيعة العالية .

وفي جميع البلاد العربية مشاريع لتوطين البدو تتحقق بالتدرج والتنظيم ولا سيما في سورية والمراق ودول الخليج والمغرب العربي . ومن أبرزها مشروع غياثي في دولة الامارات .

أما الاهتمام بالزراعة والتشجير فهوقائم على قدم وساق في مختلف أنحاء الوطن العربي مع انشاء السدود وجرالمياه وتحلية ماء البحر أحيانا . وكما تغلب الهولنديون على البحر بانشاء بعض الأراضي الزراعية فوقه قرب الشاطئ. فقد تغلب أبناء الخليج على الصحراء وقتامها وجعلوا بعض جوانبها حدائق وبساتين وجنات يحف بها الدوح والأشجار وتنتب من كل زوج بهيج ، وأناروها بالكهرباء انارة تبعث الراحة والطمأنينة والرضا في النفوس . ومع ذلك فلا بد في الحياة من مشكلات ناشبة . وقيمة الانسان في تغلبه على هذه المشكلات وحلها حلا يعود بالخير والمصلحة العامة على الوطن والشعب .

الذكور والاناث ومعيار نسبتها

يمكن حساب نسبة الذكور الى الاناث بين المواليد أولا في المجتمع كله ثانيا ، وذلك بالنظر في سجلات مكاتب الصحة أو في نتائج التعداد أو بطريق التقدير المستند الى تلك النتائج والسجلات .

نسبة الذكور الى الاناث بين المواليد تظهر بالاحصاء والتسجيل الدقيقين أن هذه النسبة ثابتة وهي تساوي ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت . وقد ترتفع بعض الشيء وقد لوحظ ذلك غب الحروب فتبلغ على أكثر تقدير ١٠٧ وقد تنخفض الى ١٠٢ ولكنها تبقى دائما حول ١٠٥ . وثبوتها هذا عبارة عن معيار ديمغرافي دقيق . وهو متعارف الى درجة أنه لو وجدت النسبة في نتيجة الاحصاء أو التعداد تزيد على ذلك أو تنقص عنه بمقدار كبير لصح أن يتخذ ذلك دليلا على خطأ التسجيل وقلة ضبطه . وقد تدعى هذه النسبة اختصاراً نسبة الجنس أو نسبة الذكورة . وعلى سبيل التمثيل نسبة الجنس بين المواليد ١٠٥ في الامارات العربية المتحدة والبحرين والكويت وقطروهي ١٠٦ في مصر والعراق والأردن ولبنان وسورية واليمن الديمقراطية واليمن العربية وعمان والسعودية (١٩٨٦) . ولو ظهر في بعض البلدان العربية ارتفاع هذه النسبة أحيانا لرجع ذلك الى قلة الضبط في مكاتب الصحة أو دوائر التسجيل ولا سيما في بعض الأرياف وكان هؤلاء الريفيين بعاداتهم القديمة يبلغ بهم اجلالهم لاناثهم وغيرتهم عليهم إلا يسجلوا أسماءهن عند الولادة أو عند التعداد . ولكن هذه العادات صائرة الى التغير والى الرغبة في ضبط الأمور الذي هو في مصلحة الجميع .

نسبة الذكور الى الاناث بين السكان : ارباء البنين على البنات في المدد بين المواليد من شأنه أن يجعل في جميع البلاد بين فئات الأعمار الفتية عدد المصبيان أكثر بقليل من عدد البنات ولا سيما منذ الولادة حتى سن العشرين أو بعدها بقليل . ولكن عدد الاناث لا يلبث أن يعادل عدد الذكور لأن وفيات الذكور أكبر عادة من وفيات الاناث في جميع مراحل العمر اذا تساوت العناية والأحوال الاجتماعية التي يعيش فيها الجنسان .

وهناك صروف تدخل نقصاً على عدد أحد الجنسين :

الهجرة الخارجية التي حملت مئات الألوف في القرن التاسع عشر الى أمريكا واسترالية زادت في عدد الذكور الشباب بهما ، لأن أكثر المهاجرين كانوا من جنس الذكور ، وبالمقابل زادت في نسبة الاناث بالبلاد التي رحل عنها أولئك المهاجرون .

وكذلك الشأن في البلاد النفطية العربية . فقد حملت تيارات الهجرة اليها آلاف من العمال العرب والعمال الأجانب والتجار والموظفين والسامسة والمهندسين والمعلمين ممن هي بحاجة اليهم في شتى شؤون الحياة والمعيشة والادارة . ولكن هذه البلاد عمدت الى تنظيم تلك التيارات فلا يدخل اليها منها الا من لهم يلبتون حاجاتها ومآربها . وأكثر هؤلاء من الذكور يهاجرون أول الأمر بأنفسهم ثم قد تلحق بهم أسرهم اذا سمحت الظروف بذلك .

ثم ان الهجرة الداخلية من الأرياف الى المدن الكبيرة تحمل على الغالب الذكور للعمل وتبوؤ بعض المناصب الادارية أو غيرها كما هو جارٍ في عواصم الدول العربية ومدنها الكبيرة . وهكذا يربّي عدد الذكور على الاناث في هذه المدن والمواصم .

والحروب عامل ضخم في تنقيص عدد الرجال لدى بعض فئات الأعمار وهي بالمقابل تزيد نسبة النساء في الأعمار الموازية كما حصل ذلك في ألمانيا والاتحاد السوفياتي من جراء الحرب العالمية الأخيرة ، ولكن التقنيات الحديثة في الحروب والرجم بالقنابل لا تفرّق بين أحد من الجنسين .

ومهما اضطرت نسبة الذكور الى الاناث في المجتمع فهي تمود بالتدرج الى الاعتدال بطريق المواليد بحيث يبقى الجنسان قريبين التعادل في العدد .

ان اغفال التسجيل يدخل نصيباً من الاضطراب في نتائج التعداد السكاني الجاري في بعض البلاد العربية وفي عدد المواليد ولا سيما الاناث في بعض الأرياف كما سلف ذكره . ولا بد عند تأمل تلك الأرقام ودراستها من محاولة تصحيحها بالأساليب العلمية الحديثة .

على انه اذا كانت وفيات الذكور في الحال الطبيعية السوية أكثر من وفيات الاناث في مختلف الأعمار وهو ما يجعل عدد الاناث يرتفع تدريجاً مع ارتفاع السن فان وفيات الاناث في البلدان العربية لا تزال مرتفعة بسبب الزواج المبكر وتعدد الحمل وحصول الولادة أحياناً في الأرياف دون اشراف طبيب أو قابلة مختصة وتمرض الأمهات الولادات لحمى النفاس التي قد تؤدي بحياتهن . ولهذا كله لُزمت العناية بهذا الركن الأساسي للصحة للمجتمع الناشئ ، فلا تحصل ولادة الا في مشفى وباشرف طبيب أو قابلة وفي ذلك حماية للأمهات وللمواليد ، وصيانة لهذا الجانب الغض من المجتمع .

الأعمار ومضلعاتها ومياري فتوة الشعب وهرمه

من السهل في كل مجتمع معرفة عدد أفواج الأحياء حسب أعمارهم من الولادة أي من الصفر حتى أكلاً^(٥) العمر الذي يبلغه الانسان نحو مائة وعشر سنين أو مائة وعشرين سنة .

وتقسم في علم السكان هذه الأعمار الكثيرة الى فئات تستغرق كل فئة خمس سنين أو عشرأ . ويمكن أن يعرف عدد الأشخاص من الذكور ومن الاناث في كل فئة من فئات الأعمار تلك أو نسبة كل منهم في المجموع .

ولمعرفة أفواج الأعمار شان . فمن المعلوم أن نشاط الحياة الاقتصادية منوط في جملة العوامل بعدد الشبان والكهول القادرين على العمل والانتاج . وان التوازن بين محاصيل الأعمال التي ينجزها الكهول والشبان والنفقات التي يستدعيها الأطفال والمسنون والمعجزة يتعلق بعدد كل فريق منهم . ثم انه لا بد ان نشبت الحرب من معرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح . وكذلك في التربية والتعليم من المناسب معرفة عدد الأطفال الذين تقع تبعة تعليمهم على الدولة اذا

بلغوا سناً معينة من أجل انشاء عدد كاف من المدارس . والأمثلة كثيرة في هذا المجال قد يطول استقصاؤها .

وكذلك تفيد معرفة توزيع الأعمار في تفهم كثير من خصائص السكان الديمغرافية الأخرى وتساعد على قياسها وحسابها .

ولدراسة الأعمار بالتفصيل يعتمد العلماء الى رسم ما يدعونه هرم الأعمار ترجمة حرفية للفظ الأجنبي ولفظ الهرم يدل على الجسم الممرور في مبادئ الهندسة . وليس الشكل هنا هرمياً . وإنما شاع هذا اللفظ في علم السكان ارتجالاً وهو في أحسن التأويلات يشبه مقطعاً سطحياً للهرم . ونحن نؤثر استعمال لفظ مضلع الأعمار .

ويرسم المضلع هذا بأن نحمل الأعمار من الصفر الى الحد الأعلى (مائة وأكثر) على محور الترتيبات ، وأن يحمل على محور الفواصل عدد أفراد الفوج أي عدد الأحياء في كل فئة من فئات العمر . ويوضع مضلع الاناث في جانب من المحور الرأسي ومضلع الذكور في جانب آخر . وتؤخذ فئات الأعمار خمس سنين أو عشراً كما ذكر آنفاً . وأحياناً تؤخذ كل سنة بل كل شهر في السنين الأولى من العمر لأهمية الوفيات بين الرضع والأطفال ، فيحصل خط بياني منكسر . ولو نقصنا فروق الأعمار حتى تبلغ سنة أو شهراً لاقترب الخط المنكسر من المنحني .

ويجوز أن تحمل على محور الفواصل نسبة كل فوج في جملة السكان . وتفضل هذه الطريقة خاصة حين تُقصد المقايسة والموازنة بين الشعوب في تسلسل الأعمار من الوجهة الديمغرافية .

يكون الشعب فتياً اذا كان المضلع عريض القاعدة دقيق القمة ، وذلك حين يكون الشعب كثير المواليد . ويكون الشعب هرمياً اذا كانت قاعدة المضلع ضيقة وقسمه العالي واسعاً منتفخاً ، وتكون المواليد والوفيات قليلة اذ ذاك .

والشعب الهرم والشعب الفتسي مصطلحان ديمغرافيان كما شرحنا ولا يقصد بهذين التعبيرين معنى آخر . هذا وينبغي أن يُفترق بين الشعب الهرم والشعب

القديم أو التاريخي . فالشعب العربي في العصر الحاضر شعب فتى بمعنى أنه كثير المواليد ولكنه شعب تاريخي وقديم .

ان مضع الأعمار للشعب سجل تاريخي للأحداث الانسانية الكبيرة التي تلم به وتؤثر فيه كالحروب والهجرة منه واليه والأزمات الاقتصادية . فالعروب الدامية تسبب بهلاك طائفة من الناس يظهر غيابها على مضع الأعمار في شكل فجوة أو ثغرة بين الذكور في أعمار معينة . والأزمات الاقتصادية والمجاعات وأمثالها من كوارث تستدعي كثرة الوفيات أو الهجرة من البلاد . ثم انه ينشأ عن ذلك غيظ في المواليد ولا سيما من جراء قتلى العروب ، وغيظ المواليد هذا يظهر في شكل فجوتين أو ثغرتين على جانبي المضع تدعيان بالطبقات الجوف . وهي بدورها تترك أثراً في خفض عدد عقود الزواج ونقص المواليد في المستقبل . وذلك كما تنجم عن سقوط حجر في الماء أمواج متلاحقة تنداح على سطحه . فدراسة مضع الأعمار دراسة دقيقة تشف عن أحداث الشعب التاريخية التي تركت في بنيته آثاراً وتفيد في توقع أحداث ديمغرافية مقبلة كهبوط عقود الزواج مثلاً متى بلغت تلك الطبقات الجوف سن الزواج .

وإذا دققنا مضعلات الأعمار لشعوب البلدان العربية النفطية وجدناها منتفخة في جانب الذكور خاصة لأعمار معينة . وذلك ناشئ عن هجرة الشباب والكهول للعمل فيها .

وقد يعتمد الباحثون بعض المعايير والأدلة الحسابية في معرفة فتوة الشعب وهرمه . انهم قد يحسبون العمر المتوسط للشعب وهو الوسط الحسابي لأعمار السكان أي هو عبارة عن مجموع أعمار السكان مقسوماً على عددهم . فإذا كان منخفضاً دل على فتوة الشعب كما في البلاد العربية . ولكن العمر المتوسط هذا ضعيف الدلالة . فقد يكون لشعبين جدمختلفين في التركيب عمر متوسط واحد . ثم ان كل تغير يطرأ في هرم الشعب يظهر أثره ضئيلاً في تبدل العمر المتوسط . هذا وان شخصين وليدأ ورجلاً في الستين من عمره لا يعادلان رجلين كلاهما في الثلاثين من العمر .

وقد يحسب العمر الوسيط وهو مصطلح احصائي آخر ومعناه العمر الذي

يقسم مجموع السكان قسمين متساويين بحيث يكون عددهم فوقه يكافئ عددهم
دونه . هذا ويفضل أن يُصنف السكان في ثلاث فئات كبيرة تقع أعمار أفرادها
تباعاً كما يلي :

١٩ - ٠

٢٠ - ٥٩ وقد تقسم الى قسمين ٢٠ - ٣٩ ، ٤٠ - ٥٩

٦٠ فما فوق .

وعندئذ يُقابل بين تركيب هذه الفئات في شعبين مختلفين أو في شعب واحد
لزمانين مختلفين . هذه الفئات الكبيرة الثلاث ذات صفات متفاوتة .

الفئة الأولى (١٩٠) تشمل الأطفال والأحداث واليافعين، وهم عماد المستقبل
ولكنهم من الوجهة الاجتماعية يعيشون على نفقة الفئة الثانية إذ لا يكاد يبدأ
الفتى يشتغل الا حول سن الخامسة عشرة .

والفئة الثانية تضم الشباب والكهول أي المنتجين حقا في ميدان الحياة الاجتماعية .
وإذا ابتداء الانتاج حول سن الخامسة عشرة فقد يستمر أحيانا إلى ما وراء الستين
ولا سيما في مجال الأعمال الزراعية .

والفئة الثالثة تحوي المسنين والشيوخ الذين بلغوا سن التقاعد أو الاحالة على
المعاش وبدؤوا ينقطعون بالتدريج عن الانتاج .

ولا يخفى أن عدد كل فئة بالنسبة الى المجموع أو الى الفئتين الآخرين يقدم
فكرة جلية عن قوى الشعب وعن فتوته وعن هرمه .

واليك المعايير المتممة حديثا في هذا المجال ، وهي أدلة عديدة :

يعتبر الشعب فتياً اذا كانت نسبة الذين أعمارهم أقل من ٢٠ سنة فيه أكثر
من ٣٥ في المائة . وأنه لا يزال في مرحلة الفتوة اذا ترجحت هذه النسبة بين
٣٣ - ٣٥ .

• وأنه ليس بشديد الهرم اذا كانت هذه النسبة فيه تساوي ٣٠ .

• وأنه هَرَمٌ اذا نقصت هذه النسبة فيه عن ٣٠ .

وإذا نظرنا الى عدد الذين أعمارهم أقل من ٤٠ سنة اعتبرنا الشعب فتياً اذا

كانت نسبتهم فيه لا تقل عن ٦٥ في المائة .

وإذا نظرنا إلى عدد الذين تجاوزوا الستين فيكون الشعب فتياً أيضاً إن كانت نسبتهم لا تزيد على ١٢٪ .

هذا وفي كثير من الأحيان تحسب النسبة الآتية :

$$\frac{\text{عدد الذين فوق الستين سنة}}{\text{عدد الذين تحت العشرين سنة}}$$

فالشعب الفتى تكون هذه النسبة فيه أقل من ٤٠ .

هذا ويترتب على هرم الشعب أوفتوته نتائج في ميدان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية تحتاج إلى شرح ومناقشة .

الزواج والولادة والخصب

نظم الإسلام الزواج تنظيمًا دقيقًا وحفز عليه ورغب فيه . وهو عند الشافعية من الشهوات لا من القربات ، فالتخلي للعبادة عندهم لغير التائق للزواج أفضل من الزواج ، وهو عند الحنابلة سنة . والاشتغال به أفضل من التخلي لنوافل العبادة . وهو عند المالكية مندوب على الجملة ، ولكنه يبلغ عند الحنفية مرتبة العبادة . بل يصل عند ابن حزم الظاهري إلى مرتبة الفريضة على القادر له .

ولاشك في أن تنظيم الإسلام للزواج كان حرصاً منه على ضمان غريزة الحب وتوجيهها وجعلها تسلك أفضل السبل إلى غايتها الأوهى تمام الزواجين من الناحية الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية وتعاونهما وتوادهما وتراحمهما وسكون أحدهما إلى الآخر . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الروم : ٣٠ : ٢١) .

وهكذا أقام الإسلام على غريزة الحب الطبيعية نظاماً شرعياً واجتماعياً أعلى وأسمى من مجرد الميل الطبيعي . يضاف إلى ذلك قلوب الرجال العرب النبيلة التي تنفق بأجمل عواطف الحب . ويرغب كل أمرىء منهم في أن ينشئ أسرة ويرعى زوجته وأولاده ويحميهم جميعاً ويدللهم مرافق الحياة ، كما أن المرأة العربية

اشتهرت منذ القديم بالخَفَر والصبر والمغاف والتضحية وتمهدها لبيتها وزوجها وأولادها .

فالحال الطبيعية والاجتماعية السليمة عندنا أن يكون كل انسان ذكراً أو أنثى متزوجاً . ولما كان العرب حراساً على صحة الأنساب وسعادة الأسرة ممنوا أن يتسرب اليها الفساد ونظروا اليه على أنه كارثة ومأساة لا سخرية ولا هزواً كما عند بعض الشعوب .

أما العزبة فيُنظر اليها في البلاد العربية بوجه العموم على أنها أمر غير طبيعي ، وليس بالسوي ولا المستحب .

ولهذا كان معدل العزّاب بين الرجال والنساء في البلاد العربية لدى مختلف فئات الأعمار أقل منه في البلاد الغربية .

..... فالزواج اذن هو الحال الغالبة بين الناس .

ثم ان الزواج مبكر في البلاد العربية ولا سيما بين البنات . ولو اعتمدنا على الأرقام التي يعطيها الاحصاء للزم أن يُنظر اليها على أنها تقريبية في البلاد العربية لأنه يجوز اجراء عقد الزواج الشرعي قبل تسجيله أو دون تسجيله ولا سيما في الأرياف ، وان كان التسجيل صائراً بالتدريج الى الضبط والدقة . والناس في البلاد العربية يحبون أن يكون لهم ذرية فهي عندهم استمرار لذواتهم ، وهي عندهم ينبوع سعادة ، وهي عندهم مجال للتفاخر والتكاثف . وقد دعم الدين هذا الميل المتأصل في النفوس ، كما جاء في الحديث الشريف .

ويذكر أبو حامد الغزالي في جملة « الخصال المطيبة للميش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده » على حد تعبيره « أن تكون المرأة ولوداً فان عرفت بالمقر فليمتنع عن تزوجها ، قال عليه السلام : عليكم بالولود الودود . فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فإراعي صحتها وشبابها فانها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين » .

وعندنا أن اباحة تعدد الزوجات في بعض الأحوال الاستثنائية تدخل في العناصر الايجابية لتنظيم العلاقات الجنسية ولتكاثر النسل . وبتفهم هذا بسهولة اذا

انتبهنا في التاريخ لارباء عدد النساء على الرجال في صدر الاسلام بسبب شهاده المجاهدين الذين فتحوا جوانب الأرض ، وكذلك ورث المسلمون الأوائل ما خلفته جاهليتهم من آثار التقاتل والتفاني بين القبائل اذ كانت الحروب والغزوات سجلاً بينهم . ولا شك أن آثارها كانت مشؤومة على الذكور ، ولا يمكن أن يعدها وأد البنات الذي كان محدوداً ، والذي انما عرف عند قليل من القبائل وحسب ، فعمره الاسلام .

واتجاه الدين في روحه فالى الاكتفاء بزوجة واحدة . ذلك أدى للسعادة ولحسن تربية الأولاد . على أن التطور الاجتماعي وضع صماباً اقتصادية ازاء تعدد الزوجات . فأصبح هذا التمدد قليلاً أو نادراً جداً الا في البيئات الريفية ولدى الأغنياء من الريفيين . ويقصد الزواج المتعدد أحياناً الى تيسير بعض الأمور الاقتصادية لأن الزوجة في الريف تقوم بكثير من الأعباء الاقتصادية كالعناية بالماشية واعداد الحليب والزبدة والجبن وغيرها . بيد أن ذلك صائر الى النزوال والاحتجاب .

ومع تلك الاعتبارات الدينية والنفسية السالفة نعتقد أن الأحوال الاجتماعية العامة ونمط الاقتصاد الزراعي هي المحددة نهائياً بوجه عام لارتفاع معدل المواليد في البلاد العربية . تحقيقاً لمؤتمر علوم ربي

ان معدل المواليد^(٦) هذا يحسب بقسمة عدد المواليد في سنة تقويمية^(٧) على متوسط عدد السكان في خلال السنة نفسها وهو ما يكافئ عدد السكان في ا تموز (يوليو) على أن يضرب خارج القسمة بالف :

$$\text{معدل المواليد} = \frac{\text{م} \times 100}{\text{ع}}$$

مو عدد المواليد ، عدد السكان في منتصف السنة .

وإذا شملت الولادات المواليد الأحياء والمواليد الأموات وصف المعدل بالجممي .

ولكن لا يدخل فيها على الغالب الا المواليد الأحياء فيوصف المعدل بالناجع أو

الواقمي . وإذا أُهْتَفِلَ وصف معدل المواليد فالمراد هذا المعدل الأخير الذي لا يحوي

الا المواليد الأحياء . وهو المعدل المتداول الشائع الاستعمال .

على أنه من المناسب عند حساب عدد المواليد في السنة أن ننتبه لعدد المواليد الحاصلة فعلا في السنة وعدد المواليد المسجلة لأن مهلة التسجيل قد تكون في بعض البلدان طويلة تتجاوز الشهر، وهذا ما يجعل العدد الأول يختلف عن العدد الثاني أحيانا .

كذلك من المناسب الانتباه لتعريف المولود الحي لأن المجتمعات تختلف في هذا الاعتبار .

فبعض البلدان يعطي مهلة ثلاثة أيام أو أكثر لتسجيل المولود، فإذا هلك المولود خلال هذه المهلة سجل في عداد المواليد الأموات لا في عداد المواليد الأحياء .

وثمة اختلاف في تعريف الوليد الحي عند ولادته هل يعتبر التنفس أو الاستهلال أو أي أمانة حياة أخرى دليلا على حياته فيُعد وليداً حياً ولو هلك بعد ذلك بوقت قصير أو هل تعتبر مدة الحمل (ستة أشهر في إيطاليا) أو مقدار الوزن (٤٠٠ غرام كما في تشيكوسلوفاكية) شرطاً لاعتباره قابلاً للحياة لأن الأجنة الذين يولدون قبل تلك المدة أو الذين أوزانهم أقل من ذلك قلما يعيشون ولو ولدوا أحياء . هذه اعتبارات تتفاوت بتفاوت التشريع .

هذا وقد اقترحت منظمة الصحة العالمية في آذار (مارس) سنة ١٩٥٠ تعريف « ولادة الوليد الحي » بأنها « طرح جسم الأم نتاج الحمل بصرف النظر عن مدة الحمل أو اخراجه منه على أن يتنفس هذا النتاج بعد الانفصال أو تظهر عليه أمانة من أمارات الحياة كخفقان القلب أو نبض الجبل السري أو اختلاج عضلة قد تخضع لفعل الإرادة سواء قطع الجبل السري أم لم يقطع وفُصلت المشيمة أو لم تفصل » .

ولاشك في أن توحيد هذه الاعتبارات لدى مختلف المجتمعات ييسر الموازنة الصحيحة بين معدلات المواليد .

هذا وقد اهتم الفقهاء المسلمون منذ القديم بتعريف المولود الحي وبتفريقه عن المولود الميت وأراؤهم في هذا الموضوع تطابق تماماً توصية منظمة الصحة العالمية . جاء في « تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق » : « وطريقة معرفة انفصاله حياً أن يستهل أو يُسمع منه عطاس أو تنفس أو يتحرك بعض أعضائه أو ما شاكل ذلك » (أ) .

ويجري على هذا النهج من البلاد العربية جمهورية مصر العربية . فهي تعتبر أي أمانة من أمارات الحياة كافية لاعتباره حياً ، فإذا مات قبل تسجيله سجل بين المواليد الأحياء ثم بين الوفيات ولم يسجل بين المواليد الأموات . وتجري سورية على تسجيله بين الوفيات لا بين المواليد الأحياء .

وإذا تأملنا معدلات المواليد في مختلف البلدان جاز أن نصنفها تصنيفاً عاماً في ثلاثة أقسام :

- ١ - بلاد مولوديتها ضعيفة ، (وهي ماقل عدد المواليد فيها عن ٢٠ لكل ألف شخص من السكان) .
- ٢ - بلاد مولوديتها متوسطة (من ٢٠ الى ٣٠ بالألف) .
- ٣ - بلاد مولوديتها مرتفعة (أكثر من ٣٠ بالألف) .

وفي الغالب تكون البلاد ذات الحضارة الصناعية الرأسمالية ذات معدل مواليد منخفض ، على حين أن البلاد الزراعية والبلاد الناشئة النامية ذات معدل مرتفع . والبلاد العربية مرتفعة المولودية ، ومعدل المواليد فيها على الغالب يناهز الأربعين بالألف . وسنورد عما قليل بعض الأمثلة .

ويفيد معدل المواليد في بيان زيادة الشعب في السنة بوجه عام ، ولكنه غير دقيق الدلالة . ذلك أن المواليد تنسب الى مجموع السكان في منتصف السنة ، وفيهم الأطفال والأولاد الصغار والمسنون والنساء اللواتي تجاوزن سن الخمسين . وكذلك لا يكفي الاعتماد على هذا المعدل وحده في المقابلة بين الشعوب لأن فئات الأعمار عندها ليست متشابهة ، فبعضها كما ذكرنا في بحث الأعمار فتى" وبعضها همريم أو مسنين .

وإذا أريد التدقيق في الولادات لزم حساب معدل الخصب^(٩) وهو عبارة عن عدد المواليد في غضون السنة التقويمية منسوباً الى عدد الاناث من سن العاشرة أو سن الخامسة عشرة الى نهاية التاسعة والأربعين .

فإذا كان عدد المواليد يشمل المواليد الأحياء والأموات حصلنا على الخصب الجمعي ، وإذا شمل الأحياء وحدهم كان الخصب الواقعي . وإذا أغفل الوصف كان الخصب الأخير هو المقصود .

وباعتبار معدل الخصب يمكن تقسيم البلاد ثلاث زمر :

- ١ - بلاد معدل الخصب فيها ضعيف (أقل من ٨٠ بالآلف) .
 - ٢ - بلاد معدل الخصب فيها متوسطة (بين ٨٠ - ١٠٠ بالآلف) .
 - ٣ - بلاد معدل الخصب فيها مرتفع (أعلى من ١٠٠ بالآلف) .
- والبلاد العربية من الزمرة الأخيرة .

ان معدل الخصب أقوى دلالة على مدى الانسال في المجتمع من معدل المواليد ، لأنه بالتعريف ينسب المواليد الى الاناث في سن الانسال لا الى مجموع عدد السكان .

ان التبكير في تزويج البنات من أهم العوامل التي ترفع معدل الخصب في فئات الأعمار الفتية بين الزوجات . ولو رجعنا الى جدول نسب المتزوجات لرأينا أن نسب الزوجات اللواتي أعمارهن بين ١٥ - ١٩ وبين ٢٠ - ٢٤ في البلاد العربية تعادل نسب عدد الزوجات اللواتي أعمارهن بين ٢٠ - ٢٤ ، ٢٤ - ٢٥ في فرنسا والسويد مثلاً . فالتبكير في زواج البنات اذن حاصل في البلاد العربية بمقدار خمس سنوات بالنسبة للبلدين الأوربيين الأتنيين . وهذا التبكير أهم نتائجه زيادة الأولاد واتساع الذرية .

هذا وترغب الأسرة العربية في الأولاد فهم عدة الأهل وعتادهم وعمادهم وأملهم الكبير . والنفقات القليلة التي تصرف على تربيتهم تعود بالخير الوفير على أهلهم وعلى بلادهم ، وانه لا شيء أغلى ولا أعلى من الانسان ولا سيما اذا نظرنا الى القيم الرفيعة المختلفة التي يستطيع تحقيقها وانشاءها وابداعها .

والذي يجعل الأهلين يرغبون في الذرية أحياناً ارتفاع نسب الوفيات بمحض الشيء بينها . فاذا فقد الأبوان ولداً لهم ارجوا الله أن يثيبهما أجراً في مصيبتهما وأن يعوضهما بدلا منه . هذا ولا ريب في أن معدل المواليد سوف يقل بعد امد حين تتقدم الأحوال الاجتماعية وتزدهر الموارد الاقتصادية ويرتفع مستوى المعيشة وتنخفض تبعاً لذلك الوفيات .

وثمة فريق من الباحثين قد يُغَرِّبهم التفكير الاستعماري فيدعون الى ضبط النسل وتقليل المواليد في البلاد العربية .

ولقد سلف أن أكثر البلاد العربية متغلغل بالناس قليل الكثافة بهم محتاج الى العمران الذي يتم بزيادة السكان : وأيا كان الأمر فلا شك أن السبيل القويم السمي لتقليل الوفيات بتحسين أحوال المعيشة عامة وزيادة الموارد الاقتصادية والعناية بالأمور الصحية .

فاذا تهيأ ذلك وتقدمت البلاد انخفض بطبيعة الأمر معدل المواليد ، وهكذا يبين أن الصواب البدء بمكافحة الموت لا بمكافحة الحياة .

الوفيات

الولادة والوفاة بالنسبة الى الفرد طرفان لحياته في هذا العالم . الولادة بدايتها والوفاة نهايتها ولكنهما للمجتمع وظيفتان دائمتان . فهو يضيع بالموت في كل حين قسماً من عناصره ، ويمتاض بالولادة عناصر جديدة . ويشبه في هذا التجدد الجسم الحي الذي يضيع بعض خلاياه ويتبدل بها خلايا جديدة .

وإذا كانت الولادات عاملاً مهماً في زيادة السكان فالوفيات تأتي في طبيعة العوامل التي تنقص عددهم . ويحسب لها في كل مجتمع معدل بأن يحصى عددها في غضون السنة التقويمية ويقسم على عدد السكان في منتصف السنة ويضاعف خارج القسمة بألف .

وقد يؤخذ عدد السكان في أول السنة بدلاً من منتصف السنة . فتحصل عندئذ نسبة الوفيات .

هذه النسبة الأخيرة تتضمن معنى احتمال الوفاة المتعرض له كل فرد من السكان في بداية السنة . ولكل من النسبة والمعدل موضع استعمال والفرق بينهما ضئيل جداً (١٠) .

هذا ويمكن في العصر الحاضر تقسيم البلدان ثلاث زمر بحسب ارتفاع معدل الوفيات السنوي .

- ١ - البلدان الكثيرة الوفيات (المعدل أعلى من ١٣ بالألف) .
- ٢ - البلدان المتوسطة الوفيات (المعدل بين ١٠ - ١٣) .
- ٣ - البلدان القليلة الوفيات (المعدل أقل من ١٠) .

هذا جدول بالاحصاءات الحيوية في البلاد العربية يوضح المعدلات المهمة

الدولة	السنة	معدل المواليد بالآلاف	معدل الوفيات بالآلاف	معدل النمو الطبيعي	نسبة وفيات الرضع	الأجل المتوقع لدى الميلاد	معدل النسب الكلي ^(١)
المملكة الأردنية الهاشمية	١٩٨٤	٤١٥	٦٦	٣٤٩	٦٣٠	٦٦٦	٧٢
دولة الامارات العربية المتحدة	١٩٨٦	٤٦٣	٦٦	٣٩٧	٤٨٩	٦٦٨	٧٥
دولة البحرين	١٩٨٤	٣٢٤	٩٥	٢٣٠			٤٧
الجمهورية التونسية	١٩٨٦	٣١١	٦٤	٢٤٧	٨٥٣	٦٠٠	
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	١٩٨٥	٣٩٥	٨٤	٣١١	٩٣٥	٦٠٠	
جمهورية جيبوتي	١٩٧٠	٤٢٠	٧٦	٣٤٤			
المملكة العربية السعودية	١٩٨٦	٣٧٣	١٢٨	٢٤٥	١٠٨٦	٥٦٠	٧٢
جمهورية السودان الديمقراطية	١٩٨٥/٨٠	٤٥٩	١٧٤	٢٨٥	١١٧٨	٤٧٨	
الجمهورية العربية السورية	١٩٨٦	٤٢٤	٨٣	٣٤١	٥١٣	٦٦١	٧١
جمهورية الصومال الديمقراطية	١٩٨٥/٨٠	٤٧٩	٢٣٣	٢٤٦	١٥٤٩	٤٠٩	
الجمهورية العراقية	١٩٨٦	٤٥١	٨٦	٣٦٥	٦٣٣	٦٢٧	٧١
سلطنة عمان	١٩٨٤	٤٧٥	١٥٣	٣٢٢	١١٦٤	٥٠٧	٧١
فلسطين	١٩٨٢	٤٤٥	١٣٢	٣١٣			
دولة قطر	١٩٨٦	٣٣١	٤٨	٢٨٣	٥١٥	٦٦١	٤٩
دولة الكويت	١٩٨٤	٣٤٧	٢٨	٣١٩	١٨٥	٦٩٠	٦٦
الجمهورية اللبنانية	١٩٨٤	٣٠٤	٧٧	٢٢٧	٤٩٢	٦٦٨	٣٨
الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية	١٩٨٥/٨٠	٤٥٦	١٠٩	٣٤٧	٩٦٥	٥٨٣	
جمهورية مصر العربية	١٩٨٦	٣٩٣	٨٧	٣٠٦	٧١٢	٦٠٥	٥٣
المملكة المغربية	١٩٨٥/٨٠	٣٦٤	١١٣	٢٥١	٩٦٥	٥٨٣	
الجمهورية الاقليمية الموريتانية	١٩٨٥/٨٠	٥٠١	٢٠٩	٢٩٢	١٣٧٣	٤٣٥	
الجمهورية العربية اليمنية	١٩٨٦	٤٩١	٢٠٨	٢٨٣	١٤٠٢	٤٧٣	٧٥
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	١٩٨٦	٤٩٧	١٧٨	٣١٩	١٣٣٣	٤٩	٧٥

تقلا عن المجموعة الاحصائية العربية الموحدة

المدد الثاني نيسان/ابريل ١٩٨٩

جامعة الدول العربية

الامانة العامة

الامم المتحدة

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا

١ - معدل النسب الكلي بحسب هنا للمرأة الواحدة وهو غير معدل النسب العام الذي سلف شرحه وسياتي شرح النسب الكلي .

وارتفاع معدل الوفيات يشير الى عدم تقدم الأمور الصحية والاقتصادية في البلاد تقدماً كافياً وقد انخفضت معدلات الوفيات في البلاد العربية انخفاضاً ملحوظاً نظراً لتقدم الأحوال الصحية فيها .

ولكن معدل الوفيات هذا غير دقيق الدلالة . فهو يشير الى عدد الأموات عامة ويُنفل عاملاً مهماً في الوفيات وهو اختلاف الأعمار ، ولذلك لا يشف تماماً عن الأحوال الصحية في البلاد . ومن المعلوم أن معدل الوفيات في السجن مثلاً أقل منه في المستشفى أو في ملجأ المعجزة مع أن أحوال المستشفى أو الملجأ أجود وأكرم من أحوال السجن . وقد يكون الشيمان متقاربين في العادات والنظم الاجتماعية وفي أحوال الاقليم ، ومع ذلك يختلف معدل الوفيات عندهما لاختلاف توزع الأعمار .

ولذلك تحسب معدلات الوفيات في فئات الأعمار اذا اعتبر عدد الفئة في منتصف السنة أو نسب الوفيات اذا اعتبر عدد الفئة في أول السنة بحسب مقتضيات الحساب ويوازن بينها عند اللزوم فهي أصح شفوفاً عن الأحوال الصحية في المجتمعات .

ويمكن حساب نسب الوفيات لكل سنة من سني العمر وعدد الوفيات فيها أيضاً ورسم الخط البياني الدال على اختلاف نسب الوفيات مع الأعمار وكذلك الخط البياني الدال على اختلاف عدد الوفيات في الأعمار .

أما شكل المنحني الأول فهو قريب من حرف اللام العربي ، وأما شكل المنحني الآخر فهو بعد هبوطه يرتفع بأناة حتى يبلغ نهايته العظمى في سن ندعوها بالممر النظامي أو الطبيعي أو المعتاد ، تكون الوفيات فيه أكثر منها في الأعمار التي بعده والتي قبله بصرف النظر عن وفيات الرضع .

وفيات الرضع

هي بالاصطلاح الوفيات التي تقع بين المواليد الأحياء قبل أن يتموا عامهم الأول . فالرضيع هنا بالاصطلاح من لم يبلغ تمام العام الأول مع أن مدة الرضاعة عامان .

ولحساب نسب وفيات الرضع طرق تتفاوت دقة وضبطاً أبسطها وأهمها

ما يأتي :

١ - يحسب عدد وفيات الرضع في السنة التقويمية وينسب الى عدد الرضع الذين أعمارهم أقل من سنة أو الى عدد المواليد الأحياء في تلك السنة .

$$\frac{و}{ض} = نا \quad \text{أو} \quad \frac{و}{مو} = نا$$

ولكن هذه الطريقة تنقد بأن الوفيات الحاصلة بين الرضع الذين تقع أعمارهم دون السنة الأولى قد تصيب الرضع المولودين في السنة الفائتة .

٢ - لذلك قد تنسب وفيات الرضع في السنة التقويمية الى متوسط المواليد في هذه السنة وفي السنة التي قبلها .

$$\frac{و}{\frac{و}{2} + مو} = نا$$

٣ - لكن الوفيات التي تصيب مواليد السنة المحسوبة فيها النسبة أكثر من الوفيات التي تصيب مواليد السنة الفائتة .

لذلك يعدل الدستور السابق على الشكل التالي :

$$\frac{و}{و + مو} = نا$$

$$\frac{و}{و + مو} = نا \quad \text{أو} \quad \frac{و}{و + مو} = نا$$

باعتبار مو مواليد السنة الفائتة .

٤ - يسبب الى عدد المواليد في السنة التقويمية مو عدد من يتوفى منهم في السنة نفسها وليكن و ثم في في السنة التالية وليكن و^٢ .

$$\frac{و + و^2}{مو} = نا$$

وكما يأتي الاختلاف من طريقة الحساب كذلك يأتي من تفاوت نظم التشريع المتعلق بتسجيل المواليد ومن تفاوت الاعتبارات حول تعريف المولود الحي والمولود الميت . وقد تقدم شرح هذا التفاوت عند بحث الولادات .

ولكن هذا التفاوت يُدخِل في الحساب فروقاً ضئيلة لا تمنع من المقايسة والموازنة بوجه عام .

ومن المعلوم أن وفيات الرضع في البلاد العربية مرتفعة . ولا بد من تمهد هذا الجانب الفرض من بنياننا القومي . ومن الضروري إقامة تشريع يكفل العناية بالأمهات الحوامل ويسهل الميادات الطبية لهن ويجعل كل ولادة لا تقع الا في مستشفى أو بإشراف طبيب أو قابلة مختصة . هذا ، ولا شك أن وفيات الرضع ضرب من التضييع في رأس المال الانساني ان جاز هذا التمييز . وفيه ارهاق لصحة الأمهات لا طائل فيه ولا نفع ، عدا الأحزان التي تساور نفوس الأهل عند وفاة وليدهم وعدا النفقات التي تصرف فتضيع سدى وتذهب عبثاً .

وإذا كان الانسان مسؤولاً عن عمره الى حد فان الرضيع أو الطفل يبدو وكأنه وضع زمام حياته بين يدي المجتمع الذي وفد اليه . فالمجتمع مسؤول عنه ، وعلى المجتمع تقع تبعة هلاكه في الغالب حين يموت . ذلك أن المجتمع بتنظيم الأمور الصحية فيه وحماية الأمهات الحوامل والأطفال يستطيع أن ينقص نقصاً كبيراً الوفيات التي تقع بين الرضع والأطفال . حتى ان مدى نقصان وفيات الرضع يستطيع أن يشف عن مقدار تقدم المجتمع .

ان وفيات الرضع مرتفعة نسبياً في الحال الطبيعية لمدى مختلف المجتمعات ، وكان كل انتاج أياً كان نوعه مادياً أو حيويلاً لا بد من أن يلزمه نصيب من التلف . بيد أن تقدم الحضارة يؤدي الى نقصان هذا التلف الى أصغر حد ممكن . وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب إذا وجدنا أن لكل مجتمع نسبة لوفيات الرضع مرتبطة بدرجة تطوره وصالحه لكي تكون دليلاً على هذا التطور . فهي بهذا الاعتبار معيار عددي يُستند اليه أحياناً في الدراسات الاجتماعية لبيان مدى تقدم المجتمع عامة ، لا من الوجهة الصحية وحدها ، لأن الأمور الصحية والاجتماعية والاقتصادية وأمثالها متشابكة متضامنة متساندة . وقد ظهر من الدراسات الاجتماعية الحديثة أن هذا الجانب الفرض من الأسرة يتلقى الى مدى كبير آثار التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية العامة . فوفيات الرضع قسم كبير منها تكون أسبابه اجتماعية وليست قائمة في بنية الرضيع أو الطفل .

على أن بعض الأسباب قد تكون فيزيولوجية . من هذه اختلاف الأبوين في الزمرة الدموية .

الزمرة الدموية Rh أو العامل بندر

O , AB , B , A من المعروف أن الدماء تصنف في أربع زمرة أساسية وهي
وأنها على ذلك تصنف في زمرة أخرى مثل M , N , P , H , G . ثم كشف العالمان
الأمريكيان وينسر Wiener وبتسرز Peters سنة ١٩٤٠ في دم القرد المسمى
بنسدرأ Macacus Rhesus ، ثم في الانسان ، هذه الزمرة التي دعيت بسأول
اسم القرد . وهي منتشرة بين الناس بنسبة ٨٠ - ٨٥ بالمائة واختلاف الزوجين
في هذه الزمرة بأن يكون دم الرجل يحوي هذا العامل على حين دم زوجته خلو منه
داع الى قلة النسل ، اذ يولد للزوجين الولد البكر بسلام ، ولكن في خلال الحمل
يتكون في دم الأم الجسم الضدي أو الداحرة التي تؤثر في دم الجنين الثاني أو
الثالث أو غيره اذا ورثوا من أبيهم العامل Rh ويستدعي ذلك اسقاطهم أو
اصابتهم بفقر الدم وهلاكهم بعد الولادة اذا لم تفسل دماؤهم وتبدل ، ولذلك
ينصح للمقبلين على الزواج أن يخللا دماءهما ويعرفا الزمرة التي ينتسب
كلاهما اليها . حتى اذا رغبا في الذرية عرفا مصيرها ان اختلفا في هذه الزمرة
الدموية .

على أن كثرة شيوع هذه الزمرة بين الناس كما قدمنا يقلل احتمال تفاوت
الزوجين فيها ويضعف من أهميتها في النطاق الاجتماعي العام ، على حين يبقى
أثرها من الناحية الفردية .

العوامل المؤثرة في الوفيات

يؤثر في الوفيات عوامل متفاوتة بعضها داخلي وآخر خارجي . أما الداخلي
فكالعمر والجنس .

العوامل الداخلية

العمر - ان وفيات الرضع تكون عادة مرتفعة فاذا تجاوز الوليد السنة الأولى
قلّ تعرضه للوفاة وزاد احتمال تكميره اذ تهبط نسبة الوفيات هبوطاً سريعاً في السنة
الثانية والثالثة وهلم جرا ، ما عدا بعض البلدان النامية ولا سيما التي حول البحر

الأبيض المتوسط ومنها البلاد العربية حيث تستمر وفيات الأطفال الصغار مرتفعة في السنة الثانية والثالثة والرابعة ثم تنخفض انخفاضاً شديداً . وقد نقصت وفيات الأطفال بفضل المضادات الحيوية وتقدم العلاج . وما وقع منها يعود أكثره الى طوارئ تحدث عن الطيش وعن اغفال أهليهم لهم . ثم اذا كبروا كدهم الجهد وتداولتهم الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وهموم مكاسبهم ومقتضيات أعمالهم . فاذا بلغوا عتياً من العمر تداعى الجسم وناله النصب والاجهاد . وربما كان تداعى بنية الجسم بالكبر أشد تأثيراً في المسنين من العوامل الخارجية . بل ذلك التداعى يكون سبباً لزيادة تأثير العوامل الخارجية فيه .

الجنس - ثم ان نسبة الوفيات بين الاناث أقل منها بين الذكور عامة في جميع الأعمار اذا تساوت الأحوال الاجتماعية التي ترى الذكور والاناث جميعاً على السواء وقد سبقت الإشارة الى ذلك أما اذا كان المجتمع أقل رعاية لأحد الجنسين زادت وفياته على الجنس الآخر . ومن المعروف أن نسبة الوفيات بين الاناث في الهند أعلى منها بين الذكور وذلك لزواج البنات المبكر وتعرضهن للحمل المتكرر وما قد يرافق الولادة من حمى النفاس . كذلك تتدخل بعض المعاديات التي تحمل الأرمال على احراق أنفسهن بعد وفاة يعولتهن وان كانت هذه المعاديات صائرة الى النقصان والتلاشي .

العوامل الخارجية

أما العوامل الخارجية فهي متعددة ونحن نريد أن نتمقب أهمها باستثناء الأوبئة والحروب .

الحال المدنية - لقد تبين من الاحصاء أن الوفيات بين المتزوجين أقل منها بين المزاب في الأعمار أنفسها . ذلك أن السعادة والرضى في الزواج يهيئان حياة سليمة وصحية . فالزواج أكثر ملاءمة للانسان جسماً وعقلاً من العزوبة . ولما كان الانسان يقبل على الزواج طوعاً واختياراً فربما يكون الصدوف عنه دلالة على ضعف أو اضطراب أو قلة التكيف في بعض الأحيان .

ثم ان الوفيات بين الأراامل والمطلقين أكثر منها بين المتزوجين بل أكثر منها بين العزاب بوجه العموم . وارتفاع الوفيات هذا قد يُعزى الى سوء انتخاب القرين من الوجهة الصحية في البداية اذ لا بد من تأثر القرين بقرينه صحياً ، أو يُعزى الى مشاق الترميل . أما المطلقون فان قلة التلاؤم في الزواج وقلة الاستقرار بعده أمران منفصان يتهددان عيشهم ويقوضانه .

هذا وان تلك نتائج احصائية تصح في البلاد المتقدمة التي تحمل الدولة فيها القسط الأوفر من أعباء الأسر . وليس في بلادنا احصاء في هذا المجال ، وتحمل الأسر أنفسها مختلف الأعباء وشئ الهموم في اعاله أبنائها وتنشئتهم كما تتحمل مسؤولية صحتهم ونموهم .

المناخ - وقد يكون للمناخ تأثير في الوفاة ولكن يصعب عزل أثره وحده بين العوامل المحيطة الأخرى . فقد تتفاوت البلدان مناخاً وتتشابه في انخفاض معدل الوفيات كاسترالية ونيوزيلنדה وجنوبي افريقية وكندا حيث تشتد حرارة القيظ في بعضها كما تشتد صبراة البرد في بعضها الآخر . وقد أصبح الانسان يستطيع أن يتغلب على سوء المناخ اذا كان غير صحي لانتشار بعض الأوبئة فيه أو الحشرات أو الطفيليات . ولا شك أن للاقليم أثراً في تفشي بعض الأمراض كالبرداء والحمى الصفراء اذ يساعد ارتفاع الحرارة ووجود السباح على انتشار جراثيمهما . وقلما ينتشر الخناق والحمى القرمزية في المناطق الاستوائية . ثم ان أمراض جهاز التنفس لا تنتشر في طقس مشمس جاف . أما انتشار السل في بعض المناطق الجافة المشمسة فمرده الى سوء التغذية والفقر والاستعمار . هذا وان الزكام والانفلونزا مرضان عامان في مختلف البلدان وان كانا في البلاد الرطبة أكثر انتشاراً وأشد فتكاً .

الفصول - وللفصول آثار في معدل الوفيات واضحة . وقد وجد نهاية عظمى للوفيات بأوربة في غضون كانون الثاني وشباط ، وبحوض البحر المتوسط في تموز وآب . ولكن تقدم الصحة ولا سيما الصحة الغذائية واستعمال المضادات الحيوية نقصت من استفحال الأمراض التي يتسبب بها اختلاف الفصول كالاسهالات وأمراض التنفس وترتب على ذلك انخفاض في الوفيات الناجمة عنها .

الريف والحضر - لقد مكنتنا الاحصاء الحيوي من المقايسة بين معدلات الوفيات في المدينة وفي الريف . ولقد كان معدل الوفيات لأمد قريب في الريف أقل منه في المدن . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فأصبح في المدن أقل منه في الأرياف لأعمار معينة .

لقد تغيرت حال المدن في العصر الحاضر عنها في غابر الدهر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرّت المياه الى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف ، كما انتشرت النظافة وأشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من أغذية وملابس ومساكن الا أنه ما يزال في المدن أحيانا مجال للتحسين في أحوال المصانع ولهاثها الداكن المؤذي ومحروقات مطايا المواصلات النافثة كالسيارات والباصات . وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن .

ولئن استطاع الطب الحديث والتغذية الجيدة أن ينقضا ضراوة الأمراض الجرثومية في المدن فان اكتظاظ المواصلات زادت في سرعة انتشار الأوبئة بين أهل المدن ان وقعت كما جعلت طوارئ الاصطدام تستفحل استفحالا خطيرا .

ان الريف في البلاد العربية جميل ولكنه ما يزال متأخراً بالنسبة الى المدينة على الرغم من جودة مناخه وعذوبة هوائه وجمال آفاقه .

الازدحام - ان المدن الكبيرة من اخص صفاتها الازدحام بالنسبة الى الأرياف حيث تنبسط الحقول وتشترك الغابات . ولقد أخذت الهيئات المسؤولة في الدول تبذل جهودها في تنظيم المساكن الجديدة بالمدينة بحيث تتوافر فيها الشرائط الصحية وتحيط بها الحدائق كما تضع الخطط المناسبة لانشاء المدارس والحوانيت والمخازن في أفضل الأحوال المريحة . ومع ذلك فان الصحة لا تتعلق بالأجر والملاط ولا بالخدمة الصحية بل تتعلق أيضاً بمادات الناس وهي تتحكم فيها التربية والذكاء وتتعلق أيضاً بالفداء وبمستوى المعيشة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدار الدخل ولو أن هذا الارتباط أخذت تخفّف منه قوانين تأمين الطب والضمان الاجتماعي الايجابية . هذا وقد غدت الدول العربية النفطية في طليعة البلدان اهتماماً بأحوال شعبها الصحية . على أن ارتباط الأمور بالدخل يدعونا الى تأمل علاقة الوفيات بالحرقة وبالأمور الاقتصادية .

الحرفة - ان نوع العمل يؤثر في الوفيات • وقد أجريت احصاءات لبيان مدى هذا التأثير • ولا شك أن بعض الحرف مضر بالصحة كتمدين الزئبق والقصدير والعمل في أعماق المناجم . بيد أن هذا لا يزيد وحده في معدل الوفيات بين هؤلاء العمال ، لأن العوامل مشتبكة • فكثيراً ما يُختار الأقوياء لأعمال تلك الأعمال • ولذلك لا بد من تَصَفُّح تأثير الحرف من مختلف الوجوه •

تؤثر الحرف أولاً من حيث اصطفاء المحترفين لأن بعضها يقتضي قوة في الجسم ، ولا يمكن احترافها الا اذا كان الراغب ذا نصيب من القوة لخطورتها وتعرض صاحبها لاختلاف الأجواء كالطيارين وسائقي القاطرات أو لقسوتها ومشقة العمل فيها كعمال المناجم والعمالين ، على حين لا تقتضي حرف أخرى جهداً جاهداً ولا نصباً ناصباً ، ولذلك تغدو موئل الضعفاء من الناس ومحط ركايبهم كالعمل في الدواوين والادارة ، وقد وجدت نسبة الوفيات بين القائمين بهذه الأعمال عالية نسبياً •

وتؤثر الحرف ثانياً من حيث نوع العمل المطلوب فقد يكون شاقاً مرهقاً ، ومن حيث جر العمل كأعماق المناجم وأجواء بعض مصانع النسيج التي تتطلب حرارة رطبة وحلج القطن الذي يثير النفاية والغبار فيصلان الى الرئتين وصقل المعادن الذي يطير النثار الدقيق فيعلق بمجاري التنفس وتمدين الزئبق ذي الأبخرة السامة وصناعة الأصبغة التي تنشر بعض الروائح السيئة • وقد تجعل الحرفة نمط الحياة مضطرباً ، ينبغي مثلاً لِنُدَال الفنادق أن يستجيبوا لرغبات المسافرين بعضهم يوقظ بكرة وبعضهم يثوب في الهزيع الأخير من الليل ، والحراس ينامون النهار ويسهرون الليل ونوم الليل أرواح من نوم النهار أو تدفع الحرفة الى اعتياد لون من المعيشة سيء كعمال المقاهي والملاهي يعتادون المسكرات •

وتؤثر الحرف ثالثاً عن طريق مستوى العيش الذي تُخَوِّله أصحابها أي عن طريق مقدار الدخل ، ولا شك أن صاحب المصرف والتاجر والموظف والطبيب والمعالي والمامل والأجير الخ لكل منهم مستوى خاص من العيش في خارج الحرفة سواء في داخل البيت (من جهة المسكن ، والغذاء ، واللباس) أو في الحياة العامة (من جهة العادات الاجتماعية المختلفة والعناية المتفاوتة بالتداوي والقدرة على

التداوي) • على أن هذا التفاوت أصبح يتضاءل بتيسير الدولة سبل التداوي لأبنائها • وهذا ما هو حاصل في البلاد العربية النفطية • والخلاصة أن تقدم الطب والشؤون الصحية من جهة وازدياد الثروة العامة من جهة ثانية هما لا شك متضامنان متداخلان •

الأجل المتوقع

في علم السكان مصطلح مهم يتلمس الحياة والموت معاً مشتبكين وهو الأجل المتوقع • ويقال له أيضاً العمر المتوقع إذا نظرنا الى مدى الحياة المتوسط التي يعيشها أفراد جيل من الأجيال • وهو معيار جيد يُعتمد في علم السكان وفي علم الاجتماع وفي البحوث الاقتصادية وفي شركات التأمين على الحياة وفي تعريف مستوى المعيشة في المجتمع • وأهميته ترجع الى أنه يلخص حياة جيل كامل من حيث مدة هذه الحياة موزعة عليهم نظرياً وحسابياً بالتساوي • الجيل في اللغة أهل الزمان الواحد ولكنه هنا بالاصطلاح جملة الأفراد المولودين في سنة تقويمية واحدة (١ كانون الثاني/يناير - ٣١ كانون الأول/ديسمبر) أو في فترة زمنية مسمّاة واحدة • وقد يُطلق على الجيل في علم السكان لفظ الفوج بأن يقال مثلاً "فوج المواليد أو جيل المواليد وهم الذين ولدوا في سنة واحدة •

فاذا نظرنا الى جيل من المواليد في سنة من السنين وتمقينا عدد من يبقى منهم على قيد الحياة سنة بعد سنة وجمعنا الأعمار المختلفة التي عاشوها حتى بلغوا آجالهم تبعاً وقسمنا مجموع الأعمار على عدد أفراد الجيل في البداية كان خارج القسمة هو الأجل المتوقع ، كأننا تصورنا في الخيال أنهم جميعاً عاشوا وسطياً هذا العمر على التساوي • وحسابه يسير وهو نظري وواقعي معاً : نظري لأنه يعتمد على الغالب عدد أفراد الجيل عشرة آلاف أو مائة ألف ، وواقعي لأنه يُطبَّق على هؤلاء مائة ألف أو عشرة الآلاف نسب الوفيات الجارية في المجتمع نفسه في كل عمر من الأعمار المتتالية إبان فترة زمنية محددة حتى ينقرض الجيل كله احصائياً بهذا التطبيق •

وهذا الأجل المتوقع أو العمر المتوقع هو غير العمر المتوسط وغير العمر الوسيط وللتفريق بين هذه المصطلحات نضرب مثلاً بسيطاً :

خمس سيارات خرجت من مصنع واحد في سنين متفرقة وهي ١٩٦٠ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٠ ، فإذا حسبنا أعمار هذه السيارات عام ١٩٩٠ وهي مازالت صالحة للاستعمال كانت على التوالي ٣٠ ، ٢٠ ، ١٥ ، ١٠ ، ٥ فالعمر المتوسط لها عام ١٩٩٠ هو ١٦ سنة .

أما العمر الوسيط فهو ١٥ في الترتيب لأن قبله رقمين وبعده رقمين فهو يقسم المجموعة قسمين متساويين في العدد وأما الأجل المتوقع أو العمر المتوقع فلا يحسب لهذه السيارات التي صنعت في سنين متفرقة أي هي من أجيال مختلفة وإنما يحسب لجملة من السيارات صنعت في سنة من السنين ، ولتكن سنة ١٩٩٠ ، أي هي من جيل واحد . نفرض عدد السيارات خمسا أيضاً اشتغلت جميعاً ثم تمطلت نهائياً على التوالي بعد ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٤٠ سنة فالأجل المتوقع لها عند خروجها من المصنع مجموع السنوات التي اشتغلت ابانها حتى تمطلتها مقسوماً على عددها أي $\frac{125}{5} = 25$ سنة .

ويجوز أن يقال لهذا المصطلح الأجل المتوسط أيضاً لأنه المتوسط الحسابي للأجال : آجال السيارات أو آجال أفراد الجيل الانساني على الرغم من التباين الشاسع بين السلع المصنوعة . . . والانسان .

هذا وكلما جادت صناعة السيارات والعناية بها وحسن تمهئتها تطاول أمد استعمالها وابتعد أجلها المتوقع وبالتمثيل أيضاً كلما حسنت الحياة الاجتماعية والصحية والاقتصادية وغيرها في المجتمع ابتعد الأجل المتوقع أي تطاول العمر المتوقع .

وإذا تطاول هذا العمر المتوقع اتسعت للفرد وسطياً فسحة الحياة للعمل والانتاج والاتقان في مختلف المجالات . ومن المعلوم أن الاتقان والانتاج والعمل أساس التقدم الاجتماعي . ولذلك كان لهذا المصطلح دلالة عميقة وفسيحة في علم الاجتماع .

وللأجل المتوقع علاقة بنسبة وفيات الرضع فكلمنا انخفضت هذه الوفيات طال الأجل . وكان الأجل المتوقع منخفضاً في البلاد النامية قبل كشف المضادات الحيوية

(أي الصادات) ولكنه ارتفع ارتفاعاً واضحاً بعد تحسن الأحوال الصحية وتقدم الشؤون الطبية والعناية بصحة المواليد والرضع والأطفال .

ويمكن أن يحسب الأجل المتوقع للجيل في كل عمر من الأعمار التي يصل إليها ولكنه على الأغلب يحسب للمواليد جملة كما يحسب للذكور والإناث كل على حدة . ومن الملاحظ، أن الخط البياني الذي يدل على اختلاف الأجل المتوقع باختلاف العمر يبدأ منذ زمن الولادة ثم يرتفع أحياناً ليبلغ الذروة بعد مرور السنة الأولى على المولود . ذلك أن الوليد الانساني يحتاج غب السولادة الى الرأم والتمهد والمون اذ تقاوم وظائفه الحيوية تنير المحيط الخارجي الذي وفد عليه . وأكثر ما يقع من وفيات الرضع والأطفال في العام الأول وبعده من قلة العناية والغفلة .

هذا ولا يخفى أن هذه اعتبارات احصائية تفيد في تعرف أحوال المجتمعات وتبين خصائصها من الوجهة الكمية والعددية كما تفيد في الموازنة بينها .

أما العمر الحقيقي الذي وهبه الله لكل فرد من الأفراد فعلمه عنده جلّ وعلا (ولا يعيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - آية الكرسي) . وقد كلّفنا الدين العنيف العناية بأنفسنا وأهلينا ومجتمعنا .

الدليل الحيوي ومعدل انقصاب الكلي ومعدل التكاثر

ان معدل النمو الطبيعي أو الزيادة الطبيعية وهو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات يمطي فكرة بسيطة عن زيادة السكان . ولكنه غير دقيق الدلالة . فمعدل النمو هذا سواء اذا كان معدل المواليد ٤٠ ومعدل الوفيات ٣٠ أو كانا ٣٠ ، ٢٠ أو ١٠ ، اذ هو يساوي في الأحوال الثلاث ١٠ مع أن الفرق كبير بين هذه الأحوال لأن الزيادة نفسها حاصلة في الحال الأخيرة مع استهلاك أقل في الأرواح وصرف أقل في الولادات . ولهذا يفضل في بعض الأحيان حساب الدليل الحيوي على

$$\text{معدل النمو الطبيعي وهو } C = \frac{W}{O} \times 100$$

حيث C الدليل الحيوي ، W عدد المواليد، وO عدد الوفيات في نفس المدة الزمنية.

ويمكن بسهولة التعويض عن عدد المواليد و عدد الوفيات بمعدليهما .

فالدليل الحيوي يشير الى عدد المواليد الأحياء العاصلة مقابل مائة وفاة في السكان . وهو دليل بسيط ومهم اذ يشير الى القوة الحيوية للشعب . فاذا حسبناه في الأحوال السابقة الثلاث كان على التوالي ١٣٣ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، وظهر الفرق واضحاً .

ثم ان معدل النمو الطبيعي أيضاً لا يشف عن حقيقة ازدياد الشعب أو ثبوته أو نقصانه .

فقد يكون معدل المواليد أكبر من معدل الوفيات ويكون الشعب مع ذلك متناقصاً . لايضاح ذلك نتصور مجتمعاً فيه خمسة ملايين امرأة (أنسة وسيدة) بين سن الخامسة عشرة وسن الثلاثين . وفيه في السنة نفسها أربعة ملايين و ٧٠٠ ألف بنت دون الخامسة عشرة . فلو فرضنا أن هؤلاء البنات دون الخامسة عشرة بلغن جميعاً سن الزواج ولم تهلك واحدة منهن كان من المعتم نقصان عدد المواليد في المستقبل بعد مضي خمس عشرة سنة لأن عددهن أقل من خمسة ملايين . وبهذا يتناقص المجتمع على الرغم من ارباب معدل المواليد على معدل الوفيات في هذا المجتمع .

وبسبب قلة الكفاية في معدل النمو الطبيعي يعمد العلماء الى حقيقة التوالد الانثوي أي عدد ما تلده الأمهات من بنات يحلطن محلهن حين يكبرن فيغدون أمهات أيضاً . فاذا كانت الأم تلد وسطياً بنتاً تحل محلها باعتبار الظروف الجارية في المجتمع من زواج ووفيات اعتبر المجتمع ثابتاً في العدد لا يزيد ولا ينقص واذا كانت الأم تلد أكثر من بنت واحدة كان المجتمع متزايداً واذا كانت الأم تلد أقل من بنت وسطياً كان المجتمع متناقصاً وذلك بصرف النظر عن معدلي المواليد والوفيات .

ولحساب ذلك يلجأ الى تعريف معدلات الخصب المُمرية أي عدد المواليد ذكوراً واناثاً لفئات أعمار الأمهات كما في الجدول الآتي لدولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٨٦ بين المواطنين .

معدل الخصب في الألف	فئات الأعمار
١٥٨ر٨	١٩ - ١٥
٣٦١ر٢	٢٤ - ٢٠
٣٨٢ر٨	٢٩ - ٢٥
٣٠٢ر٢	٣٤ - ٣٠
١٩١ر٠	٣٩ - ٣٥
٨١ر٤	٤٥ - ٤٠
٢٩ر٤	٤٩ - ٤٥
١٥٠٦ر٨	

ويلاحظ أن معدل الخصب الممري يبلغ أوجه بين نساء دولة الامارات في الفئة العمرية (٢٥ - ٢٩) ، ولما كان مدى فئة العمر خمس سنوات لزم ضرب المجموع بالمدد (٥) فالحاصل ٧٥٣٤ ، ومعناه أن كل ألف والدة بين سن الخامسة عشرة ونهاية التاسعة والأربعين يولد لهن ٧٥٣٤ مولوداً ذكراً وأنثى . فالوالدة الواحدة يولد لها وسطياً ٧ر٥ من الذرية . وهذا الرقم الأخير يُدعى معدل الخصب الكلي . وتعبير بسيط كل عشر أمهات يولد لهن وسطياً ٧٥ مولوداً ذكراً وأنثى . ولما كانت نسبة الذكورة في مجتمع الامارات بين المواليد هو ١٠٥ صبيان الى ١٠٠ بنت نضرب معدل الخصب الكلي وهو ٧ر٥ بنسبة الاناث في مجموع المواليد

وهو $\frac{100}{205}$ فيكون الجداء ٣ر٦٦ وهو معدل التكاثر ، ويوصف فيقال له معدل

التكاثر الصافي اذا دخل في حسابه نسبة تعميم الأمهات . ومعناه هنا في الامارات المتعددة أن الأم في حياتها الزوجية ومرحلة قدرتها على الانسال يولد لها أكثر من ثلاث بنات يتبوأن مكانها في الأومة حين يكبترن ويفدون أمهات . فمجتمع الامارات بهذا الاعتبار مجتمع متزايد تزايداً واضحاً .

الهجرة

هي انتقال المرء من أرض تدعى المكان الأصلي أو مكان المغادرة الى أخرى تدعى المكان المقصود أو مكان الوصول بشرط أن يتجاوز الانتقال على الأقل حدود منطقة ادارية . ولا تنطبق الهجرة بهذا الاعتبار في الغالب على من ليس له مقام (أي محل اقامة) ثابت . فلا يدخل فيها البدو ولا أشباه البدوي أكثر الأقطار. ويفرق أحيانا بين الهجرة والنقلة الوقتية أو الرحلة الوقتية باعتماد معيارين وهما طول الغيبة عن المكان الأصلي ومدة الإقامة بالمكان المقصود .

ويدعى المهاجر من موطنه الأصلي ظاعنا ونازحا كما يدعى المهاجر الى موطنه الجديد وافداً ومغترباً . ويوصف بهذا الوصف من أجمع أمره على مغادرة وطنه إما أبداً وإما الى أمد غير محدود يتجاوز على الأقل السنة .

ويجري التفريق في الدولة ذات السيادة بين الهجرة الداخلية حين يكون المكان الأصلي والمكان المقصود واقمين في داخل الدولة ، والهجرة الخارجية أو الهجرة الدولية التي تجتاز حدود الدولة .

تؤثر حركة الهجرة في عدد السكان . مثلها في ذلك مثل حركة السكان الطبيعية أو نموهم الطبيعي . وتقاس بصافي الهجرة في المنطقة أو الدولة وهو الفرق بين الداخلين الوافدين اليها والخارجين الظاعنين عنها . فاذا زاد الداخلون على الخارجين دعيت الزيادة فيض الهجرة واذا نقصوا عنهم دعيت النقص غيظ الهجرة . ويمثل مجموع الداخلين والخارجين حجم الهجرة .

وشمة هجرة اختيارية تتم برغبة الفرد واختياره فاذا حملت الأشخاص منفردين كالعامل مثلا دعيت بالهجرة الفردية . وقد تحمل أسراً يرمتها فتلك هجرات الأسر . وبعضها هجرات تبعية أي تابعة لهجرة رب الأسرة ولا سيما هجرة زوجة وأطفاله . أما تنقل العمال الذي تبتمته ظروف العمل والذي يتعلق بالسكان العاملين فهو يؤلف هجرة العمل . وقد ينتقل أحد القرينين الى موطن القرين الآخر رغبة في الزواج فتلك هجرة زواج . واذا حصل الانتقال عن ترك العمل بسبب التقاعد دعيت هجرة تقاعد .

وثمة أيضاً الهجرة الجماعية وهي هجرة منظمة بمض التنظيم يشارك في ركوب متنها زمرة من الأفراد والأسر . وقد تكون هذه الهجرة ضخمة تحدث على الرغم من ارادة سكان الأرض المهاجر اليها فهي نوع من الغزو وقد يكون هذا الغزو طويل الأمد تقوم به عناصر قليلة المدد ليدعى تسلا .

أما سياسة الهجرة فهي جانب من جوانب السياسة السكانية . وتسن الدول عادة قوانين الهجرة الوافدة اليها فتحدّ بهاتيار هذه الهجرة وتنظمه وربما لا تسمح للأجانب بالهجرة الا لمن تصطفهم لحاجاتها ومآربها فتلك هجرة وافدة اصطفاية .

بحث الهجرة واسع يتعلق بالتاريخ اذ وجدت الهجرة منذ وجد الانسان . وحركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ . بل نحن العرب المسلمين نؤرخ بالنسبة الى هجرة مُشرقة في تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد لأن بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة ، ويتعلق بالسياسة فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية ، ويتعلق بلمني النفس والاجتماع لأن لها أسباباً ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم أخرى يطول استقصاؤها . وهناك هجرة للجماد كرؤوس الأموال وللنبات وللحيوان ولا سيما الطير . ولكن هجرة الانسان أهم انواع التحركات .

ويفرق في الهجرة بين العوامل النابذة التي تدفع الناس الى ترك أوطانهم الأصلية والعوامل الجاذبة التي تغريهم بالقدوم الى أوطان أخرى . قد يهاجر المهاجرون لأحوالهم الرديئة في بلادهم وقد تجذبهم في الوقت نفسه مغريات في البلاد الأخرى فالنبت والجذب يتحكمان في تيار الهجرة . ويهمننا في هذه الدراسة تيارات الهجرة في البلاد العربية ، نلم بها المأماً يسيراً ومفيداً .

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث فاذا نظرنا اليها على أنها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظرنا في الدول القائمة فيها اعتبرنا هجرة خارجية ودولية . أما الموقف الأول ليسوغه أن الشعب فيها يكاد يكون واحداً . وقد اختلط ببعضه ببعض في غمار التاريخ مكوناً بلفته وثقافته وحضارته وعاداته وماضيه وأمجاده وآلامه وأماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من أرسخ شموب الدنيا كياناً وأعمقها وجوداً في الأرض وفي السماء .



وأما الموقف الثاني وهو الواقعي فيسوّغه أن لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على أرضها وعضوية في منظمة الأمم ونظاماً اقتصادياً وسياسياً يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين تلك الدوليات (التصغير هنا للتحبيب) ، لأن إقامة الحواجز لا تستطيع أن تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية وأن تمس الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن أن تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين . وإذا كانت أوربة على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها وماضيها تتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالموكب الانساني الحضاري لا بد من أن تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات شتى وان بقيت السيادة الكاملة منها مصونة ومحصنة . لقد تعرضت البلاد العربية لضروب من الهجرة الخارجية منها واليها ومن المناسب أن نلم بيمض تياراتها القوية .

فلقد حملت الهجرة ألوفاً من أهالي بلاد الشام من سوريين ولبنانيين وأردنيين مع تيار الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى الأمريكتين الشمالية والجنوبية وتألقت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والأدب والعلم والسياسة والاقتصاد . وأدب المهجر الحديث يذكرنا بأدب الأندلس القديم . ولكن تلك الهجرات العربية شرعت تنصهر في المجتمعات الأجنبية شيئاً فشيئاً وتنسى ذرياتها لغتها الأصلية بالتدرّج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا إليها ما عدا فريقاً أشر الاياب الى الأوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح أمامه أبواب العمل والرزق فانكفأ الى أهله ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي أسرته فرجع حامداً نجمة .

ويبدو من ذلك أن لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة في البلاد الأجنبية . ويضاف أن المهاجرين لا ينسون أهلهم فهم يمدونهم بالمال في الحين بعد الحين . وتلوح هذه الهجرة السكانية مستتعبة لهجرة مالية أضعف منها تجري بعكس اتجاهها ، هذا زيادة على العناية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية .

بيد أن مساوىء الهجرة أكثر من مزاياها إذ انها تلحق بالبلاد نقصاً في القوى الديمغرافية والاقتصادية وغيرها . فالهاجرون كما سلف شباب أو كهول أي هم في سن العمل والانتاج . فلما هاجروا أضاعت البلاد فيهم رجالاً منتجين ، كما تضيع فيهم مجموع النفقات التي استدعتها تربيتهم وتنشئتهم وريمها . ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم المجمعة ان عادوا بها الى البلاد أو أرسلوا نصيباً ضئيلاً منها الى أهليهم ، لأنهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتركوا في بعض المشروعات أو استصلحوا الأرض فزادوا رأس المال هناك . ولو لبثوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد .

أما الهجرة الى البلاد العربية فكانت آفة عليها . يمكن أن نذكر هنا هجرة الفرنسيين الاستيطانية الى الجزائر والايطاليين الى ليبيا في أثناء الاحتلال ولكن استقلال هذين القطرين لفظ أكثر أفراد تلك الجاليات الأجنبية .

على أن أكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . انها غزو سياسي وعسكري وعرقي تحت ظاهراً قومي لأناس ينتسبون الى قوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى عليه السلام براء منه . وقد تسببت بجلاء القسم الأكبر من الفلسطينيين أهل البلاد الأصليين الى مختلف البلدان وتحت كل نجم ونشأة ذلك كوارث معروفة . ولعل في الأفاق العالمية وفي التماون العربي الحازم ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة .

والهجرة من البلاد العربية الى البلاد العربية تتبع عاملي الجذب والنبذ بينها حسب المستوى الاقتصادي وفرص العمل . ويجري التيار الغالب في البلاد العربية المحدودة الدخل الى الدول النفطية الغنية كالسمودية ودول الخليج وليبيا ويحمل خاصة المهاجرين من الدول العربية الآسيوية كما يحمل قلة من مصر وقليلاً من السودان أما ليبيا فتتلقى المهاجرين من مختلف البلاد العربية الآسيوية والافريقية على تفاوت في النسب . وأما المغرب العربي فان تيار الهجرة فيه يتجه شمالاً الى فرنسا أصلاً لروابط اللغة والثقافة والسياسة ولأن فريقاً من أهله سبقت هجرتهم اليها . وتتجه فروع من تيارات الهجرة الى المملكة المتحدة والبلاد الأوربية الأخرى والى كندا واسترالية وأمريكة .

وقد نشأت تيارات للهجرة جديدة من خارج البلاد العربية الى البلاد العربية النفطية ولا سيما من الهند والباكستان وسريلانكا والفليبين . ومغبات هذه الهجرة الأجنبية موضع للتأمل والمناقشة .

الهجرة الداخلية في البلد العربي هو تغير في محل الإقامة بين قسم اداري وآخر لفترة زمنية تستغرق سنة أو أكثر كما سلفت الاشارة .

وتصنف أربعة أصناف : ريفية ريفية ، وريفية مدنية ، ومدنية ريفية، ومدنية مدنية . وهنا على الرغم من بساطة التصنيف يلزم تعريف المركز الريفي والمركز المدني الذي يدعى أيضاً بالحضر . والتفريق بينهما يختلف باختلاف الدول وتفاوت الاعتبارات .

أهم هذه الأصناف الهجرة الى المدن أو الحضر . انها تتبع درجة التقدم والثقافة وتبدل نمط المعيشة وتوافر فرص العمل وسبل الرقي في السلم الاجتماعية . يؤلف هذا الصنف غالبية تيار الهجرة الداخلية بحيث لا ينصب البحث الا عليه . وهو الذي أدى الى اتساع العمران ونشوء المدن الكبيرة الضخمة في العصر الحاضر . ومن الطبيعي أن يكون لها مشكلات تتفاوت بتفاوت المجتمعات وتفاوت الميادين الاقتصادية والتنظيمية والصحية وأمثالها . ويرجع هذا التفاوت الى نظام المجتمع نفسه ومدى ايلاء المسؤولين فيه الانتباه اللازم لها للاستفادة من عناصرها الايجابية وتحامي عناصرها السلبية . المدن مراكز العلم . فيها من بيوته ومعاهده ما ليس في الريف . فيقبل أبناء القرى لينهلوا من معينها . ولكنهم بعد أن يتخرجوا يكونون قد استساغوا الحياة الحضرية فيستحبون الإقامة في المدن بسبب ذلك أو بحكم ممارستهم أعمالهم واختصاصهم أو بسبب وظائفهم التي قد يُسْمُون لها . وقل أن يعودوا الى قراهم حيث لا يجدون فيها مزايا المدن من جد وكسب ، وهو أحياناً ، وتقدم في المناصب ومشاركة عميقة في الحياة الثقافية والاجتماعية . ومن المعلوم أن تنوع الاختصاص وعلو المناصب مكانهما في المدن ولا سيما في المواسم .

ثم ان المجتمع الريفي ذو تقاليد وعادات وروح قَبَلية أو عشائرية أو طائفية تضغط على أفرادهِ وتضييق مجال حريتهم وتسمح بالتدخل في شؤونهم الخاصة . وهذا كله يدفع ببعضهم الى الهرب من هذا الضغط .

ولا يخفى توافر فرص العمل في المناطق الصناعية وتيسر مختلف السلع في المدن . وقد أدى تنظيم الغلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادي الزراعي من القرى الى المدن كالتهيئة النهائية لمشتقات الألبان وتحضير اللحوم وحفظها ومقرّر الخضار في الملبسات (الكنسروة) واتساع التجارة والأسواق وهكذا تتكاثر سبل الموارد الاقتصادية في المدن .

كانت القرية ذات اكتفاء اقتصادي ذاتي. ولكن هذا الاكتفاء طفق يضعف بل يتلاشى . وأخذت القرية تعتمد في حاجاتها التموينية والاستهلاكية في الغالب على المدينة . وإذا بقيت طائفة من القرى في البلاد العربية تحتفظ بسماتها التقليدية فإن تلك السمات تتجه نحو الزوال .

واعتماد القسم الأكبر من الريفيين الذين يفدون الى المدينة للعمل وللحسب اتخاذ أطراف المدينة مواقع لبناء مساكنهم وأكواخهم وكلها تبني أحياناً دون رقابة ولا تخطيط منظم فهي سيئة البناء مكتظة بأهلها سريمة النمو والامتداد تنمو كما تنمو الفطور وكأنها قرى معلقة بأطراف المدينة وكأنها جميعاً تتمسك من الوجهة الاجتماعية على تريف الحضرة بدلاً من تحضير الريف وذلك بسبب نقص الخدمات الاجتماعية الضرورية . وما زال تيار الهجرة الداخلية في أغلب البلاد يجري عشوائياً . ومن المناسب الاشراف على هذه الاندفاعات السكانية ووقايتها من الآثار السلبية والاستفادة منها في استغلال الأراضي واستثمارها وتنظيم قوة العمل وتوفير الموارد الاقتصادية واسباغ الصحة والتقدم على المجتمع .

ولقد أصبح الارتباط بين الريف والحضر في جميع البلدان شديداً كما أصبح الارتباط بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية على درجة لا يمكن اغفالها (تبعية البلاد النامية للبلدان المتقدمة في الاستهلاك والصناعة والعلم ، وتبعية البلاد المتقدمة النسبية للبلاد النامية في بيع سلعها واستيراد الطاقة والمواد الأولية) .

وهكذا يجدر العمل على تقليل التفاوت في الدخول المالية وفي مجالات التقدم الاجتماعي بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية وبالتالي تقليل الفروق في الدخول وفي مجالات التقدم الاجتماعي ما أمكن بين الريف والحضر . وأياً كان الأمر فإن الانسان أهم عنصر في جميع الاعتبارات ولا بد في كل تدبير سليم من الحفاظ على

حريته وكرامته ومن السعي نحو تقدمه وحمايته من البؤس والشقاء وآفات
الأمراض وعوادي الطبيعة .

هجرة العقول :

ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى
العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة،
كما أن نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة ثم ان عوامل التنافس بين الدول
الصناعية تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة ، ولهذا طفقت تلك الدول
تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث
ومن بينها بعض أقطار الوطن العربي .

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الأخيرة بسبب
مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذي أفادته الدول المتقدمة
في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليها قد عزز ذلك التيار ودعمه . وكل زيادة
في جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر . فقد آلت الخسارة بالبلاد التي تنطلق
منها عناصر ذلك التيار ولا سيما أن تلك العناصر في الغالب ناشئة فتية تومض
بالعودة . فكان فقدها في بلادها الأصلية « ضيفاً على ابثالة » كما يقول المثل
العربي القديم . وليس ما يمنع تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من رأس المال
البشري هذا من أن تضع لامتناعه خططاً سرية وعلنية باطنة وظاهرة .

هذا التيار جارٍ بين البلاد المتقدمة بحسب الاغراء المادي والعلمي والظروف
الملائمة . ولكن نسبة هذه الهجرة من البلاد النامية ولا سيما من الوطن العربي
أعلى وأدمى للخسران .

والذي يسترعي الانتباه ازدياد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد
العربية الى أوربة والولايات المتحدة . وهذه الزيادة ناشئة عن قوتي نبذ وجذب
كما هو شأن تيارات الهجرة عامة. قوة النبذ في البلد الأصلي ضالة الرواتب والأجور
واضطراب الأحوال الاجتماعية وقلّة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشئ
فيها أن يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضالة فرص العمل العلمي وانخفاض
المردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية

في بعثه ونتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف في البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية وأعداد هائلة من الأجهزة والمرجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتنامٍ الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون أسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي . وقد يتفوق أبناء البلاد العربية في مواطن هجرتهم على أبنائها في مختلف المجالات الفكرية والعلمية والاقتصادية .

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الأصلية تستنزف خيراتها وتطيح بمواردها وتموق تقدمها . ان العالم الذي أعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه أن يعوضها بعد تكونه العلمي بنتاجه وبإسهامه في تقدمها ، وذلك انما يتم في سني حياته المنتجة ، فكان هجرته الى البلاد الغنية هدية من فقير مدمم جمع بُلغٍ معيشته وقدمها للموسر الثري ليزيد ثراءه ويساره ، ولا سيما أن تلك السنين المنتجة سوف تمضي في البلد المقصود .

ان أكثر من نصف المختصين في سورية ولبنان والأردن مثلاً وكذلك الأمر في مصر والمغرب يفادرون بلادهم الى بلد آخر أكثر تقدماً . واذا علمنا أن البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة في تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبينت لنا المواقب الفاشمة لهذه الهجرة والمواقف العامة لأولئك المهاجرين . ولا بسد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها وإسباغ التكريم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر . وقد كان للعلم في ماضي البلاد العربية أعلى مكانة وأجل شأن وأسمى غاية . ومثل هذا الغبن واقع في بقية البلاد العربية . وهو من العقبات الماتية التي تترض في سبيل تقدمها السريع . ولا شك أن الخسارة من هذا النوع تستدعي خسارات تالية متفاقمة . ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يُخَرِّج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدان أفراد متمدين ومبالغ طائلة وامكانات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغي اعطاء العالم مكانة طليمية في تنمية المجتمع ، وتقديم أفضل الأحوال المناسبة له ، وعونه على القيام بأعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفي المجال العالمي إن أمكن .

قضايا ومشكلات سكانية

يهمنا هنا في الدراسات السكانية للدول العربية أن نلقي بعض الأضواء على طائفة من تلك العناصر التي سلف شرحها فنتناول السياسة السكانية التي تتعلق بتنظيم الأسرة وتوزيع السكان وبصحتهم والأحوال التعليمية لديهم وبجانب من الأمور الاقتصادية .

تبحث السياسة السكانية المبادئ الظاهرة والباطنة التي تعتمدها السلطات العامة في ميادين القضايا الديمغرافية وجملة التدابير التي تتخذها تلك السلطات في سبيل تحقيق تلك المبادئ .

١ - يدخل تنظيم الأسرة في هذه السياسة ، إذ تنظر الدولة في أمر ازدياد السكان وثبوت عددهم ونقصانه ، فإذا كان اتجاه هذه السياسة نحو نمو السكان قيل لها نصيرة زيادة السكان ، وإذا كان اتجاهها نحو ضبط النسل وعدم زيادتهم قيل لها سياسة ضابطة الزيادة أو سياسية ملتسبة نسبة إلى القس الانكليزي ملتس (١) .

ومن التدابير التي تحفز على زيادة المواليد أو تخفيف تناقصهم كما هو حاصل في فرنسا مثلاً الاعانات وهي اعطاء الأسرة مبلغاً من المال يتجدد دورياً ، وكذلك المنح وهي أيضاً مبلغ من المال يعطاه المروسان مرة واحدة أو أكثر من مرة عند الزواج . ومن المنح منحة الأمومة حين تحمل الزوجة ومنحة الطفل حين يولد . ومن الاعانات تخفيف الضرائب عن رب الأسرة .

ومن التدابير التي رسمت لخفض عدد المواليد في البلاد النامية برامج السكان التي تشتمل على تعليم تنظيم الأسرة وعلى خدمة تنظيم الأسرة ، وهما يتمان اما مستقلين واما بالاشتراك مع برامج الصحة ومع برامج الرعاية الاجتماعية ولا سيما رعاية الأمومة وصحة الأطفال .

وفي تنظيم الأسرة يتبرز ما يدهى الوالدية المسؤولة أو الوالدية المنظمة ، وهي أن يكون للأبوين موقف واع تجاه نسلهما . وقد يختلف عدد الأولاد الذي يتوقن إلى مجيئه وينشد انه عن عدد الأولاد الأمثل الذي يرتبانه لمجتمعهما . فقد يرغب الزوجان في عدد من الأبناء لأنفسهما وحسب أحوالهما ، وهذا العدد

المنشود أو المرغوب فيه شخصياً غير ذلك العدد الأمثل للمجتمع عندهما . وقد يتطابق العددان . ذلك أن الرغبة في الذرية لا تتحقق دائماً بإرادة الزوجين . فقد يكون بين الأزواج من لا ولد لهما أو من لهما ولد أو ولدان دون العدد المنشود على حين تكثر ذرية بعض الآباء والأمهات حتى يضيقوا بها ذرعاً . فلامثال هؤلاء أُعيدت جمعيات تنظيم الأسرة رفقا بهم .

وكلمة تنظيم الأسرة كلمة لائقة تشير الى اتخاذ الوسائل الواقية من الحمل من أجل اقامة فترات زمنية مناسبة بين مجيء الأولاد . وهي كلمة حلت محل لفظ ضبط النسل الذي يقابل في اللغة الانكليزية لفظ Birth Control

هذا ولا توجد في الوقت الحاضر سياسة سكانية واحدة واعية تم البلاد العربية في قضية نمو السكان وازدياد عددهم أو الحد من هذا الازدياد . وإنما هنالك اتجاهات متباينة في هذا الصدد أكثرها مبني على النظر المباشر الى الواقع دون النظر الى المدى البعيد . ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات في خمس زمر .

الزمرة الأولى ذات سياسة مُثلثة تسمى نحو خفض خصب الزوجات والحد من النمو السكاني وتعتمد تنظيم الأسرة وتدعوله . وتضم هذه الزمرة مصر وتونس .

الزمرة الثانية لا تملن سياستها ولكنها ترحب ببرامج تنظيم الأسرة وتهتم برعاية الأمومة والطفولة وتشمل لبنان والمغرب والجزائر .

الزمرة الثالثة لا ترى ضرورة لتنظيم الأسرة ولكنها تسمح به . ومن هذه الزمرة سورية والأردن .

الزمرة الرابعة تشجع النمو السكاني وهي زمرة البلدان النفطية الغنية وهي السعودية والكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة وعمان وليبيا والمراق ، وزيادة على رغبتها في النمو تتقبل هجرة الأيدي العاملة اليها وهجرة الكفايات العلمية والتقنية ولكنها تشرف على الهجرة وتنظمها تنظيمياً يوائم حاجاتها ومطالبها . ومن المناسب الاشارة الى الاتفاقية المقودة بين العراق ومصر سابقاً لتزويد العراق بالفلاحين المصريين .

الزمرة الخامسة بلدان فقيرة تضم موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان واليمن العربية واليمن الديمقراطية . وليس لديها سياسة سكانية . وهي بحاجة

الى النمو الديمغرافي . وقد يوجد بعض خدمات لتنظيم الأسرة لدى عيادات وزارات الصحة في أغلب هذه البلدان . هذا وان اليمن العربية سائرة في اتجاهها الديمغرافي نحو الزمرة الرابعة بسبب آبار النفط والغاز الغزيرين التي كشفت منذ سنين قليلة . كذلك السودان اذا انتظمت أمورها وتحققت وحدتها وسلكت سبيل التنمية الزراعية الناجمة تستطيع أن تستوعب عددا أكبر من سكانها العالين .

ان صندوق الأنشطة السكانية ومنظمة الصحة العالمية والاتحاد العالمي لتنظيم الموالية وأمثال هذه الهيئات الدولية تدعو كلها الى تنظيم الأسرة . وحبذا لو عمدت هذه الهيئات في دعايتها الشديدة لهذا التنظيم الى العمل على تقليل الوفيات في البلاد العربية ولا سيما وفيات الرضع ووفيات الأطفال الصغار وعلى الارشاد الصحي وعلى مكافحة الأمية ومكافحة الفقر وكذلك على رعاية المعوقين صفاراً وكباراً . فان هذه الأعمال الانسانية عندئذ أحق بالشناء وأدعى الى الارتياح وأجدر بالتنويه وأدل على الاخلاص في القول والعمل .

ولا شك أن هذه الأمور الانسانية اذا توطدت واستطاع الانسان العربي أن يعيش في ظل السلام العادل وأن يرتفع بمستوى معيشته فيصل الى حياة كريمة لائقة وشاركته المرأة في مجال الحياة الاجتماعية وفي ميدان النشاط الفكري والعلمي فان معدل المواليد سوف ينخفض انخفاضاً طبيعياً من دون حاجة الى ابتسار الشؤون واعتساف العادات والحد المباشر للذرية فان الأولاد في الوقت الحاضر يكادون يمثلون الأمال الباقية للأباء والأمهات في الوطن العربي .

٢ - مشكلات الهجرة : أهم هذه المشكلات هي تيار الهجرة الداخلية الى المدن ولا سيما المواسم . وهي مشكلة عامة سبق شرحها وهي تحشد القادمين في ضواحي المدن فيتراكمون تراكمًا سريعاً يتجاوز توقعات الهيئات البلدية المسؤولة ويقومون في منازل مكتظة تشبه الأكواخ في بنائها العشوائي ، لا تخضع للتصميم الصحي ولا تتبع التخطيط المدني العام ، وربما لا تتوافر لدى السلطات المسؤولة الميزانيات المالية اللازمة لتسكين أولئك المهاجرين وتعهدهم بجميع الخدمات التموينية والثقافية والصحية الا بمشقة بالغة . ولا شك أن هذه الأمور هدية بالنظر والاعتبار وقمينة بحساب التوقعات المقبلة ورصد الأموال اللازمة ، زيادةً

على الاهتمام بالهجرات القسرية التي تحدثها بعض الحروب أو الغزوات الأجنبية أو اجتياح أراضي السكان الأصليين . هذا مع العلم أن قسماً كبيراً من الميزانيات العامة تذهب لدى بعض البلاد العربية في حاجات الدفاع عن النفس وعن الوطن بسبب الأخطار المتلاحمة .

ولا ننس الإشارة في ضمن مشكلات الهجرة إلى ما يدعى بهجرة العقول التي سبق التنديد بها .

٣ - مقاييس الصحة : سلف أن أردنا في جدول الاحصاءات الحيوية معدلات الوفيات السنوية ونسب وفيات الرضع والأجال المتوقعة في البلاد العربية . هذه النسب والمعدلات متجهة نحو النقصان كما أن الأجال المتوقعة صائرة إلى الارتفاع وبالتالي إلى تطاول الأعمار المتاحة للأفراد ، وذلك بسبب التقدم الصحي في هذه البلاد ولا سيما النفطية ، ومع ذلك فالحاجة ماسة إلى زيادة التقدم واللعاق بالبلاد التي هي أكثر تقدماً ، ونحن نمطي هنا مثلاً في هذا المجال لدى بعض البلدان المتقدمة صناعياً :

معدل المواليد	معدل الوفيات ١٩٨٥-١٩٨٠	معدل النمو الطبيعي	الأجل المتوقع ١٩٨٦	
١٩١	١٠٧	٨ر٤	٦٥١	الاتحاد السوفيتي
١٢٢	٨٢	٤	٧٣١	الأراضي المنخفضة (هولندا)
١٤٥	١١٢	٣ر٣	٧١٨	فرنسة
١٣	١١٧	١ر٣	٧٢٤ (١٩٨٧)	المملكة المتحدة
١٥٧	٨٦	٧ر١	٧١٤	الولايات المتحدة

وذلك لمقارنتها بأمثالها في الوطن العربي (جدول الاحصاءات الحيوية).

ان جبلة الانسان العربي قوية ونقية وسليمة ولم تتأثر في الماضي بالمسكرات والمخدرات ، وان وراء هذا الانسان دينه الحنيف يتّمهده بالطهارة والنظافة جسداً وروحاً وسلوكاً ولباساً . وأكثر الثغرات في صحته وفي حياته الخلقية والاجتماعية نشأت في الظروف التاريخية السالفة ومن آثار الاستعمار في بعض أجزائه . ومع ذلك فثمة مشكلات صحية في الوطن العربي تشير إلى بعضها :

أ - نقص الغذاء العام لقلّة توافره • وتفيد المعلومات أن غالبية البلاد تحظى بنصيب يزيد على ألفي حريرة أو سَعْر في اليوم للفرد الواحد ولكن يقل هذا المتوسط في موريتانيا والصومال وجيبوتي والسودان • ولا شك أن هذه المشكلة ناشبة في الطبقات الفقيرة • والنقص يقع في مادة البروتين وفي الفيتامينات • ولا ننسى أن الأحوال الغذائية في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين ولا سيما أطفالهم معزّنة ومغزّية • فأكثر هؤلاء الأطفال مصابون بالسفّل (نقص التغذية وسونها) • وينشأ الكساح بينهم من نقص فيتامين د •

ب - ومن الملاحظ أن البيئة في البلاد العربية مع جودتها الطبيعية قد تغدو سيئة في بعض الأرياف وفي أحياء المدن الفقيرة المزدهمة بالسكان ولا سيما حول أخصاص المهاجرين الريفيين والعمال ، وذلك لقلّة توافر المياه الصالحة للشرب ولسوء تصريف الفضلات والأوساخ ، ولقلّة الرقابة الصحية على المواد الغذائية ، ولانتشار القوارض والحشرات الناقلة للأمراض •

ج - وثمة أمراض مستوطنة في بعض البلدان العربية كالتييفية (التيفويد) والزحار (الدوسنتاريا) والأمراض المعوية وفقر الدم وأمراض الأطفال كالعصبة والخناق (الدفتريا) والسعال الديكي والاسهال والرمد والحشّر (تراخوما) وبعض الأمراض الطفيلية كداء البلهرسيات في مصر • وهذا المرض قد بدأ ينتشر في مناطق جديدة بالأردن والعراق والسعودية وسورية وكداء الصفر (أسكارياس) وداء الملقّوات (انكلستوميلاس) وأمثالها •

د - هذا وكان هذه الأمراض لا تكفي حتى تسربت الى بعض البلاد العربية من الغرب آفات حديثة كمرض الايدز أو فقد المناعة المكتسب ، وقد ظهر هذا الوباء بأمريكة وأوروبا وانتشر في افريقية ويقدر أن أكثر من خمسة ملايين يحملون حمى (فيروس) هذا الداء في العالم • وهو ينتقل بالوصال الجنسي وينقل دم ملوث أو استعمال ابرة ملوثة وكذلك من الأم المصابة الى جنينها ولم يثبت انتقاله بالمصافحة والغذاء والهواء •

هـ - ان وفيات الرضع في البلاد العربية ما زالت مرتفعة بل أيضاً وفيات الأطفال الصغار في السنة الثانية والثالثة وأحياناً الرابعة ولا ريب في ان ذلك راجع الى قلة العناية بهؤلاء الأطفال ولا سيما البنات والى سوء التغذية والى تفاوت

درجات الحرارة بين الليل والنهار لأن أكثر أمراض الرضع والأطفال هضمية وتنفسية .

٤ - الحالة التعليمية - يصنف الناس حسب هذه الحالة . فمن كان يعرف القراءة والكتابة فهو متعلم أو غير أُمي . ومن لم يعرفهما فهو أُمي .
وتعتمد احصاءات التحصيل العلمي على مدة الدراسة أو سنوات التحصيل الكاملة أو على الشهادات المحصّلة . وهذا كله متعلق بنظام التعليم .
و درجات نظام التعليم هذا ثلاث : ابتدائي وثانوي وعال .
وثمة معاهد تقنية متفاوتة الأنواع والدرجات .

على أن ثمة تعبيراً في البلاد المتقدمة وهو الأمية الوظيفية . ويطلق على الذين قضوا بعض السنوات في مدارس ابتدائية دون أن يكتسبوا القدرة على القراءة والكتابة في مجال أعمالهم الوظيفية . فهم كالأُميين في هذا الاعتبار .

ولا بد من اعتبار السن في الأمية . وأكثر ما تتخذ سن الخامسة عشرة لما فوق لبيان مدى تفشي الأمية .

هذا وضروف البلاد المريية التاريخية بعد طول حضارتها المتألّفة جعلت الأمية تشري وتستفعل في ربوعها . والعمل متواصل في مكافحة هذه الآفة المصوّقة .

وثمة جمعيات أهلية وهيئات رسمية تعمل في هذا الميدان . ويلزم أن يُنتبه خاصة الى الأطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي دون أن يكونوا مسجلين في المدارس .

٥ - القوة البشرية وقوة العمل ومعدل الاعالة . يختلف مدى العمر الذي يعمل فيه المرء من مجتمع الى آخر ، متى يبدأ المرء بالعمل ومتى يتقاعد أو يحال الى المعاش ؟ تتأخر هذه السن عادة في بدايتها وتكبر نسبياً في نهايتها وذلك في البلاد المتقدمة عنها في البلاد النامية . تعتبر سن العمل في أوربة والولايات المتحدة ممتدة من الخامسة عشرة الى الرابعة والستين للذكور والى التاسعة والخمسين للإناث . وقد تتأخر عن ذلك . وتبكر هذه السن في البلاد النامية ، ومنها العربية . يعتبر بعض هذه البلاد بدايتها في الثانية عشرة بل تبدأ في بعضها بالعاشرة . وتختلف نهايتها لدى الموظفين الذين يتقاعدون في سن



التاسعة والخمسين ولدى العاملين في مختلف الميادين الأخرى حيث تنتهي بالمعز عن العمل .

وفي علم الاقتصاد مصطلحات تتعلق بالسكان نجلها هنا للفائدة . فالقوة البشرية عادة تشمل فئات الأعمار من سن الخامسة عشر الى سن الرابعة والستين . أما من هم خارج القوة البشرية فهم الذين أعمارهم أقل من خمس عشرة سنة والمرضى المزمنون والمعزة والذين هم في سن الخامسة والستين فما فوقها . وهناك قوة العمل وهي جزء من القوة البشرية وتشمل المشتغلين أولى النشاط الاقتصادي والمتعطلين . أما من هم خارج قوة العمل فهم الطلاب والمتفرغات للأعمال المنزلية من ربوات البيوت .

هذا ويحسب معدل الاعالة على الشكل الآتي :

$$\text{معدل الاعالة} = \frac{\text{من هم دون الخامسة عشرة} + \text{الذين هم في الخامسة والستين فما فوقها}}{\text{عدد السكان بين الخامسة عشرة والى الرابعة والستين}} \times 100$$

هذا المعدل متعلق بتركيب السكان العمري ولا يكشف عن مدى النشاط الاقتصادي . ولهذا يحسب معدل هذا النشاط الأولي ، وهو يمثل عدد الأشخاص ذوي النشاط الاقتصادي منسوبا الى عدد السكان كلهم . ومن الطبيعي أن يتأثر بتركيب السكان العمري أيضاً . ويحسب كذلك معدل النشاط الاقتصادي العام . وهو عدد الأشخاص ذوي النشاط منسوبا الى عدد السكان في سن العمل ، كما يحسب على الوجهين السابقين معدل النشاط للذكور ومعدل النشاطات للاناث . والتفريق ضروري لأن الأول أعلى وأثبت من الثاني اذ يكون دخول الاناث في النشاط الاقتصادي ضئيلا وهامشيا ومتقطعا ولا سيما في البلاد العربية وخاصة مدنها . ولذلك كانت مقايسة النشاط للذكور بين المجتمعات أصح وأرشد . ومع ذلك فلا يجوز الاقتصار عليه لأن نشاط الاناث في بعض المجتمعات قوي . ويحسب أيضاً معدل النشاط العمري لأحد الجنسين فينسب عدد العاملين في فئة الأعمار الى عدد أفراد الفئة . وجميع هذه المعدلات تؤخذ عادة في المائة .

والسبب في اهتمام النشاط الاقتصادي ومعدلاته هو أن العمل جوهر الحياة الانسانية وينبوع الثروة والتقدم وأساس الحضارة . ومن المهم في هذا الميدان

السمي للقضاء على البطالة في المجتمع أي التمثل عن العمل . وقد نجد في المجتمعات العربية نسبة ليست بالقليلة من المتعطلين في مختلف المجالات وذلك بسبب ضيق الموارد المالية وقلة الوظائف التي ينبغي أن تتسع لتستوعب جميع من هم في سن العمل .

هذا ويصنف السكان العاملون حسب قطاع النشاط الاقتصادي في ثلاثة قطاعات :

القطاع الأول : يشمل الزراعة والطرود وصيد الأسماك والمناجم .
القطاع الثاني : يضم الصناعات التي تحول المواد الأولى سلماً مفيدة أي الصناعات التحويلية .
القطاع الثالث : هو انتاج الخدمات .
وفي البلاد النامية قد يفرد صنف خاص هو القطاع التقليدي يحتوي العرف التقليدية المتوارثة .

هذا وقد أعدت منظمة الأمم المتحدة تصنيفاً دورياً بجميع أنواع النشاط الاقتصادي يحسن الرجوع اليه عند الموازنة بين المجتمعات . كما تصدر الجامعة العربية مع اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا منشورات تعرض فيما تعرض ممدلات النشاط الاقتصادي في البلاد العربية .

هذا ما سنح لنا عرضه في بحث الميراث الديمغرافي العربي . ولم يكن لنا بداً فيه من الاستطراد الى شرح بعض التصورات في علم السكان وجلاء بعض مصطلحاته الحديثة ومن الاشارة في الحين بمد الحين الى القضايا والمشكلات والعقبات السكانية الطارئة بالقياس الى التقدم الاجتماعي . لقد تناول البحث ولكننا نرجو في هذه الافاضة توكيد بعض القضايا وانارتها اناة علمية وانسانية .

□ الحواشي :

- 1 - ضبط الاحوال المدنية يقابل في الفرنسية Statistique de l'état civil والاحصاء العيوي يقابل في الانكليزية Vital Statistics . واللغتان رائجان في البلاد العربية بحسب التاثير السابق لكل من اللغتين الفرنسية والانكليزية وهما بمعنى واحد .
- 2 - مساحة الاتحاد السوفياتي تعادل سدس مساحة المعمورة فهو اوسع من البلاد العربية ولكنه مؤلف من قويميات عدة .
- 3 - اورية دون اراضي الاتحاد السوفياتي .
- 4 - الاصل في اللفظة ان المدني نسبة الى يثرب مدينة الرسول(ص) والمدني نسبة الى المدينة . ولكن العرب منذ القديم استعملوا للفظ المدني بمعنى المدني فقالوا مثلاً الانسان مدني بالطبع أي اجتماعي عائش في تجمع كالمدينة . ويستعمل في هذا المعنى ايضاً لفظ الحضري .

٥ - أكلا العمر : الضياء .

٦ - نستعمل هنا لفظ المواليد بدلا من الولادة لان الولادة هنا تكون توامية .

٧ - السنة التقويمية المتداولة في علم السكان هي من اول كانون الثاني (يناير) الي ٣١ كانون الاول (ديسمبر) .

٨ - المؤلف محمد بن حسين بن علي الطواري الحنفي . المطبعة العلمية تصوير ص ٥٧٤ .

٩ - شاع لفظ الخصوبة في الاحصاء . ولكن هذا المصدر ليس واردا في المعجمات العربية . والمراد بالخصوبة والغصب الانقراض .

١٠ - نبعت العلاقة الرياضية البسيطة بين المعدل والنسبة هذين المذكورين من اجل جيل مسمى فلا تدخل فيه المواليد .

د = $\frac{ع}{و}$ باعتباره « د » المعدل السنوي بالالف و « و » عدد الوفيات في السنة ، و « ع » عدد السكان في

منتصف السنة .

ن = $\frac{ع}{و}$ باعتبار « ن » هذه النسبة السنوية بالالف و « و » عدد الوفيات في السنة و « ع » عدد السكان

في اول السنة .

نظرا للمواليد لاننا نعتبر جيلا مسمى ونفرض ان الوفيات موزعة بين الجيل بانتظام في غضون السنة ، فيجوز ان نعتبر

$$\frac{ع}{و} = \frac{ع}{\frac{و}{2} + \frac{و}{2}}$$

وعددا يتقيا بسهولة حساب ن باهارة د وحساب د باهارة ن :

$$ن = \frac{ع}{د + 2} ، د = \frac{ع}{ن - 2}$$

١١ - يرى ان الناس يزايدون كالتوالي الهندسية والمتوالة اللغذالية تزيد كالتوالي العسائية . والفرق كبير بين الزيادة بين

ينصح للمرأة تاجيل زواجه حتى يضمن اعادة ذريته . اما اتباعه فيجيزون ضبط النسل بعد الزواج .

المصادر :

نذكر المصادر الآتية زيادة على ما سبقت الاشارة اليه في حواشي المقال :

- في علم السكان :

د. عبد الكريم اليالي - مطبعة جامعة دمشق - ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

- المجتمع العربي ومقاييس السكان :

د. عبد الكريم اليالي - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٦٣ .

- فصول في المجتمع والنفس :

د. عبد الكريم اليالي - دمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

- الفصل الثاني من كتاب « المجتمع العربي » :

د. عبد الكريم اليالي - جامعة الامارات العربية - ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

- المعجم الديمغرافي متعدد اللغات « السفر العربي » :

الطبعة الثانية د. عبد الكريم اليالي - اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي اسيا - بغداد .

عصر الترجمة والعصر الذهبي للطب العربي

د. عبدالرزاق الشقيقي

- ١ -

امتتنا العربية اعطت العالم في العصور السالفة كثيراً من المعرفة فقد ظلت ردحا طويلاً من الزمن تحمل راية العلم ، ومشعل العرفان ، لتنير السدوب ، وتبده الظلمات .. كانت بحق خير أمة اخرجت للناس .. تمكنت من استيعاب المعارف الانسانية التي وصلت اليها الامم من قبل .. ثم انطلقت في رحاب النور تغط للدنيا حروفا مشرقة مضيئة .. تهدي بها السادرين في ببح الضلال .. وترشد التائهين الي ضفاف الأمان والسلام ..

كانت أمتنا خالدة في كل ما قدمته للعالم .. لأنها تحمل ذهننا نقياً صافياً ، ونظراً صادقاً .. وحساً تجريبياً ، وميلاً فطرياً الي المؤالفة بين الفكر وبين التجريد والتطبيق .. ولقد تمرضت لفزوات ولصنوف من القهر وأشكال من البغي والاستبداد .. وابتليت بالاحتلال ولكن هل ركمت وضاعت كما ضاعت أمم من قبلها .. كانت لها حضارة فهل بادت ..؟ كان لها مجد فهل صار مع الدارسين ؟ لقد أوقفناها المعن عن المسيرة الجادة في مضمار المعرفة والعلم ، ولكنها حين أفاقنا في هذا العصر من غفوتها أقلقنا أن وجدت نفسها وراء الركب الذي كانت تتقدمه ، وكان لا بد من النهوض ، ولكل جواد كبرة .. ولكل سيف نبوة .. ان نظرة قصيرة الي ماضيها الناصع التليد ، الحافل بنور العرفان تبده فينا غياهب اليأس والغموط ، وتزيد الارادة صلابة وعزماً .. ولعمري هل ينطلق السهم من القوس ان لم ترجع الوتر ونشد به الي الوراء ..

.. اسمحوا لي ان أفتح أمامكم صفحة من ماضيها ، سطرها التاريخ بأحرف بارزة وضاعة .. نقرأ فيها بعض ما أسهم به الأولون والنوابغ ، فكانوا أوائل من ألهموا العالم ..

ورسموا معالم الحضارة الانسانية .. اسمعوا لي ان اطلمكم على صفحة مشرفة من عصرنا
الذهبي نطلب العربي ...

إن أول طبيب عربي كان أحد اقرباء رسول الله (ص) .. وهو العارث بن كلدة ..
درس الطب في جنديسابور، وكانت له مناظرة مع الملك الساساني (أنو شروان) في موضوع
المصحة . ثم عاد الى مكة والطائف حيث وجه اليه الرسول الكريم بعض المرضى للعلاجهم ..
وتقول لنا المصادر التاريخية أن ابنه النضر بن العارث كان طبيباً أيضاً . وعلى الرغم
من هذا الاتصال المبكر بين المسلمين الأولين ومدارس الطب الأجنبية ، فإن المسلمين لم
يواصلوا التعلم في هذا الميدان ، ولم يقبلوا على الطب التقليدي الا بعد أن توطدت اللغة
العربية في البلاد ، كلفة للطب ، وتغلغلت المعرفة الطبية في حياة العرب اليومية ..
وحيثما فتح المسلمون (جنديسابور) و(الاسكندرية) . كان فيهما مدرستان تعملان
كمركزين للتعليم الطبي ، وكانت الأولى بصورة خاصة في أوج نشاطها . ولكن لم تتم
ترجمة آية رسالة طبية الى اللغة العربية قبل العصر الأموي .

لقد امتد ملك الأمويين ما بين سمرقند شرقاً وأقاصي الأندلس غرباً ، وكانت دمشق
منارة تشع بنورها على أرجاء واسعة من العالم . فقد احتلت اللغة العربية مركزاً
لا مثيل له في التاريخ ، ان أول من أمر بنقل العلوم الى اللغة العربية هو مروان بن الحكم .
وقد تم بعده ترجمة كناش أهرن القس من السريانية الى العربية ، من قبل طبيب من
البصرة يدعى ماسرجويه . وبقي هذا الكتاب المترجم محفوظاً في بيت مال المسلمين الى أن
جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي أمر بنسخه ونشره .

لقد اتصل العرب بسكان سوريا وبلاد الرافدين قبل الفتح الاسلامي ، فاطلموا على
حضارات تلك الشعوب القديمة ، ووجدوا فيها ما يرضي رغبتهم الشديدة في المعرفة
والعلم ، لذلك أكرموا علماء وأطباء السريان بعد الفتح ، وتركوا مدارسهم قائمة في أنطاكية
وحوران ، اكراماً للمعلم والدين ، وحفظاً للمهام الكتب العلمية . وقد أحب أولئك
النصارى المسلمين الفاتحين ، لما تحلوا به من التسامح الديني ، والمبالغة في اكرام العلماء ،
وبادولهم الاخلاص والولاء .

لقد استعمرت لغتنا العربية كثيراً من الألفاظ والمعاني والعبارات السريانية ، بعد
أن صقلت بما يلائم قواعدها . أوليست لفظة الفاروق ، أي المنقذ ، سريانية الأصل ؟ وقد
أطلقها على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي أنقذهم من اضطهاد الروم .
لقد درج المؤرخون على تسمية المرحلة التي سبقت ازدهار العلوم عند العرب ، بمرحلة
النقل والترجمة . ولا بد من الإشارة الى اسهام السريان في تلك الحركة :

أما السريان فهم بقايا سكان سوريا وبلاد الرافدين القديما . وكان من أعظم كتّابهم
ومترجميهم قبل الاسلام « سرجيوس الراسميني » ، المتوفى عام ٥٢٦ م . وقد نقل بعض مؤلفات
جالينوس الطبية ، بعد أن أمضى زمناً في مدينة الاسكندرية ، أتقن خلالها اللغة اليونانية
ودرس الكيمياء والطب في مدرستها . أما نشأته فكانت في مدينة رأس العين ، شمال سوريا .
ولا تزال بعض ترجماته محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني .

كان الرسول العربي الأمي (ﷺ) أول من وجَّهه إلى تعلم اللغة السريانية ، واقتباس المعلوم منها . وقد جاء في الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى ما يلي : « روى محمد بن عمر المدائني ، في كتاب القلم والدواة ، قول الرسول لزيد بن ثابت : « اتَّحَسَّنِ السَّرْيَانِيَّةَ ؟ » قال : لا .. قال : تعلمها .. فتعلمها زيد ... » .

لقد فتح العرب « الرها » في القرن السابع الهجري ، وهي مدينة سريانية عظيمة كانت مهداً للثقافة الأدبية والدينية ، وفيها مدرسة تخرِّج منها عدد كبير من المدارسين ، حتى أنهم سموها « أثينا » سورية . وفي مدينة حرَّان ، التي قيل إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان ، كان فيها أيضاً مدرسة للمعلوم الرياضية والفلك تخرِّج منها علماء من أشهرهم ثابت بن قرة وأولاده ، وأبو عبد الله البتَّاني وغيره . وقد ربَّض الباحثين عدد المدارس التي كانت فيما بين النهريين بنحو خمسين مدرسة .

لقد استفاد الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، من هذه المدارس ، فترجمت الكتب من السريانية إلى العربية ، ولم يترك كتاب في العلم أو الحكمة إلا عرَّبه . وقد أدى هذا التماس بين العرب المسلمين والنصارى السريان إلى تبادل الودِّ والاحترام بينهم ، حتى أن بعض رجال الدين من السريان ألقى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الرافقي ، حيث كانت العلوم وقفا لهم ، يورثه الآباء لمن يجدونه أهلاً من أبنائهم .

لقد بعث الإسلام قوة جديدة ونشاطاً باهراً في امكانات العرب الكامنة ، مما أدى إلى تقدمهم في حقل العلوم ، حتى أنهم كانوا يقولون (لقد كان « اليوناني » أبا للمعلم فجاء العربي المسلم فعلمه محلّه في ابوة العلم) . ويقول المستشرق ولتر « إن حقائق العلم والنور جاءتنا ، نحن الأوربيين ، عن طريق العرب ، ولم تصلنا عن طريق اللاتين ... » لقد كان باستطاعة القادمين من الصحراء ، بمقولهم الزكية ، المولعة بالاطلاع والجرأة النادرة ، أن يفتحوا المعالم أجمع لو بقوا سائرين سيرتهم الأولى ... » .

وإذا سألنا أنفسنا تُرى ما هي الأسباب التي جعلتنا ، نحن العرب ، متمسكين إلى الاطلاع على علوم من سبقنا من الأمم ، حفاظاً لها ، ومبتكرين فيها ، وناشرين لها ؟ نقول :

أولاً - القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهما قد حببا المسلمين بالعلم ورفعنا مكانته ، فأصبح في نظرهما أمراً أثمن شيء بعد الإيمان . واعتبر الإسلام العلماء ورثة الأنبياء ، ورتبة العلم أعلى الرتب .

ثانياً - طبيعة العربي ، فقد خلق بحاثاً مجباً للاطلاع ، فما أن جاء الإسلام ، ودان به أكثر العرب ، حتى رغبوا في اقتباس العلم .

ثالثاً - تشجيع الخلفاء والأمراء من المسلمين للناس على طلب العلم ، فقد روي عن علي (كرم الله وجهه) ، أنه قال « العلم خير من المال .. المعلم يحرسك وأنت تحرس المال . المعلم حاكم والمسال محكوم عليه ، مات حازن الأموال وبقي خازن العلم » .

ومما قاله خلفاء العرب عن العلماء « انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبة من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصاييح الدجى وسادة البشر ... » .
 وايضا - استعراب الأمم التي فتح الله قلبها للاسلام ، فأمنت به ، وأعجبت بأعجاز القرآن وبلاغة الحديث ، فصدت عن التأليف بلفتها ، واليفت العربية بعدما فتنت بها .
 لقد اشتهر الخلفاء العباسيون بحبهم وتقديرهم للمعلم وأهله ، فكان المنصور يتحف ملوك الروم بهداياه الثمينة من أجل أن يصلوه بما لديهم من كتب الحكماء . وكان يخصص لها مهرة المترجمين ، ويبدل لهم العطاء ، فراجت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وكانت الترجمة عمل دولة لا عمل أفراد . وفي عهد الرشيد ازداد نشاط العلماء والأطباء ، وامتلات خزائن دار الحكمة بالمخطوطات وانتقل كبار الأطباء والترجمة والباحثين عن العلم والعمل الى مدينة بغداد ، فكان عند الرشيد من يطببه على طريقة اليونان او الهنود او الفرس او الكلدان ...

وكان الخليفة المأمون ذا ولع بالطب . ومن غريب ما يروى عنه أنه أولم لخاصعه ووضع لهم أكثر من ثلاثمائة لون من ألوان الطعام ، وكلما وضع لون نظر اليه المأمون وقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا ينفع لكذا . . . ومن أحب الزيادة في لحمه فلياكل من هذا ، ومن كان قصده الغذاء فليقتصر على هذا . . . وما زالت تلك حاله حتى رفعت الموائد . . . فقال يحيى بن أكرم « يا أمير المؤمنين ان بحثت في الطب فأنت جالينوس . . . وفي معرفة النجوم فأنت هرمس ، وان ذكرنا السخاء فأنت حاتم » .

لقد اقتدى بالخلفاء العباسيين ووزرائهم عدد كبير من رجال عصرهم ، فأصبحوا يتنافسون على اقتناء الكتب القديمة من يونانية أو سريانية أو فارسية ، كما سعوا لنقلها الى اللغة العربية . ومن الأسر المشهورة بممارسة الطب وترجمة الكتب آل بختيشوع . وهي أسرة نصرانية - نسطورية ، توارثت صناعة الطب ، وكان لأفرادها حظوة عند الخلفاء العباسيين ، منذ زمن المنصور ، فانتفعوا ونفموا بطبهم ومؤلفاتهم . وكانوا من أجمل أهل زمانهم ، لما لهم من شرف النفوس ونبل الهمم . لذلك توارثوا رئاسة الأطباء في مدينة بغداد مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولكن مؤلفاتهم الطبية كانت موجزة وقليلة العدد .

كان جرجس بن بختيشوع (ت - ١٥٤ هـ) ، عميد هذه الأسرة ، رئيساً لبيمارستان ومدرسة جنديسابور . وكان أول من جاء الى بغداد بنام علي طلب المنصور . ثم تبعه عدد كبير من أطباء أسرته ومدرسته ، وكان منهم ولداه جبرائيل وبختيشوع ، وتلميذاه ماسويه الخوزي وابنه يوحنا .

عمل يوحنا في ادارة البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في بغداد ، كما أشرف على المترجمين الذين كانوا يعملون في دار الحكمة . وكان يعقد مجلساً مساء كل يوم يحضره جمع من تلامذته ، فيفحص أمامهم بعض المرضى ، ويشخص الأمراض ، ويصف الأدوية . استمر عمله في خدمة الخلفاء العباسيين منذ عهد الرشيد حتى أيام المتوكل ، حيث توفي عام

٨٥٧ هـ .

قام يوحنا بوضع عدد كبير من المؤلفات الطبية والصيدلية ، اقتبس أكثرها من كتب اليونان ، وخاصة أبقراط وجالينوس . لقد كان هنالك أسر وأفراد يهود اليهم الفضل أيضاً في جمع المخطوطات والسمي في ترجمتها ، نذكر منهم أسرة موسى بن شاعر ، وعلي بن يحيى المنجم ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم

مما لا شك فيه أن حنين بن اسحق ، تلميذ يوحنا بن ماسويه ، كان أنبغ المترجمين ، فقد كان ضليعاً باللغة العربية الى جانب إتقانه اللغتين السريانية والاهريقية . وقد لقبوه بحق شيخ المترجمين ، لأنه نقل أمهات كتب اليونان ، بينما اكتفى غيره بترجمة المؤلفات الموجزة لجالينوس ، وهو ما نطلق عليه اسم جوامع الاسكندرانيين .

لقد أهرم حنين بمؤلفات جالينوس فلم يترك كتاباً الا ترجمه . يضاف الى ذلك أنه قام بتأليف عدة كتب طبية هامة منها كتاب العشر مقالات في العين وكتاب المسائل في الطب

استقرت العلوم في بغداد ، ونشأ جيل من العلماء المسلمين فهم هذه العلوم فهماً صحيحاً ، وكان على رأسهم أبو يعقوب الكندي الذي ألّف ما يزيد على واحد وعشرين كتاباً في الطب . وكان للكندي اهتمام خاص بالصيدلة الى جانب اهتمامه بالطب وبالعلوم الطبيعية والهندسية بصورة خاصة .

تلك عجالة قصيرة من مرحلة النقل والترجمة الأولى في عهد الأمويين والعباسيين . ولكن استحووا لي أن أمر سريعاً الى حركة نقل العلوم الطبية في الأندلس لما لها من أهمية في اتمام هذا الموضوع :

لقد عني الخلفاء والإسراء في الأندلس ، وعلمائهم وذوو الوجاهة والثروة منهم ، بتشجيع انتقال كتب العلم ، المترجمة والمؤلفة ، في شرق العالم العربي الاسلامي الى خزائنها . كما سعوا لتفسير واصلاح ما تُرجم منها سابقاً . فقد جاء في كتاب ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكام) أن كتاب ديسقوريدس في الأعشاب قد ترجم في بغداد أيام الخليفة جعفر المتوكل ، من اليونانية الى العربية ، على يد الطبيب اسطغان بن باسيل . وقد وردت نسخة الى الأندلس ، من الترجمة المذكورة ، وفيها نقص كبير ، وذلك في عهد الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر ، الذي عُرف بين ملوك الدنيا برغبته في العلوم . فكانوا يهدونه الكتب . وقد أهناه (أرمانئوس) ملك القسطنطينية هدايا من بينها كتاب (ديوسقوريدس) ، مصورة فيه بالالفوان بعض النباتات الطبية . ولما لم يكن في ذلك الحين في قرطبة من يقرأ الخط اليوناني فقد طلب عبد الرحمن من أرمانئوس أن يمثاليه برجل يحسن اليونانية واللاتينية ، ليقوم بشرح وتفسير ما غمض من أسماء ومصطلحات وردت في هذا الكتاب . فأرسل اليه راهباً اسمه نقولا ، فاشترك مع عدد من أطباء الأندلس ، بينهم محمد المعروف بالشجار ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد العليبي ، وعبد الرحمن بن اسحق ، وأبو عبدالله الصقلي . . . فصح هؤلاء ببحوثهم بعض أسماء العقاقير الواردة في ترجمة الكتاب ، كما صححوا النطق بأسمائها .

لقد نشأ في الأندلس مدرسة لترجمة العلوم من اللاتينية الى العربية ، فانجبت عدداً من العلماء ، أغنى بعضهم ببعوثه علوم الطبيعة والطب والفلاحة وعلم النبات . فجمع الطبيب أحمد بن محمد الفافقي (ت - ٥٦٠ هـ) نباتات اسبانيا وافريقيا ، وسمى كلا منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكذلك فعل معاصره الشريف الإدريسي .

مرحلة التدوين والتأليف ، وهي ما نعبر عنها بالمعصر الذهبي للعلوم عند العرب :

لقد بلغ الطب العربي التقليدي ذروته في القرن العاشر للميلاد ، أي الثالث للهجرة . ويكون بذلك قد سبق الطب الغربي بنهضته بمئات السنين ، ففي البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة ظهرت بيمارستانات تضم مدارس للطب ، قصدتها الراهبون في العلم من كل عرق ولون ودين .

ونحن سنكتفي بذكر ما له بالطب صلة وثيقة ، فقد تعمق المسلمون في دراسة علم وظائف الأعضاء ، وحفظ الصحة ، وعلم المقاقير والأدوية ، وما زال كثير من عقايرهم وأدويتهم يستعمل حتى الآن .

لقد عرف المسلمون التخدير بالاسفنجية ، وأقدموا على اجراء عمليات جراحية متنوعة ومبتكرة ، فكان النجاح حليفهم في حسن نتائجها . وكانت الرسومات الطبية ، لبعض أعضاء وأجهزة الانسان تزيّن مؤلفاتهم أحياناً . واكتشف الكيميائيون من المسلمين مركبات كثيرة هامة أشهرها الكحول ، وأنواع الزاج ، وأزوتات الفضة ، والسليمانى الأكال ، كما اكتشفوا عدة حوامض منها حامض الخل ، وحامض الكبريت وروح الملح بالإضافة الى عدد كبير من العطور والأملاح والأصبغة . وعرفوا استخراج السكر والنشاء وأنواع الزيوت .

ان أهم ما يميز المعصر الذهبي للطب العربي هو انشاء البيمارستانات وتأليف الأقرباذنيات والموسوعات ، وتأسيس نظام الحسبة ، وسنكتفي بالكلام عن بعض ما ظهر من الموسوعات خلال هذا المعصر .

أولاً - كتاب فردوس الحكمة لعلي بن سهل رابن الطبري :

وهو أول كتاب منظم على شكل موسوعة يضم علوم الطب ، ظهر باللغة العربية ، وقد استفاد مؤلفه من المراجع السريانية والافريقية والهندية ، دون الرجوع على ما يبدو الى ترجمات حنين . واشتمل عمله على أبواب في المبادئ العامة الكونية وفروع الطب . وأبرز قسماً خاصاً بالطب الهندي وبهذين العالمين الكندي والطبري بدأ عهد التأليف العربي المستقل .

في هذه الفترة ، كان أهم ما في التراث الطبي من العالم قد نقل الى لغتنا العربية . نعم . . في ذلك الوقت وعلى الأساس الذي أرساه الطبري من ناحية وحنين من الناحية الأخرى بدأ الطب الاسلامي في الازدهار وسرعان ما ظهر محمد بن زكريا الرازي الذي يعتبره الباحثون شيخ الأطباء المسلمين وخاصة من الناحيتين التجريبية والسريانية في الطب .

ولد الرازي في الري ، وبدأ تعليمه في هذه المدينة واتجه الى الكيمياء ليستهل حياته ، ولم يتحول الى الطب الا في فترة متأخرة . ثم جاء الى بغداد حيث كان على رأس المستشفى الرئيسي فيها ، وأخيراً عاد الى الري حيث مات سنة (٢١٣ / ٩٢٥ م) . ومن الصعب أن نتصور صورة تاريخية واضحة في هذه المرحلة من حياته . . . ولكننا نقول : لقد كانت له تجربة سريرية واسعة ، وقد درب عدداً كبيراً من الطلاب وكتب كثيراً من المؤلفات وكان متفوقاً في شتى ميادين المعرفة من الفلسفة وعلم النفس الى الكيمياء والطب .

وكان ، اعجاب المؤرخ والعالم الغذاء البيروني بكتابات الرازي كبيراً . . . حتى انه قضى سنوات عديدة في جمع تلك المؤلفات ، وتسجيلها في فهرس خاص ، وقد بلغ مجموع هذه المؤلفات / ١٨٤ / مؤلفاً تختص بالطب والموضوعات المتصلة به . . . واهم هذه المؤلفات الموسوعة الفخمة (الحاوي) وهذا الكتاب الموسوع ذاع صيته في الشرق والغرب وهو يقوم على ملاحظات الرازي اليومية في فحص مرضاه وعلاجهم . . . ويعتبر ذخراً ثميناً من ناحية الملاحظة والتجربة أكثر من الطب النظري . . . ومن كتب الرازي الأخرى « كتاب المنصوري » وكتاب « تقسيم العلل » وكتاب « الفاخر » ولعل أكثر مؤلفاته ذيوها رسالته في « الجدري والحصبة » ، وقد ترجمت الى اللاتينية .

ان كتب الرازي تشمل كل فروع الطب . وهذا الرجل الذي كان يعتبر نفسه نداءً لأفلاطون وأرسطو ، جمع بين التراث الطبي القديم ، وبين قدرته الشخصية على الملاحظة والاستنتاج للكشف عن العديد من الامراض والابتداع وسائل حديثة في ميدان الطب التقليدي . فهو يمثل بحق قمة شامخة في الطب الاسلامي . وان اثره في العالم الاسلامي وفي الغرب في فروع الطب كافة يفوق كل تقدير وشهرته منذ الف سنة مضت لهي خير دليل على الاثر الذي تركه في تاريخ الطب الاسلامي وخاصة في الطب العالمي بعامه .

وقد خلف الرازي أبو نصر الفارابي ذلك الفيلسوف الكبير ، ولكن اهتمامه بالطب لم يبلغ درجة سلفه ، ومع ذلك فقد أبدى بعض الآراء في الطب . . . وخاصة في طرقه ومبادئه ، بل روي أنه زاول الطب حين كان في حلب ودمشق .

ومنالک علي بن عباس المجوسي ، التذکتاب « کامل الصناعة الطبية » ، وكان يقول : ان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمها قدراً وأجلها خطراً ، وأكثرها منفعة لحاجة جميع الناس اليها . وكان علي - هذا مديراً لمارستان عضد الدولة الشهير في بغداد ، وقد دل كتابه ذلك على معرفة واسعة ليست مكتسبة من قراءة الكتب وحسب ، بل هي نتيجة تجربة شخصية واسعة . . .

ثم جاء ابن سينا الشيخ الرئيس : وهو من أذكيا العالم ، وكان يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ، ويفضل الفلاسفة بأنه طبيب ممتاز . . . وقد أنزله دانتي في منزلة بين أبقراط وجالينوس ، حفظ ابن سينا القرآن أولاً ، والأدب العربي ثانياً ، وتعلم الفلسفة اليونانية والعلوم الطبيعية . ثم تابع المطالعة حتى برع في الرياضيات ثم بالطب ، وهو ما يزال لي سن السادسة عشرة من عمره . تقول المستشرق (مدام جواشون) : انه حينما بلغ

ابن سينا السادسة عشرة كان طبيباً معروفاً وقد ملا اسمه الافاق منا جعل سلطان بخارى يستدعيه لمعالجته ، وفعلاً فقد شفي السلطان على يديه . . . فآكرمه بأن وضع مكتبته الضخمة بين يديه ، حيث أخذ يعب العلم من هذه المكتبة .

- بلغ عدد مؤلفاته أكثر من / ١٦٠ / كتاباً ، فيها سبعة عشر كتاباً في موضوع الطب ومن أهمها كتاب القانون الذي ترجم الى اللاتينية ، وأصبح مرجعاً هاماً للدراسات الطبية في أوروبا وقد كان يدرس هذا الكتاب في جامعتي فيينا وفرانكفورت طوال القرن السادس عشر . كما بقي يدرس في جامعتي مونبليه ولوفان حتى منتصف القرن السابع عشر . وقد ترجم الكتاب الى لغات مختلفة لتداوله الاسرائيليون المشتغلون بالطب بين أرجاء العالم بأسره . وقد تمددت طبماته حتى قاربت الأربعين طبعة . في الوقت الذي كان فيه الطب خاضعاً لسلطان السحر والشعوذة والتدجيل (في أوروبا) وكان ابن سينا يفصل به طبعه وفلسفته فصلاً علمياً دقيقاً في موضوعي الفحص والمعالجة اذ يحاول أن يصل مع مرضاه الى علاج نفسي ، فاذا لم يتمكن من ذلك حاول أن يستعين بالأدوية . ولقد قضى ابن سينا جل حياته في البحث العلمي . ووفق الى ادخال التصحيحات على ما جاء في طب الأقدمين حول عوارض الفالج ، وامراض الكبد ، والصدر وعلاقة بعض الأمراض بغيرها . كما أنه اكتشف مرض التهاب السحايا ، وقد ذكر الدودة الشمسية (الأنكلوستوما) في مؤلفاته ووضع حدوداً لآلام الأعصاب بعد ملاحظتها ، وأجراء تجارب عليها . ولقد توصل ابن سينا في ملاحظاته الى أن العصبية أكثر ما تنشر عدواها في الربيع والخريف . كما كان ابن سينا شاعراً ، وله قصيدة من أروع القصائد في وصف النفس :

هبطت إليك من المجل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

محبوبة عن كل مقلة عارفي وهي التي سفرت ولم تتبرقع

كان ابن سينا متعاطفاً ، معتدلاً بنفسه ، طموحاً متالياً ، لذلك فكانت حياته سلسلة من الأحداث والاضطرابات ، كان كتابه القانون موسوعة طبية جامعة ، لكل العلوم الطبية المدونة . وقد حوى هذا الكتاب على ما يقارب المليون كلمة ، وما يقول في الأرجوزة :

وكل طعام يعجز السن مضغه فلا تبتغيه فهو شر المطام

ولا تتعرض للدواء وشربه مدى الدهر الا في احتمال العظام

ولا تجس الفضلات عند اقتضائها ولو كنت بين المرهفات الصوامر

وكن مستعماً كل يومين مرة وحافظ على هذي الغلال وداوم

ذلك ابن سينا الذي سجل في الخالدين لقوله :

(لأجل أن الزمن أحب الى أهله من النسيم) . ونحن لو فكرنا ملياً في هذا القول الرائع لعرفنا مبلغ الدرجة الانسانية الرفيعة التي ارتقى اليها الطب الاسلامي . وأين هذه الكلمة من أولئك المشرعين الذين نادوا بقتل (المرضى المزمنين) باسم الانسانية . أين هذا

القول من أولئك الذين نادوا في برلمانات الغرب بأن تتخلص البشرية منهم !! باسم القتل الرحيم .

ولكنه النور الذي ملا الأرجاء ، ولكنه الايمان الذي عمر القلوب ..
وبعدئذ هل ننسى الطب في الأندلس . هل ننسى العلوم في فردوسنا المفقود ..

كان أول من أنجبتهم قرطبة الزهراوي .. الذي يعتبر أعظم جراح في تاريخ الطب الاسلامي وقد كتب « كتاب التصريف » وهو موسوعة علمية ، كانت نيليا للجراحين في أوربا حتى عصر النهضة . اذ قدم وصفاً دقيقاً فيها عن أدوات الجراحة في الطب ، وقد ضم الكتاب ثلاثة أجزاء أولها في الكمي ، كما يشير به الطب النبوي ، ويقترحه الزهراوي لملاج الصرع ، والثاني في العمليات التي تجري بالمشروط ، وعمليات العيون والفم ، والثالث : في أنواع العظام وحلمها ثم في التوليد .

وفي الأندلس أيضاً نبغ الطبيب العربي ابن زهر .

ذكر ابن خلكان في وفيات الاعيان : ان ابن زهر كان من أهل بيت كلهم علماء ورؤساء ووزراء . نالوا المراتب العليا عند الملوك ، ونفذت أوامره .. كان يحفظ شعر ذي الرمة ، وهو ثلث لغة العرب - وقد أوصى أنه اذا مات تكتب على قبره هذه الابيات وفيها اشارة الى طبيه ومعالجته للناس :

تأمل بعقك يا واقفاً ولاحظ مكاتنا دفعتنا اليه
تراب الضريح على وجنتي كاني لم أمش يوماً عليه
اداوي الأنام حذار المنتون وما أنا قد صرت رهنا لديه

أما المؤرخ المعاصر فؤاد أفرام البستاني فقد ذكره في دائرة معارفه فقال : ان شهرة ابن زهر تقوم اضافة الى طبيه في شعره . ولاسيما في موشحاته المبتكرة التي كان فيها من المقدسين في هذا الفن الجديد . وقد جمع الى ثقافته الطبية ثقافة لغوية أدبية .

ويقول الدكتور الأستاذ أحمد شوكت الشطي في كتابه « اللب في الاسلام والطب » :
بنو زهر اسم يطلق على أفراد من أسرة من علماء الطب في الأندلس منهم : أبو مروان ابن زهر طبيب وحقه ، وأبو العلاء بن زهر بن مروان طبيب اشتهر بحسن التشخيص ، ومنهم أبو مروان بن أبي العلاء ، ولد في اشبيلية ، اعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، وله اختراعات في علم الجراحة .. ومنهم أبو بكر بن أبي العلاء ، برع في الطب وله كتاب في « طب العين » .

لقد كانت « قرطبة » منارة العلم والمرقان .. ذاع صيتها في الأفاق ، ولقد بلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونافار وبرشلونة كانوا يقصدون إليها ، كلما احتاجوا الى طبيب أو جراح أو مهندس ، وذلك ما حدث مع / طولما / ملكة نافار فقد أوفدت بولدها سانكا الشيدين لتعالجه من السمعة على أيدي أطباء قرطبة .. ثم هل ننسى جامعة قرطبة التي بلغ عدد المنتسبين إليها بضعة آلاف من الطلاب . وأصبحت شهادتها سبيلاً الى الوصول الى

أسمى المراتب ، وأرفع المناصب . وكانت النساء شقائق الرجال في اقتحام العقول العلمية ، فاشتهر منهن في الأدب والطب عدد كبير . ثم هناك جامعة غرناطة التي أسسها يوسف أبو الحجاج (سابع سلاطين بني نصر ١٢٣٣ - ١٢٥٤) وقد وضعت في مداخل هذه الجامعة تماثيل أسود من الحجر كأنما تحرسها ، وكان لهذه الجامعة ، جامعة غرناطة ، فروع ومعاهد تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفقه والدين ، وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب هذه المعاهد وهو أن العالم يقوم على أربعة أمور :

— علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصالحاء ، وشجاعة الشجعان .

أما قرطبة فقد تفردت بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس . وكان اقتناء الكتب آنذاك سبيل المنافسة بين الناس ، ولا بأس أن نورد هذه الحادثة للاستئناس : قال الحضرمي : أقيمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي يطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه ف يرجع إلي المنادي بالزيادة علي ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغ إلى ما لا يساوي

قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : أهذا الله سيدنا إن كان لك مرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لي : لا أدري ما فيه ولكن أقيمت جزائفة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أهيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . . . (١١)

ذلك هيض من فيض . . . أو قطرة من بحر ولو نقلنا اليكم ما قاله الأوربيون في تراثنا الطبي العربي الاسلامي لاطلنا . . . ولكننا نريد أن نتترك ذلك للدارسين والباحثين . . .

تري ماذا حلّ بتلك المؤلفات جميعاً ؟؟ نعم لم يصلنا منها الا القليل القليل فلقد ارتكب أعداء الانسانية جرائمهم في كل مكان . . . وهل هناك أفظع مما ارتكبه التتار في بغداد ، حيث أحرقوا ما في بغداد من كتب والقوا في نهر دجلة ما القوه . . . وفي غرناطة أو لم يصادر « كسيمس » كتبنا الخالدة ويرتكب بحقها وحق العلم والانسانية جريمة كبرى تحاكي جريمة التتار في بغداد . فقد جمعها في أكوام في ساحات غرناطة وأشعل فيها النار . . .

لقد اهل نجم العرب حينئذ فبهت نور العلم ثم زال وعمّ الدنيا الظلام .

واليوم ماذا يمكن أن نقول هل نعرف نحن العرب مكانة علمائنا . . . هل نعرف قدرهم ومنزلتهم هل نهتم بهم مثلما يهتم بهم غيرنا على الأقل . ماذا فعلنا من أجلهم ، ان معاهدنا وجامعاتنا مقصورة في هذا المجال . ليس يكفي أن نذكرهم كلما مرت مناسبة ، أو انقضى من الأهرام ألف . . . ليس يكفي أن نكتب عنهم : ونقول أنظروا ماذا فعل أجدادنا وتأملوا حسن صنيعهم . فالبشرية كلها تتمتع بجميلهم وتحيي مجدهم .

وعلماء المشرق والمغرب يقدرون ويحترمون، في الغابر والحاضر، يقتدون ويترسمون
خطواتهم في كل سبيل . . .

إذا نحن بحاجة الى اهتمام دائم بقرائنا، نحن بحاجة الى النظر فيه باستمرار ونشره
وإحيائه . وأن تتسلمه أيد أمينة مخلصة ، أيد مؤمنة صادقة تخاف الله وتؤمن به وتعمل في
سبيله . أيد نظيفة لم تلوثها نزعات الهوى . ولا زيغ القلوب والضمائر، أيد تعمل بصدق،
وتكتب بصدق ، وتبحث بصدق ، وتسمى دائماً الى الصدق .

آخر ما قرأته لكم هذه النادرة التي تدل على مجدنا العلمي المبكر . . . كان ذلك في نهاية
القرن الثاني الهجري . فقد انصرف عبدالله بن هانم يوماً من الجاسع الأعظم بالقيروان ،
بمد صلاة الجمعة . فدخل عليه بمض أصحابه، فسأله ابن هانم ؟ هل حضرت الجامع ؟

قال : نعم .

قال ابن هانم : كيف رأيت ؟

قال : رأيت أصلحك الله ، سبعين قنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قنسوة عالم . . .
فتراجع ابن هانم وقال متأسفاً :

مات الناس يا أيها الحسن ؟!

سأل الباحثين اليوم . . . هل زاروا جامعاتنا ؟ وكيف رأوا الناس هناك ؟ .

نعم . . . ان الجواب سيكون مؤسفاً لو عرف أبائنا الأولون في رموسهم هذا لأنكروا
ذلك فإلى الله نضرح أن يفتح لنا في تاريخنا المعاصر صفحة جديدة مطرزة بالمجد
والكرامة والمزة لمل أجيالنا تكمل رسالة العلم والحياة والحضارة في ربوع العالم .

وجدير بمن كان ماضيه حروباً بالأعجاب والتقدير أن يصل الحاضر بالماضي ليسير في
الركب لأن ركب الحضارة يسير حثيثاً مستنداً الى أصالة نبيلة والى ماضٍ مجيد يزيده
علماً وعملاً وطموحاً وأملاً

* * *

الحرف العربي

بين الأصالة والحداثة

حسن عباس*

أولاً - تمهيد وتوضيح :

لبي دراسة لغوية موسعة أنجزتها ولما تنشر بمد تحمل عنوان « الحرف العربي والشخصية العربية » ، قد تناولت في هذا المقال بعضاً من مسألتها مما يدور حول أصالة الحرف وحداثته .

ولكن قبل أن أتحدث عن (الأصالة والحداثة) في الحرف العربي أرى أن ألقى أولاً بعض الأضواء حول تعامل الناس معهما ، كيما أضع مفهوم كل منهما في إطاره (الثقافي - الاجتماعي) العام .

فالعلاقة بين (الأصالة والحداثة) قد تعرضت عندنا ولا تزال تتعرض للمزيد من النقاش والجدل على شتى الأصعدة وفي مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية ، سواء في الشعر أو اللغة أو العادات والمعتقدات والتقاليد . . .

فما أكثر الأتلام والألسن الواعية وغير الواعية ، التي تصدت لهذه العلاقة بينهما باعتبارها مشكلة الإنسان العربي المعاصر . ومع التسليم بأنها كذلك ، فهي ليست وليدة عصرنا هذا وإن كانت بالفعل من أهم قضايانا المصرية وأخطرها .

لموقفنا نحن من الأصالة والحداثة انما هو كموقف شعوب العالم منهما على مر التاريخ . لكل ظاهرة تطور في أي من المجالات الثقافية أو الاجتماعية أو العلمية ، كانت في كل مكان وزمان هي بالذات موضوع خلاف ومثار جدل بين أصحاب (الأصالة والحداثة) ، كما كانت أيضاً محرضاً على النزاع بينهما في شتى المجالات الأخرى .

فالبيض يتمسك بالتراث الموروث باسم الأصالة لأسباب من قوة الاستمرار ، أو الألفة والقداسة أو تحجر الفكر ، أو الحفاظ على المواقع المكتسبة في ظلّه ، فيتنكر لكل حداثة وتجديد . والبيض الآخر يستعين بالمستجدات الحديثة لزخرفة التراثيين عن مواقعهم زحاما على المكاسب والمفاسم . اختلاف في المواقف كان من ضحايا المستضعفون من أصحاب الحدائق والأصالة على حد سواء .

على أن البيض الثالث من المستنيرين الأحرار ، كان يصالح بين الأصالة والحدائق في معادلة ذكية تجمع بين محاسنها وتستفيد شوائبها سلما أو حربا . ومن معادلة الى أخرى أذكى وأشمل في شئ المعارف والمقائد والمعلوم ، أوجدوا عصرنا متطورا مستنيرا بحد عصره . وهكذا الأمر حتى انتهينا اليوم الى هذا الوعي المعاصر المتناسك اللامحدود ، محصلة محاولات موفقة لا حصر لها من التصالح والتأخي بينهما في شئ المجالات ، مما يشير الى وحدة الوعي في الوجود .

ولذلك فإن أصحاب (الأصالة والحدائق) في أي مجال ، اذا لم يعتمدوا ما توصل اليه الوعي المعاصر في شئ القطاعات الاجتماعية والثقافية والعلمية ، تغفل بحوثهم ومواقفهم قاصرة بمسافة ما يعتمدون عنه طفلة أو تنافلا . وبالمقابل ، فانهم بمقدار ما يعتمدون هذا الوعي ، تتاح لهم الفرص الوافية كيما يكشفوا عن جذور (الأصالة) أعمق وأصدق ، ويلانموا بينها وبين (الحدائق) على الواقع الراهن بما هو أشمل وأحكم .

فالمأخذ التي تعرضت لها دراسات أصحاب (الأصالة والحدائق) في الحرف العربي مثلا ، تعود الى عدم اعتمادهم ما استجد من العلوم التاريخية والأثرية والصوتية والجمالية والنفسية والفلكية والجيولوجية . وما أبري دراستي من هذا المطن ذاته .

فبين الأصالة والحدائق حوار أبدي ، هو حصاد حيوية وعصارة جهد ومعرض تطور ومخاض ولادة ، لولاه البهت الحياة وتاهت : رتابة قديم لا جديد له ، وانفلات حديث بلا ضوابط .

فالأصالة فيما أرى ، ليست قديم أسنا ولو كان من تراثنا المريق ، وإنما هي ما قبله قبله نتخذ منه سلما للعودة بنا الى أصول أصالته ، الى يوم استجاب الانسان العربي به غفو فطرته السوية للتحديات البيئية والانسانية التي اعترضته في مسيرته الحياتية ، مرحلة متطورة بعد مرحلة ، معتمدين في رحلتنا الطويلة هذه ما يتاح لنا من شئ المعارف والعلوم .

كما أن الحدائق ليست جديد يومنا مما يتمارض مع قديم أسنا ، ولو اعتراه البلى . وإنما هي وعي جديد للأصالة ، وصياغة مثلى لها في عملية ابداع تتلام مع واقع كل مرحلة متطورة من مراحلنا في شئ المجالات .

وهكذا فالحدائق ، هي وعي متطور من نسيج الأصالة نوظفه فيما يلائم واقعا سدا لحاجتنا ، تتصالح فيه متطلبات الحرية مع شروط الالتزام . فلا تجتث الحدائق جذورها

التراثية ، فنضيق هويتنا ونفقد مقومات شخصيتنا ، ونصبح ريشة باهتة في مهب الأعاصير . ولا يميح التراث حركة تطورنا الانساني وتقدمنا الحضاري ، فيسحقنا تطور الآخرين وتقدمهم .

ولذلك لا بد أن نقيم حواراً هادئاً نزيهاً بين الأصالة والعداثة في شؤوننا (الثقافية والاجتماعية) تراعى فيه القيم الجمالية والانسانية ، فتتحرر الأصالة في ميادينها من شوائبها ، ومما انتابها في عصور انحطاطنا من الترهل والجمود . وبذلك تستعيد الأصالة نضارتها في قوام حضاري غض رشيق . كما أن العداثة تزو مع هذا الحوار وتزدهر في رعاية الأصالة، برصانة تحميها من الميوعة والانحلال ، وبضوابط تقيها من الانحراف والشطط .

ثانياً - واذا ماذا عن أصالة الحرف العربي وحدثته ؟

١ - حول أصالة الحرف العربي :

أخذاً بما عرضته أنفاً عن المفهوم العام للأصالة يمكنني تعريف أصالة الحرف العربي بما يلي :

تتجلى هذه الأصالة أولاً في الخصائص الفطرية التي اكتسبها الحرف العربي عبر مسيرته مع الانسان العربي منذ نشأتهما الأولى قبل التاريخ في الجزيرة العربية . فظلاً يتفاعل هناك مع بعضهما البعض ومع الطبيعة والمجتمع والحس والنفس مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة ، التي أن استوليا شروط نضجها شمرأ وبطولة في المصير الجاهلي ، وفصاحة وبلاغة وقيماً مثلى في القرآن الكريم .

كما تتجلى هذه الأصالة ثانياً ، في أن الخصائص الفطرية للحرف العربي لا تزال عالقة به حتى يومنا هذا ، فكان المعنى التراثي للكلمة العربية المعاصرة هو محصلة خصائص الأحرف التي تشارك في تركيبها .

وهكذا فإن أصالة الكلمة العربية مرتبطة بأصالة الحرف العربي . هو الأصل وهي الفرع . فلولا أصالته لانعدمت فطرتها . ولكن لو لم تحافظ هي على فطرتها لضاعت أصالته ، كما وقع للكلمة وأحرفها في اللغات الأجنبية .

ولكن علماء العربية القدامى والمحدثين من قالوا بفطرية اللغة العربية قد تعاملوا جميعاً مع الحرف العربي بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أنه هو الفرع والكلمة العربية هي الأصل . لا يجرح حكمي هذا أن قال بعضهم بأن الحرف العربي هو أصل العربية، مثل (اللمايلي) وغيره . ولكن القول شيء والتعامل شيء آخر . فبذل أن يسموا التي استخلاص معاني الكلمة العربية بالرجوع إلى خصائص أحرفها ، حاول معظمهم استخلاص معاني الحرف العربي بالرجوع إلى معاني بعض الكلمات التي يتصدرها ، وقليل من لجأ منهم إلى التي يقع الحرف في آخرها . (محمد عنبر) ونظريته جدلية الحرف العربي (١) .

ولما كانت خصائص كل حرف تنغير وفقاً لطريقة النطق بصوته : مشدداً عليه ومفخماً في أول الكلمات أو مرققا ومنعماً ومخففاً في نهايتها ، أو بين بين في وسطها ، فقد كان

لا بد أن تغيب عنهم جميعاً ، ليس معظم الخصائص الفطرية للحروف العربية فحسب ، وإنما معظم معانيها أيضاً . فتمتدح عليهم بذلك للكشف عن أصالة الحرف العربي في خصائصه ، ليتعذر عليهم أيضاً استخلاص معاني الكلمات العربية بالرجوع إلى معاني حروفها . ولئن أصابوا جميعاً في بعض الأمثلة المختارة التي ضربوها ، فلقد أخطأوا جميعاً في بعضها الآخر . (كما سيأتي في مقال لاحق بشيء من التفصيل) .

وهكذا فإن اعتبار الكلمة العربية هي الأصل والحرف فرعاً منها قد أخذ بمعظم علماء العربية القائلين بفطرتها التي البحث أولاً عن معانيه ، وليس عن خصائصه . فكان هذا الاعتبار هو العقبة الأولى في طريقهم إلى أصالة الحرف العربي وحدانيته . هذا مع الإشارة إلى أن الكثير منهم لم يمنّ باستخلاص معاني الحروف العربية . كما أن بعضهم حاول استخلاص خصائص بعض الحروف بالرجوع إلى صدى صوت الحرف في النفس ، مثل (ابن جنّي والأرسوزي) . ولكنهم لم يلاحظوا تأثير خصائص الحرف في معاني جميع الكلمات التي يشاركون في تركيبها للكشف عن معانيه ، فغابت عنهم معظم خصائصه ومعظم معانيه . ولكن قبل أن يتشعب الحديث بنا عن هذه المقبات ، أرى من المفيد أن أبدأ أولاً بتعريف حداثة الحرف العربي .

٢ - لماذا عن حداثته ؟

تتجلى حداثة الحرف العربي في الأمور التالية :

- أ - استخدام خصائصه الفطرية لتحديد المعنى الفطري للكلمة العربية التي يشارك في تركيبها ، وهو حسي في الأصل قد تفرع منه المعنى المجرد للعلاقة معنوية بينهما ، كما في : « الشرف من الشرفة ، والصلاة من الصلة ، والمقل من العقال » إلى آلاف الأمثلة .
- ب - الاحتكام إلى خصائص الحروف العربية في كل خلاف وقع أو يقع حول معاني أي مفردة عربية وحول أصول استعمالاتها ، سواء في المصاحم اللغوية ، أو في قطاعات (حروف المعاني والضمائر وأسماء الإشارة وما إليها) .
- ج - ابداع ما نحتاجه من الكلمات للتعبير عن المعاني العصرية المستجدة في شتى المعارف والعلوم بما يتوافق مع خصائص أحرفها حفاظاً على أصالتها ، مع أخذ دلالة موازين الكلمات بعين الاعتبار .
- د - تصحيح الكلمة المصحفة بإعادة الحرف الذي يدل منها بما يتوافق مع معناها الفطري .

وما أحسبني مبالغاً ولا مغالياً لو قلت إن خصائص الحروف العربية هي الحارس القوي الأمين الذي حمى ويحمي أصالة اللغة العربية من كل هجانة واصطلاح ، ومن كل غزو ثقافي مضاد . والقد بلغ القرآن الكريم قمة البلاغة والفصاحة في تعامله مع خصائص الحروف العربية الفطرية ، ليس تعبيراً عن معانيه فحسب ، وإنما توضيحاً لقيمه أيضاً ، مما لم نجد له مثيلاً في شعر أو نثر ، وما لم ينتبه إليه أحد حتى الآن . كما لحظت ذلك في

استعماله أحرف : النون في (نازع) والغاء في (خاصم) والغين في (غفر) والمين في (غنى) والشين في (شكر) والحاء في (حمد) ومشتقاتها بما يتوافق مع موحياتها الصوتية .

ونظراً لأن خصائص الحروف العربية هي المحور الذي تدور حوله مسائل هذا المقال ، لا بل وكل مسألة تتعلق بأصالة اللغة العربية وفطرتها ، أرى من المفيد أن أهدد للقارئ بالقاء بعض الأضواء عليها هنا قبل أن ندخل في متاهات العقبات التي وقفت في طريق علماء العربية الى أصالة الحرف العربي وحداثته .

٣ - فماذا عن خصائص الحروف العربية :

ان الحروف العربية من حيث خصائصها ، فيما خلصت اليه من دراستي عن (الحرف العربي والشخصية العربية) موزعة بين ثلاث فئات ، هي : (الهيجائية والايماثية والايحائية) . وهذه الخصائص هي أصول معاني الحروف العربية .

ولكن كيما نستطيع اكتشاف كل حرف من كل فئة منها ، لا بد من النطق بصوته مفخماً وبشيء من الثاني ، فتتضخم بذلك خصائصه الخفية ، وتتوضح في سمع القارئ وفي نظره . وذلك على مثال ما نضع الأشياء الدقيقة تحت عدسة المجهر ، فتتضح أجزاؤها التي يتعذر رؤيتها بالعين المجردة .

لم أقتبس هذا التقسيم من أحد . فكان لاكتشافه قصة من نسيج المنطق والمقولة على الواقع اللغوي بلا استشفافات ولا استشراقات ، سأورد ما بشيء من التفصيل في موقعها من هذا المقال .

فماذا عن هذه الفئات ؟ تحقيقاً كالمطور علوم راسدي

١ - الأحرار الهيجائية :

هي (الهمزة والألف اللينة والواو والياء) . قد ورثناها عن اليهود الغابية التي مرت على الانسان العربي في الجزيرة العربية ، وانتهت بنهاية العصر الجليدي الأخير حوالي الألف (١٢) ق.م .

فالهمزة انفجار صوتي يثير انتباه السامع ، فاستعملها العربي في مقدمة معظم أحرف النداء . كما يبدل صوتها الانفجاري على الحضور والظهور والبروز ، فتصدرت ضمائر المتكلم والمخاطب وما الى ذلك . والألف امتداد اصوتي يشير الى فوق . والواو تدافع صوتي يشير الى الأمام والفعالية . والياء حفرة صوتية تشير الى تحت والنسبة .

وقد استخدم العربي هذه الفئة من الحروف ببراعة فائقة في قطاعات (حروف المعاني والضمائر وأسماء الإشارة) . بما يتوافق مع خصائصها الهيجائية . ولم ألحظ أن أحداً قد أشار الى الخصائص الهيجائية في الحروف العربية سوى (الارسوزي) . ولكنه أسندها الى أحرف ' الغاء في 'أخ' والنون في 'أن' والهاء في 'أه' ، وهي أحرف ايحائية لا هيجائية . أما

(الهمزة والألف) فقد أسند اليهما خاصية الحركة في ضمير المتكلم (أنا) : (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة (٢) ص ٣١١ + ١٥١ + ٢٣٦) . ولنا عودة الى هذا المثال عند الحديث عن الأرسوزي .

ب - الأحرف الایمانیة :

هي (الميم - اللام - الغاء - الشاء - الذال) . وقد ورثناها عن المرحلة الزراعية التي تلت المرحلة الغابية وانتهت حوالي الألف (٩ - ٨) ق.م وكانت الزعامة في هذه المرحلة للمرأة الأم (الزراعة) . قد فرضت عبادتها على الرجل : ربة للخصوبة تارة ، وربة للزراعة تارة أخرى . فأبدهت الأصول الحركية لهذه الأحرف خصيصاً للتعبير عن حاجاتها الأسروية والمنزلية والمهنية في المرحلة الزراعية .

ولم يهتد أي من علماء العربية وفقهائها الى الخصائص الایمانیة لهذه الأحرف التي تتجلى في طريقة النطق بأصواتها . فلم يفيدوا من هذه الخصائص في تحديد معنى أو استعمال أي مفردة عربية .

فصوت (الميم) المفخم يبدأ تشكله بضم الشفة على الشفة بشيء من الثاني حسباً للنفس ، ثم يكتمل بانفراجها عن بعضهما البعض . وهاتان الحركتان الایمانیتان تمثلان أحداث (المص والرضاع والحلب والاستخراج من الأشياء الجوفية) . فكان لهذه المعاني (٣٣) مصدراً جذراً تبدأ بها عثرت عليها في المعجم الوسيط وهو مرجعي في كل احصاء . فأطلقوا على الأم المرضع (ما - ما) ثم أطلقوها على كل (أم) مرضعاً كانت أم غير مرضع . وقد شربت هذه اللفظة يقيناً الى اللغات الغربية . ثم تحولت (مآ) الزراعيّة الى (أم) الفصيحة في المرحلة الشعرية ، تخلصاً من (غوغانیة) الأحرف الجوفية (ا - و - ي) (تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي (٣) - ص ٥٠ - ٥١) .

أما صوت (اللام) المفخم فيبدأ تشكله في المرحلة الأولى بالصاق اللسان بسقف الحنك ، بما يضاهي حالات الالتصاق والتماسك . فكان لهذه المعاني (٨٢) مصدراً تبدأ بها . ثم يكتمل تشكل صوتها بانفراج اللسان عن سقف الحنك . وفي حال تكرار هاتين الحركتين ، فان تلاهب اللسان بصوت (اللام) يضاهي أحداث المضغ واللوك واللحس ومتعلقات الأظعمة . فكان لهذه المعاني (المطبخية) المتعلقة باختصاص المرأة أصلاً (٥٣) مصدراً تبدأ بها . وهذه المعاني (المطبخية) الفطرية ، أهرق في الزمن من معاني التماسك والالتصاق الحضارية . وهكذا الأمر مع (الغاء) لمعاني الشق والحفر والتوسع والانفراج . و (الشاء) للخصائص الأنثوية و (الذال) للخصائص الذكورية .

ج - الأحرف الایمانیة :

هي ما بقي من الحروف العربية . قد ورثناها عن مرحلة رعوية رائدة بدأت في الجزيرة العربية منذ الألف (٩ - ٨) ق.م تحت زعامة الرجل .

تتجلى خصائص هذه الفئة من الحروف في صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن معانيها .
ولقد انتبه علماء العربية جميعاً ممن قالوا بظفرة اللغة العربية الى الخصائص الابهائية
لبعض الحروف ، ولكنهم عمموها اعتباطاً على سائر الحروف .

فما قاله (ابن جنى) في توضيح كيفية قيام العربي باهداع كلماته تعبيراً عن معانيه :
(خذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث) . كما قال ايضاً : « سوقاً للحروف على
سنت المعنى المقصود والغرض المراد » . بمعنى أن العربي كان يصور الأحداث بأصوات
الحروف . فيضع الحرف الأول بما يضاهاى اول الحدث ، ويضع الحرف اثنائى بما يضاهاى
وسطه ، والثالث بما يضاهاى نهايته . وضرب لذلك أمثلة موفقة في (بحث - قدر - قطر -
قشر - شد - دش) (الخصائص (٤) ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣) .

ومما قاله الأرسوزى : ان معنى الحرف هو صدى صوته في الوجدان ، (اي النفس) .
على أن ما عرضناه أنفاً من تعامل القائلين بظفرة اللغة العربية مع خصائص الحروف
الابهائية قد اقتصر على بعض خصائص بعضها في ملح ذكية لا ترقى الى النهج العلمى
عمقا وشمولاً . وذلك لأنهم اعتبروا الكلمة العربية هي الاصل ، والحرف العربي فرعاً
منها . فكان هذا الاعتبار هو اصل العقبات جميعاً الى (أصالة الحرف العربي وحدائته) .

ثالثاً - فماذا عن العقبات الى أصالة الحرف العربي وحدائته ؟

العقبة الأولى : تبعية الحرف العربي للكلمة العربية :

هي من أهم العقبات وأصلها جميعاً . تتجلى في اعتماد بعض علماء العربية (معاني)
الكلمات لاستخلاص معنى الحرف الذي يقع في أولها او في آخرها ، ثم يعتمدونه في تحديد
معانيها .

وذلك بدلا من اعتماد (خصائص) الحروف التي تشارك في تراكيبها لتجديد معانيها
بصورة مباشرة . فماذا اذن عن الفروق بين معاني الحرف العربي وخصائصه ؟

سأقتصر في حديثي هنا على الخصائص (الصوتية) للحروف العربية التي اهتدى كثير
من علماء العربية الى بعضها ، تاركاً الحديث عما لم يفلتوا اليه من خصائصها (الهيجائية
والابهائية) الى مناسبة أخرى . ان الخصائص الصوتية لأي حرف هو : « صدى صوته في
النفس » كما مر بنا . وهذا الصدى يوحى بمعنى معين لا بل ويمدد من المعاني . فصوت
(الدين) يوحى بالتفشي والانتشار والجفاف وهكذا (الصاد) للصقل والصفاء والأصلاية .
و (الزاي) للحدة والاهتزاز والانزلاق و(النون) للركة والأناقة . فكان لخصائص كل
حرف نسبة مئوية ملحوظة من معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها .

ولكن علماء العربية القدامى منهم والمحدثين ممن تعاملوا مع معاني الحروف كانوا
غالباً ما يستعرضون معاني بعض الكلمات التي يتصدرها حرف معين ، وليس كلها كما أسلفنا .
فاذا وجدوا أن ثمة رابطة حسية أو معنوية ظاهرة تجمع بينها ، اعتبروا هذه الرابطة
هي معنى الحرف ذاته . ولكن دون أن يربطوا صراحة بين هذا المعنى وبين خصائصه الصوتية .

لمعظم علماء العربية القدامى والمحدثين، قد لاحظوا رابطة (الفؤور والحفاء الغيبوبة) في معاني الكلمات التي يتصدرها حرف (الغين)، كما في (غرق - غاص - غاض - غطس - حرب - غاب - فطس - هبش - غل - غمض - غام - غفل - غدر - غبي ٠٠) . فقالوا عن هذه الرابطة من (الفؤور والحفاء والغيبوبة) هي معنى (الغين) . ولكن أحدا منهم لم يسندها صراحة الى خاصية (الغمضة) في صوتها بمن فيهم (الارسوزي) ، الذي قال بأن (الغين) للغيبوبة والغموض (المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة) (٥) ص ٨٧ - ٨٨) . فخاصية (الغمضة) في صوتها توحي فعلاً بالغموض والحفاء ، وبما يتفرع عنهما من معاني الظلام والسواد والغيبوبة الحسية والمعنوية في (٧٦) مصدرًا جذراً تبدأ بها لهذه المعاني . ولكنهم لو اعتمدوا خصائصها الصوتية في تفصيلاتهم عن معانيها ، لشرروا أيضاً على (٢٢) مصدرًا جذراً لمعاني (الاضطراب والبمثرة والتخليط) بما يتوافق مع خاصية (الاهتزاز وبمثرة النفس) في صوتها .

وهكذا الأمر مع الحروف الأخرى التي استخرجوا بعض معانيها ، من حيث عدم توضيح هذه الرابطة الفطرية بين الخصائص الصوتية للحروف وبين معانيها الا في بعض اللمح الذكية كما في قول (ابن جني) في خصائصه: « في الغام رخاوة وفي القاف صلابة . فقالوا خضم للسرطب وقضم لليابس » (الخصائص (٦) ج ٢ ص ١٥٧) .

وعلى كل حال فمن الثابت أن علماء العربية لم يعتمدوا الخصائص الصوتية للحروف العربية (صدى أصواتها في النفس) في تفصيلاتهم عن معانيها بالرجوع الى معاني الكلمات التي تتصدرها جميعاً .

وهكذا ، قد خفيت عنهم الرابطة الفطرية التي تجمع بين معاني الكلمات التي يتصدرها حرف معين وهي (حسية) في الغالب ، فلا يبحثون عن معناه في المصادر الأخرى التي يقع في آخرها ووسطها . ويبقى مثل هذا الحرف لديهم وكأنه بلا معنى ، فيهملونه . ما شذت عنهم سوى (العلايلي) الذي اتبع نهجاً خاصاً شديداً التعميد كان محفوظاً بالمزائق والمخاطر، بمرض قيامه بتحديد معاني الحروف العربية جميعاً ولكن بالرجوع الى (النصوص المحفوظة) ، وليس الى خصائصها الصوتية فأصاب حيناً وجانبته الدقة أحياناً . وبذلك تبقى الكلمة العربية لدى (العلايلي) في التعامل كما لدى غيره ، هي الأصل والحرف العربي هو الفرع .

وهكذا ، فإن انصراف علماء العربية وأساتذتها عن الخصائص الصوتية للحروف العربية يعود الى معالجتهم مسألة أصالة الحرف العربي في ظل الكلمة العربية ، باعتبارها هي الأصل ، وهو الفرع لحق الأرسوزي الذي ابتكر التعريف الفلسفي - النفسي لمعنى الحرف العربي بأنه : « هو صدى صوته في الوجدان » قال « الكلمة هي ملكوتي » (المجلد الأول ص ٩) . ولم يستطع هو ولا غيره الافلات من هذا الملكوت . وهذا ما حال دون اهتمامهم الى خصائص الحروف العربية ومعانيها جميعاً .

كيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لقد اعتبرت الحرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع . فهو الأقدم منها بالآلاف الأعوام ، إن لم أقل بمئات ألفها . كما اعتبرت خصائص الحرف العربي ، تبعاً لذلك هي الأصل ، وإن معانيه المستفادة من معاني الكلمات التي يشارك في تراكيبها هي الفرع .
كيف تعاملت مع خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

تبسيطاً للحديث ، سأظل هنا مع علماء العربية أيضاً في نطاق الخصائص (الصوتية) للحروف العربية بعيداً عن خصائصها (الهيكلية والايماثية) .

فلو أخذنا (الهام) وفغنا صوتها لوجدنا أنه يوحى (بالاهتزاز والاضطراب) ، وهما من خصائصها الصوتية . ولو استعرضنا معاني الكلمات التي تنصدرها لوجدنا أن بعض معانيها قد توالق مع خصائص (الهام) الصوتية الحسية في الاهتزاز من (اهتراء وتخريب واهتزاز وقشر وهدم وتهشيم) في (٦٢) مصدرأ جذراً لهذه المعاني . أما البعض الآخر منها فقد توافق مع خصائصها الصوتية في الاضطراب ، من « أمراض نفسية واضطرابات عقلية وعيوب أخلاقية وتشوهات جسدية » ، وما إلى ذلك من الأصوات والمشاعر الإنسانية الرديئة في (١٦٩) مصدرأ جذراً تبدأ بها . فكانت (الهام) بذلك هي (المصح) العقلية في اللغة العربية ، قد أفرده في جناح خاص بالتشوهات الجسدية وذلك على مثال ما كانت (الغمام) حاوية قنامة لرديء المعاني وبديئها وفقدراها وفاحشها .

ومكذا الأمر مع (الصاد) لموجيات (المقل والصفاء والصلابة) كصدى صوت له في النفس . ومع (الراء) لموجيات (الحركة والتكرار والتمفصل) . ومع (القاف) للقوة والمقاومة . ومع (الشين) للتغشي والانتشار والجفاف ، ومع (الطام) للطراوة والمطاوعة والضعامة .

ولقد قمت بتطبيق هذا النهج على باقي الحروف العربية ، في مسح شامل لها ولجميع المصادر التي تبدأ بكل واحد منها بحثاً عن معانيه الفطرية التي تتوافق مع خصائصه الصوتية وغير الصوتية . فإذا كانت نسبة تأثير خصائص الحرف في معاني الكلمات التي تنصدرها تراوح بين (٥٠ - ٩٠) في المئة ، اعتبرت هذه الخصائص هي من معانيه الفطرية الأصلية . وقد يكون له غيرها مما لم أهتم إليه .

ومهما تكن نسبة تأثير خصائص الحرف في معاني الكلمات التي تنصدرها ، فغالباً ما أعتمد إلى استعراض معاني الكلمات التي يقص في آخرها أو وسطها . وذلك بحثاً عن معانيه الأخرى التي تتوافق مع خصائصه (الصوتية وغير الصوتية) ، والتي لا تظهر إلا في تلك المواقع ، كما سيأتي :

ولكن يستحسن بي أن أوضح منذ الآن ماذا أعنيه من مصطلحات : (المصدر الجذر ، أو المصدر ، أو الكلمة ، أو اللفظة) التي استعملها عادة بمعرض الحديث عن معانيها .

لاي مصطلح منها ، قد يكون اسماً أو فعلاً ، أو واحداً من مشتقاتها ، ولكن على أن لا يكون : مولداً بعد عصر التدوين ، ولادخيلاً ، ولا مما أقرته المجامع اللغوية ، ولا عامياً ، ولا اسماً لجماد أو نبات أو حيوان غير مشتق من فعل . وأن يعتمد من سائر معانيه واستعمالاته ما هو الصق بالفطرة: حسيّاً أولاً ومعنوياً ثانياً ، وغالباً ما أكتفي بحسي واحد وذلك كله حرصاً شديداً مني على استخراج الخصائص الفطرية البكر للحروف العربية وفق ما اعتمدها العربي عند ابداع كلماته تعبيراً عن معانيه ، بلا شائبة لاحقة ولا شبهة .

ويطيب لي أن أنقل هنا للقارئ كشفاً عن النسب المثوية لتأثير خصائص الحروف العربية (الهيجانية والايماثية والايحائية) في معاني المصادر الجذور التي تبدأ بها أولاً ثم أنتي تنتهي بها ثانياً ومرجعنا في ذلك المعجم الوسيط .

الباء (٥٣) القاء (٣١-٢٣) . الشام (٥٤-٥٦) الجيم (٦٥-٦٥) العام (٥٣-٢٥)
 الخاء (٨٥-٧٦) الدال (٥٨) الدال (٧٠) السراء (٧٠-٦٢) الزاي (٧٣-٥٧) السين (٥٦-٣٥)
 الشين (٤٨-٨١) الصاد (٨٦-١٦) الضاد (٩١-٨٦) الطاء (٩٠) الظاء (٩٤-٩٥)
 العين (٨٨-٦١) الغين (٧٣-٤٢) الغاء (٧٣-١٧) القاف (٥٠-٦٣) الكاف (٥٠-٤٨) اللام (٦٥)
 الميم (٥١-٢٦) النون (٧٦-٦٠) الهاء (٩٠-٧٩) .

ولقد أمضيت في استخلاص هذه القبضة الصغيرة من الأرقام ثلاثة أعوام ونيّف .

وأما (الهزة والألف والواو والياء) ، وإن لم ألحظ أي تأثير يذكر لها في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، إلا أنها قد فرضت خصائصها (الهيجانية) بصورة خاصة على (حروف المعاني وأسماء الإشارة والكناية والضمائر) ، مما منح شخصياتها في هذا القطع (الصرفي - النحوي) قوة لا يضاهاها في ذلك أي حرف آخر .

وبهذا المسح الشامل لخصائص الحروف العربية ومعانيها قد تبين لي أن لكل حرف عدداً من المعاني بحسب مواقفه من المصادر . وذلك لأن خصائصه (الصوتية وغير الصوتية) ، تتغير بحسب مواقفه منها .

ولا يضر (شخصية) الحرف العربي المتمثلة في خصائصه ، أن تتغير ملامحها بحسب مواقفه من الكلمة . فإن ملامح شخصية كل إنسان تتغير أيضاً بحسب مواقفه في مقدمة الصفوف من المجتمع ، أو في آخرها أو في الوسط .

وهكذا فإن التباس خصائص الحروف العربية بمعانيها تعود إلى أن الفكر اللغوي القديم والجديد قد عالج مسألة أصالة الحرف العربي وحداثته في ظل الكلمة العربية الشاهرة المستوفية شروط نضجها باعتبارها هي الأصل وهو الفرع . فكان لا بد لعلماء العربية وأساتذتها أن يتعاملوا مع الحروف العربية ومعانيها بكثير من المزاجية الشخصية وقليل من الضوابط العلمية .

أما أنا ، فبلجوثي إلى الاحصاء الرياضي ، بمرض استخراج معاني المصادر التي تقع الحروف العربية في أوائلها وأواخرها وأواسطها أحياناً ، ويتأمل خصائصها على ألف مهمل

من الثاني والتروي ، قد اهتمت عن الخواطر الشاردة والمزاجية الشخصية ، لتجنبت بذلك الكثير من المزالق (السمية والبصرية والشعورية) .

وسرى القارئ أن هذه العقبة هي أصل العقبتين التاليتين ، لا بل وكل العقبات الثانوية التي حالت بين علماء العربية وأساذتها ، وبين الاهتمام الى أصالة الحرف العربي (خصائص ومعاني) ومن ثم الى حديثه .

العقبة الثانية - ظاهرة الفوضى في تدوين اللغة العربية :

لقد ظلت الفصحى العربية بصيغ مفرداتها وقواعد صرفها ونحوها وما اليهما سماعية في معظمها يتداولها أبناءها الخالص على سجيتهم عفو الفطرة في بواديهم وحواضرهم على صفحات الذاكرة جيلاً متقفاً منهم بمدجبل ، وبلا تدوين حتى ما بعد نزول القرآن الكريم .

وعندما بدأ اللحن يتسرب الى الفصحى العربية في المجتمع العربي الاسلامي الجديد بفعل الاحتكاك مع شعوب غير عربية ، قام في منتصف القرن الهجري الثاني لفيف من العلماء بتدوين (الحديث والفقهاء واللغة وقواعد الصرف والنحو) . وذلك ضيقاً لقراءة القرآن الكريم وغيره على الفصحى العربية من التلاشي والضياع .

ولما كان التدوين يتناول أصلاً ما هو غير مدون ، فلقد كان السماع بهداهة هو المرجع الرئيس المعتمد في حركة التدوين . ولكن علماء اللغة بصورة خاصة ، حرصاً منهم على سلامة مدوناتهم في شؤون اللغة والصرف والنحو من أي مطعن لحن أو شبهة هجانة ، قد اشترطوا فيمن يجوز السماع منه والأخذ عنه ثلاثة شروط رئيسة :

الشرط الاول :

أن ينتمي الى احدي القبائل التي ظلت مشردة في بواديها وصعاريها ، فلم تحتك بغير الاهراب على مدى تاريخها . فأخذوا كثيراً عن (قيس وتميم وأسد) وقليلاً عن (هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين) فقط .

الشرط الثاني :

أن يكون حشناً في جلده جلفاً في مظهره ، لم يعرف حياة العرف .

الشرط الثالث :

أن يكون فصيحاً في لسانه ، رجلاً كان أو امرأة . ولا يسمع من أحد ما لم يتوافر فيه الشرطان الاولان . (البلغة في أصول اللغة) (٧) ص (١٩٥ - ١٩٦) .

وكان أول من نهج من علماء العربية النهج (الرياضي) في جمع شتات كلمات اللغة العربية جميعاً من ألوان (أجلاف) الفصحاء ، هو المبقر صااحب الأوزان الشعرية : (الخليل بن أحمد الفراهيدي) في كتابه (معجم المين) . فكان أول معجم عربي وأول معجم

من نوعه في تاريخ اللغات . ثم سار على هذا النهج (أبو بكر محمد بن الحسن الشافعي ٢٢٣ - ٣٢١ هـ) في كتابه (الجمهرة) (البلغة) (٨ ص ١١٥) وهذا النهج يتلخص فيما يلي:

- ١ - لقد حصر الكلمات العربية بأربعة أوزان هي (الثنائي والثلاثي والرابعي والخماسي).
- ٢ - ثم أخذ يركب الحروف الهجائية بعضها مع بعض : (مثنى وثلاث ورباع وخماس) . مستغنياً بذلك التراكييب النظرية الممكنة من الأوزان الأربعة . فقيس لها بلغت (١٢,٣٠٥,٤١٢) : (تكوين العقل العربي) (٦) لمؤلفه د. أحمد عاهد الجاهري ص (٨٢).
- ٣ - ثم راجع هو وعلماؤه اللغة طوال قرن من الزمن يستفسرون من (أجلاف) الفصحاء عن الكلمات الممكنة التي ركبوها نظرياً فيما إذا كانت قد وردت فعلاً على السنة العرب، وما هي معاني ما ورد منها .

فمن أين تسربت الفوضى الى حركة التدوين ؟

المنفذ الأول : لقد التزم العلماء في تدوين اللغة العربية نهج (الفراهيدي) بالانطلاق من الامكان الذهني الى الواقعي . فكان تعاملهم مع الحروف الهجائية تاملاً (رياضياً) بحتاً . وبذلك قد انقلبت عملية التدوين من جمع اللغة المتداولة فعلاً الى عملية (التماس سند واقعي لفرض نظري) من أفواه الفصحاء (الأجلاف) . (المرجع السابق) (١٠ ص ٨٣) .
ولئن كانت لا شبهة تذكر حول الكلمات التي وردت في الشعر الجاهلي ، بصورتها خاصة، إلا أن هذه الشبهة تحوم حول كثير من غرائب الكتم ، مما لم يرد في الشعر . ومما يزيد في الشبهة حول ذلك ، أن فصحاء حضريين من غير (الأجلاف) قد تسربوا الى بوادي الفصحاء (الأجلاف) يتقشفون مثلهم ويخشوشنون كيما يؤخذ عنهم ، وذلك سميأ وراء الشهرة المعنوية أو المكافآت المادية السخية . (تكوين العقل العربي) (١١ ص ٨٤) .
ومن هنا بدأ تسرب الفوضى الى لغتنا .

المنفذ الثاني: لقد شملت حركة التدوين أقطار (العجاز واليمن والشام والعراق) وتمت على أيدي عشرات العلماء من متفرغين وغير متفرغين لهذه المهام نقلاً عن أفواه آلاف (الأجلاف) من الفصحاء طوال قرن كامل من الزمن في رحلات متلاحقة الى البوادي .

و فالكسائي مثلاً يمضي الى أهل البوادي ومعه (٢٥) قنينة حبر، وظل يكتب ما سمعه من أفواههم حتى نفذ ما عنده . (رصف المباني في شرح حروف المساني) (١٢) للامام أحمد بن أحمد عبد النور المالقي ص (٥٦) .

وقد نتج عن ذلك أن يكون للكلمة الواحدة ومشتقاتها المزيد من المعاني والاستعمالات. فكان لفعل (حَفَّ) ومشتقاته في المعجم الوسيط (٤٩) معنى واستعمالاً ، بعضها يتعارض مع بعضها الآخر مما لم نجد له مسواً من خصائص حراني (الحاء والقام) ومعانيهما . وكان لكل من (لا - ما) في (مغني اللبيب للانصاري) (١٣) أكثر من (٥٠) معنى واستعمالاً .

كما نتج من ذلك أن يكون للمعنى الواحد المزيد من الكلمات . فكان للأسد (٤٧٠) اسماً وصفة وجاماً في (البلغة (١٠) ص ٣١٧) أنها بلغت (٦٠٠) وكان للدهمية (٣٥٤) ، ولل سيف (٢٣٠) وهكذا الأمر مع كثير من التسميات وحروف المعاني . (قاموس أحياء الألفاظ (١٥) لأسامة الطيبي) .

ولئن كان التدوين سماعاً من أفواه (الأجلاف) الفصحاء قد حفظ للغة العربية فطرتها، إلا أن هذه الفطرة قد جاءت مبمثلة على مساحات واسعة من الكلمات والمعاني الحسية لا بل ومتوارية أيضاً خلف ستار من التشابيه والكنائيات والتوريثات والمعاني المجردة . كما كان للتصنيف البصري (الكتابي) والسيمي دورهما أيضاً في هذه الفوضى .

ومن هنا جاءت العقبة الثانية في طريق العلماء إلى أصالة الحرف العربي وحدائته .

فلما كانوا اعتبروا الكلمة العربية هي الأصل والحرف العربي هو الفرع ، وحاولوا استخلاص معانيه بالرجوع إلى معاني الكلمات التي يقسح في أولها أو آخرها ، كما أسلفنا في (العقبة الأولى) .

فلقد كان من المعال عليهم أن يستخلصوا منها معانيه الفطرية جميعاً .

فأي الكلمات هي الجذر الأصل ، وأي معانيها هو الفطري ، وأي استعمالاتها هو الصحيح ، مما يجوز اعتماده في استخلاص المعنى الفطري للحرف العربي بحثاً عن أصلته ؟ وإنما لمن أعوص المشاكل .

فعلى الرغم من أن علماء العربية وأساتذتها قد لاحظوا العلاقة الفطرية بين معاني الكلمة العربية وبين الخصائص الصوتية لأحرفها منذ عصر التدوين ، إلا أن أحداً منهم لم يتم حتى الآن باعتماد خصائص الحرف العربي للتثبت من معانيه الفطرية بالرجوع إلى معاني الكلمات التي يتصدرها إلا مصادفة أو في أضيق الحدود .

فحتى (الارسوزي) الذي قال بأن (معنى الحرف العربي هو صدى صوته في النفس) ، وأسند إلى (الباء) معاني (البيان والانبثاق والظهور) ، وهي صحيحة ، لتوافقها مع خاصية الانفجار في صوتها ، إلا أنه لم يربط بين هذه المعاني وبين هذه الخاصية ، وثمة (٤٧) مصدراً جذراً تبدأ بالباء لهذه المعاني . ولو أنه ربط بينهما لكان بحثاً أيضاً عما توحيه في النفس خاصية الانفجار في صوتها من معاني (الحفر والبقر والشق والبعج) . إلى (٥٠) مصدراً جذراً آخر لهذه المعاني أيضاً ولكنه لم يفعل ، لأنه لم يعتمد خاصية الانفجار في صوتها بمرض البحث عن معانيها جميعاً .

فكيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لئن كان النهج الذي اتبعه علماء اللغة في عصر التدوين قد أربك المثقف العربي طوال ما بعده من العصور حتى يومنا هذا . وذلك بما ورثنا عنه من كثرة كثيرة في الكلمات للمعنى الواحد ، ومن كثرة كثيرة في المعاني للكلمة الواحدة ومشتقاتها، إلا أن هذا النهج المبقر

الصحيح قد حفظ للغة العربية أصالتها وفطرتها من الضياع على مدى التاريخ . كما حفظ أيضاً للشخصية العربية مقوماتها الأصيلة على مدى الثقافات الغازية وتقلبات العصور .

ولكن هذه (الفطرة والأصالة) في اللغة العربية قد أطلق عليها أحد المفكرين العرب المعاصرين مصطلح (لا تاريخية) اللغة العربية، كماخذ ادانة بحقها ، وليس كميزة من فضيلة وامتياز .

فالدكتور (محمد عابد الجابري) من المغرب الشقيق ، ينمي على اللغة العربية وعلى العقل العربي في كتابه (تكوين العقل العربي)، هذه الأصالة والفطرة . فيقول بالحرف الواحد:

« ... ان (لا تاريخية) اللغة العربية مثلها مثل طبيعتها الحسية ، ليست فضيلة فيها ولا مكمناً لفلسفة موهومة خاصة بها وبأهلها يجب استخراجها وإبراز أصالتها .. كلا ان (لا تاريخية) اللغة العربية وطبيعتها الحسية ممطى واقعي تاريخي يجب أن ننظر اليه بعين النقد ، وليس بعين الرضى والمدح ، ان العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية ، أو على الأقل جمعت فيه .. (عالم حسي لا تاريخي) عالم البدو من العرب الذين كانوا يمشون زمناً مستعداً كامتداد الصحراء . زمن التكرار والرتابة ، ومكاناً ، بل فضاء (طبيعياً وحضارياً وعقلياً) فارها مادناً : (كل شيء فيه صورة حسية - بصرية - سمعية) . هذا العالم هو كل ما تنقله اللغة العربية الى أصحابها ، اليوم وقبل اليوم ، ويظل هو هو ما دامت هذه اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين واليوده(١٦)(ص ٨٦ - ٨٧) »

ولنسمه يقول أيضاً :

« ان الاعرابي هو فعلاً صانع (العالم العربي) ، العالم الذي يعيشه العربي على مستوى الكلمة والعبارة والتصور والخيال . بل على مستوى العقل والقيم والوجدان . ان هذا العالم فقير ضحل جافى - حسي - طبيعي لا تاريخي ، يعكس ما قبل تاريخ العرب - العصر الجاهلي ، عصر ما قبل الفتح وتأسيس الدولة (المرجع السابق(١٧) ص ٨٨) »

ان تحامل (الجابري) على أصالة اللغة العربية وفطرتها ، وما استتبع ذلك من تحامله على العقلية العربية والشخصية العربية ، يمدود الى بقائه فوق سطح اللغة العربية (الحسي) ، لم ينفذ بوجدانه قيد أنملة واحدة الى أعماق باطنها (الفني الاخلاقي الضمري) أقوم مقومات (الشخصية العربية) . فكان من طبيعة الأمور أن لا يجد في العالم الذي نشأت فيه اللغة العربية الا فضاء (طبيعياً وحضارياً وعقلياً) فارها مادناً كما زعم .. فمن يتعامل مع اللغة العربية بمقله صرفاً بلا وجدان يستشف به ، لا يمكن أن يجد فيها سوى الفراغ (اللاتاريخي) مهما يبلغ من المعارف والعلوم العقلية .

وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب (الجابري) في قسم من أقواله عن عالم البدو ولفتهم : كل شيء فيه صورة (حسية - بصرية - سمعية) .

فهذه الشهادة على صحة خصائص اللغة العربية (الحسية - البصرية - السمعية) من ناقده متحامل وان شابت عن ذهنه خصائصها (الفنية - الاخلاقية) ، تثبت أصالة اللغة

العربية وفطرتها وابدائها وابدائها . واذن فلا هي هجينة لفات كما يزعم بعض المفرضين ، ولا كلماتها مصطلحات على معان كسا يرى بعض الابرياء غير الضليمن في خصائص اللفظة العربية .

فهذه الخصائص (الحسية - البصرية - السمية) في اللفظة العربية هي التي أعانتني على تجاوز هذه العقبة من ظاهرة الفوضى في التدوين بكثير من الثقة والاطمئنان ، وان تعددت وتنوعت مزالقتها ومخاطرها فكيف كان ذلك ؟

اذا كانت معاني الكلمة العربية محصورة فعلا في نطاق (الحسي - السمي - البصري) كما لاحظ (الجاهري) وغيره ، فان هذه المعاني تكون بالضرورة محصلة الخصائص (الحسية - البصرية - السمية) لأصوات أحرفها . مع التذكير بأن لبعض الحروف العربية خصائص شمورية أخرى لم يفتن (الجاهري) لها كما في أحرف (العام - العين - الهاء - الخاء) .

واذن لا بد لنا بمرور البحث عن المعاني الأصلية للعرف العربي أن نبحث عن المعاني التي تتوافق مع خصائصه الفطرية في المصادر التي يشارك في تراكيبها .

وهكذا لا نأبه لكثرة مشتقات الكلمة ، ولا لكثرة معانيها (الحسية والبصرية والسمية) والشمورية أيضاً ما دمتا نمتد خصائص العرف العربي دليلاً يهديننا الى الكشف عن المعاني التي تتوافق مع هذه الخصائص في المصادر الجذور التي يشارك في تراكيبها ، لتكون بذلك هي من معانيه .

نشة فرق كبير في اليسر والدقة ، بين أن نبحث عن معنى العرف الذي يتصدر كلمة معينة في غابة ممتدة من معانيها ومعاني مشتقاتها ، وبين أن نتخذ من خصائص هذا العرف قبساً ينير لنا طريقتنا في تلك (الغاية) الى المعاني الفطرية التي تتوافق مع هذه الخصائص .

واقدر يتساءل البعض :

واذن ما هو موقفنا من أي مصدر جذر أو مشتق منه لا تتوافق معانيه مع خصائص العرف الذي يتصدره ؟ فهل نعتبره دخيلاً أو معرباً ، أم ماذا ؟ فأجيب :

ان المعنى الفطري للكلمة العربية هو بالضرورة محصلة خصائص أحرفها ومعانيها + . فلكل حرف عربي من المعاني بمصدر ما له من الخصائص . ولكن هذه الخصائص تتغير أيضاً بحسب موقع الحرف من الكلمة في أولها أو آخرها أو وسطها ، كما أسلفنا .

ففي المصادر التي تبدأ بحرف (النون) مثلاً ، عثرت على (١٦٥) مصدراً جذراً لمعاني الانبثاق والنفاد في الأشياء ، وعلى مصدرين (اثنتين) فقط للاستكانة والاستقرار هما : (نام ، أناخ) أما المصادر التي تنتهي ب (النون) فقد عثرت على (٣٤) الاستكانة والاستقرار . ولم أعثر الا على اثنتين للانبثاق هما (دن - عن) وواحد للنفاد في الأشياء هو (طعن) .

وهكذا لا يجوز أن نقول أن من معاني (النون) في بداية المصادر (الاستكانة والاستقرار) ولا من معانيها في نهاية المصادر (الانبثاق والنفاد) .

وفوق ذلك ، فإن ثمة زحاما حقيقيا بين خصائص الحروف العربية على معاني كل كلمة . فتارة تتغلب خصائص الحرف الأول كما (الباء) للعفر في أول المصادر من (بمعج) . وتارة تتغلب خصائص الحرف الأخير منها كما (النون) للاستكانة والاستقرار في آخر المصادر من (سكن) . وكما (الصاد) في الوسط من (عصر) للصلابة والفعالية . ولكن قلنا تتغلب خصائص الحرف الوسط ، وهذا بخلاف ما زعم (محمد عنبر) من أن الغلبة هي دائما للحرف الأخير ، كما جاء في كتابه (مع نقدة جدلية الحرف العربي (١٨) ص ٧) . وهو مطبوع على الآلة الكاتبة محفوظ في مكتبة الأسد .

وإذن ، عندما تنعدم الروابط بين معنى الكلمة العربية أو مشتقاتها ، وبين خصائص أحرفها نكون أمام واحد من الممكنات الثلاثة :

١ - أما أن تكون الكلمة دخيلة غير عربية الأصل .

٢ - وأما أن يكون معناها مصطلحا عليه غير قطري .

٣ - وأما أن تكون قد تعرضت أثناء التدوين إلى تصحيف بصري أو سمي .

وهكذا تسنح الفرص العظيمة لعلماء اللغة وأسأتذتها المعاصرين والأتين لتخليص لفهم من المفوض التي لحقت بها في عصر التدوين وما بعده ، وذلك باتباع ما يلي :

١ - أن يهملوا ما استطاعوا تداول أي كلمة وأي مشتق لها لا تتوافق معاني كل منهما مع خصائص أحرفه فيستميضوا عنهما بالكلمة البديل المناسبة .

ب - أن يهملوا تداول أي معنى لكل كلمة لا يتوافق مع خصائص أحرفها .

ج - أن يقوموا بتصحيح التصحيف البصري والسمعي في أي كلمة لا تتوافق معانيها مع خصائص أحرفها وذلك بالاستماضة عن الحرف المصحف بالحرف النظير له كتابة بدون تنقيط أو صوتا ، إذا توافقت خصائصه مع معنى الكلمة التي أصابها التصحيف .

فما أكثر ما شكا علماء العربية من هذين النوعين من التصحيف كما قيل في كلمة (جرش) لصوت الطير ومعناها الأصلي قشر ، فهي مصحفة عن أصلها (جرس) . وذلك لأن (السين) للنفث والانتشار تناسب القشر ، ولأن (السين) الصغرية تناسب صوت الطير . (مولد اللغة للعالمى (١٩) ص ٩٢-٩٦ ونشوء اللغة العربية (٢٠) للكرملى ص ٢٣) .

د - أن يمسد أصحاب المعاجم تصنيف مشتقات المصادر الجذور ومعانيها ، فيضموها في المقدمة ما هو حسي منهما ، لانه هو الأصل ، ثم المعنوي المجرد المتفرع من الحسي . وأما ما بقي من المشتقات التي لا تتوافق معانيها الحسية والمعنوية مع خصائص حروفها فتوضع في آخر الشروح . ولا يحذفونها حرصا على تراثنا اللغوي ، ولاحتتمال الافادة منها في الدراسات اللغوية المقارنة وغير ذلك . . . فعدم تقيد المعاجم ، ولا سيما القديم منها بهذا النهج

في ترتيب معاني المصادر قد ساهم في حجب الخصائص الفطرية للحروف العربية عن أذهان وأنظار علماء العربية وأساتذتها .

فباستعراض معاني مادة (فار) في (لسان العرب لابن منظور) مثلاً ، نجده قد بدأ الشرح بقوله :

« الفار معروف ، وجمه فئران وفئرة والأنثى فارة ، وقيل الفار للذكر والأنثى . وبعد أن يستعرض بضعة عشر استعمالاً للفار ينتهي الى القول : « فار الرجل حَفَرًا حَفْرًا الفار . وقيل فار بمعنى ، حفر ودفن) .

وهكذا قد جعل معنى الحفر متفرعاً من (الفارة) بينما المكس هو الصحيح . فمن معاني (الفام) الشق والحفر .

كما جاء فيه أيضاً حول مادة (فقر) . « الفَقر والقُفر بفتح الفاء وكسرهما ، ضد الفنى . وبعد أن يستعرض استعمالات مادة (فقر) لمعاني (ضد الفنى) ولمعاني الفقرة (من العمود الفقري) ، في ١٢ عموداً من المعجم يخلص الى : « لقر الأرض - حفرها » . وهذا هو المعنى الحسي الأصل لها .

فكيف يحسنى للباحث أن يلاحظ مع هذه الفوضى في تصنيف المشتقات والمعاني خاصة الحفر والقطع في (الفام) وان كان ثمة (٥٨) مصدراً تبدأ بها لهذه المعاني .

ولكن أن يلتزم أصحاب المعاجم بهذا التصنيف المقترح : (الحسي أولاً ثم المعنوي المجرد) . فتلك مهمة ولا أشق ، ولعلني من أخير الناس بها ، ان لم أكن أخيرهم .

فمن (٢٩٣١) مصدراً جذراً ومشتقاً تبدأ بحرف (النون) مثلاً ومن آلاف المعاني ، قد وقع اختياري على (٣٨٦) ، واعتمدت لكل منها معنى أصلاً واحداً حسياً أو معنوياً ، وقليلاً ما اعتمدت معنيين اثنين . وقد اتبعت هذا النهج في تفصيلاتي عن معاني باقي الحروف في المصادر التي تشارك في تراكيبها . مع الإشارة الى أنني اعتمدت أحياناً قليلة بعض المشتقات كمصادر .

فمن (٤٩) مشتقاً ومعنى للمصدر الجذر (حف-) مثلاً ، اخترت (الحفيف) ومعناه صوت مرور الريح في الشجر وهو مشتق . وذلك لأن هذا المعنى هو الأكثر توافقاً مع خاصية الحفيف في صوتي (العام والعام) - كما اخترت أيضاً معنى ثانياً له هو (حف-) الشيء حفاً، استدار حوله وأحدق به وذلك لأنه الأكثر توافقاً مع إحدى خصائص (العام) في الاحاطة والاحتواء ، كما في (حاط - حوى - حبس - حضن - حصر - حظر - حام - حدق - حمى - حفل - حجر - حاز - حرز - حاق - حجز) . الى (٥٣) مصدراً جذراً لهذه المعاني .

مع الإشارة الى أنه كان ثمة معان أخرى لهذا المصدر الجذر ومشتقاته تتوافق أيضاً مع الخصائص الصوتية لحرلي (العام والعام) في (حف-) ، ومع معاني الاحتواء والاحاطة في (العام) . ولكن من المستغرب أن يكون من معاني مشتقاته : « اليباس - الغشونة - تشمت الشمر - القشر - التزيين - ضائقة العيش - النسج - الذم) . الى كثير غير ذلك

مما لا يتوافق مع خصائص حرلي (العام والغام) كان يجب تصنيفها في آخر المسماني وليس في أوائلها وأواسطها كما جاء في المعجم الوسيط .

واعتقد أن اتفاق ثلاثة أعوام ونيف لترويض هذه العقبة من فوضى التدوين لم يكن لنا باعظا .

العقبة الثالثة : حول ضبابية نشأة اللغة العربية :

لم يستطع أي من علماء اللغة وسواهم من العلماء أن يكشف عن أصول النشأة البكر لأي لغة أو لهجة في : (التاريخ والطبيعة) .

يقول العلامة (توفار) : « يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد أن أنعمنا النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل » . وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية التي أن تقرر في أول نظام لها عام (١٨٦٦) عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة . ولم يرفع هذا الحرمان وإن تم خرقه فعلا (تاريخ علم اللغة (٢١) لهورج موني من ص ١٦-١٧) . وقد نعت الألسنية الحديثة هذا المنحى ، فقالت بعدم جدوى البحث عن نشأة اللغات ، وعدم وجود علاقة بين معنى الكلمة وأصوات حروفها ، فهي مجرد مصطلح على معنى .

ولم يشد علماء العربية عن هذا المعجز بصدد نشأة العربية وإن قالوا بفطريتها . فمضى بدأت أصولها البكر ٩. وفي أي بيئة طبيعية وإنسانية ترعرعت مرحلة حياة بعد مرحلة ٩. ثم كيف استوفت شروط نضجها ٩.

لقد تصدى الكثير من علماء العربية ودكاترتها لواحدة أو أكثر من هذه المسائل الثلاث ولكن بلا نتائج مرضية .

ولو أن واحدا منهم استطاع أن يجيب بدقة ، على هذه التساؤلات الثلاثة في تقصياته إذن لكان اهتدى إلى أصالة الحرف العربي في خصائصه الفطرية : (الهيكلية والايماثية والايحائية) ، وذلك لتعميل طبيعة التواصل اللغوي في المراحل (الغائية والزراعية والرعوية) التي مر بها أبناء الجزيرة العربية عبر التاريخ ، بما يتوافق مع مستوياتهم (المعيشية والاجتماعية والثقافية) ، وبما يلبي حاجاتهم مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة .

ولكن قبلما علماء العربية كانوا يعتقدون جميعا إلى علوم (التاريخ والجغرافيا والآثار والجيولوجيا والاجتماع) التي لا بد من الاستعانة بها للرجوع بالإنسان العربي وحروفه إلى ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية . فيهيطنون معهما من هنالك مرحلة حياة بعد مرحلة التي ن استوفيا مقوماتهما (الشخصية) بطولة وشعرا في الجاهلية ، وقبما مثلى وفصاحة وبلاغة في القرآن الكريم .

أما علماء العربية ودكاترتها المحدثون ، وإن حظي عصرهم الراهن بهذه العلوم جميعا وما إليها من علوم (الطبيعة والفلك والنفس والبيولوجيا والأصوات والتشريح ووظائف

الأعضاء) وفي رعاية الحاسبات الالكترونية ، مما يتصل بعلم اللغة ، فانهم لم يستثمروا الا القليل من قليلها في تقصياتهم عن نشأة العربية وأصالة حروفها ، فجانبهم التوفيق . وما أبرئ دراستي من التقصير . فالبحث عن (أصالة الحرف العربي وحدائمه) ، انما هي مهمة فريق متكامل من شتى الاختصاصات العلمية والثقافية طوال أعوام عديدة ان لم أقل عشرات الأعوام ، وليست مهمة باحث بمفرده مهما يطلن العمر به .

وبالمقابل لو ان علماء العربية المحدثين ودكاترتها تعاملوا مع الحرف العربي على أنه هو اصل الكلمة لا فرع منها ، فاعتمدوا خصائصه في تحديد معانيها، اذن لكانوا اهتموا الى فئات الحروف ذات الخصائص (الهيجائية والايماثية والايحائية) . ولكانوا صنعوا قسراً عنهم الى ما قبل التاريخ للكشف عن المراحل الحياتية التي تم فيها ابداع كل فئة منها بما يتناسب مع مستوياتها (المعيشية والاجتماعية والثقافية . . .) كما أسلفت .

وعلى الرغم من هذا التطابق المدهش بين خصائص الحروف العربية (الهيجائية والايماثية والايحائية) وبين الراحل؛ (الغايية والزراعية والرعوية) التي مر بها الانسان العربي في جزيرته : تخلفاً لتخلف ، ورفقاً لرفق ، فاننا نرى لدى (العلايلي) رأياً مخالفاً الى حد ما . فهو يقول : « . . . ومن ثم كان سن الخطأ أن تفسر اللغة بتاريخ العرب ، وانما تكون أكثر قصداً اذا فسرنا تاريخ العرب باللغة وستكشف الأيام عن هذا غير يسير » . (اللقيدة اللغوية (٢٢) ص ١٦٤) .

وقد صدقت نبوءته . فما نحن نرى كيف تم تفسير (تاريخ) العرب باللغة ، بكثير من الموضوعية كما قرر (العلايلي) ، ولكن قد تم تفسير اللغة بتاريخ العرب أيضاً خلافاً لما زعم .

لما حصيلة علماء العربية ودكاترتها من تلك المحاولات ؟

بعد تجوالي في ربوع عشرات المراجع اللغوية التي عالجت مسألة نشأة العربية ، برصانة وجدية حيناً قليلاً ، فدرستها ومحصتها برصانة وجدية أيضاً ، وبسطحية ومزاجية أحياناً كثيرة ، فتصفحها على هجول .

بعد تجوالي ذلك ، يحزنني أن أقول ان أيها منهم لم يتوصل الى شيء علمي موثوق بصدها .

فلئن عادوا جميعاً بالعربية الى ما قبل التاريخ ، الا أن أيها منهم لم يعرج على المراحل الحياتية التي عاشتها في الجزيرة العربية ، فغابت عنهم بذلك خصائص حروفها الثلاث ، وعز عليهم بصورة عامة تحديد معاني الكلمات بدقة حتى التي اختاروها هم أنفسهم في الأمثلة التي ضربوها .

كما أن أيها منهم لم يحاول إعادة معاني واستعمالات أي من (حروف المعاني والضمائر وأسماء الاشارة والكناية وما اليها) الى خصائص الحروف التي تشارك في تراكيبها . ما شذء عنهم سوى (عبدالحق فاضل) مع ضمائر العربية في كتابه (مغامرات لغوية (٢٣) فأصاب قليلاً وجانبه التوفيق كثيراً . (ص ٢٤٧-٢٦٥) .

ولما كان عرض آراء من تصدى لنشأة العربية من قداماهم ومحدثيم ، بكثير من الموضوعية والانصاف ، وعلى شيء ما من العمق والشمول ، سيقترضني العديد من الصفحات ، ان لم أقل العشرات مما لا متسع له في هذا المقال ، فاني سأرجى الحديث عنها الى مقال لاحق اذا ما اتسع له صدر مجلتنا التراثية الموقرة . وقد اخترت لمشروع هذا المقال مسبقاً عنوان « الحرف العربي على موائد علماء العربية » ، وربما يصبح عنوان كتيب مستقل .

والثنى لم يتسع المجال للحديث عن (ضبابية نشأة العربية) لدى علمائها ، فانه لا يد من الحديث هنا عن كيفية تجاوزي هذه العقبة الأخيرة استكمالاً للحديث عن تجاوزي العقبتين السابقتين . وذلك كيما أروي للقارئ قصة اهتمامي الى خصائص الحروف العربية وفاء للوعد الذي قطعته له .

كيف تجاوزت هذه العقبة ؟

لئن كانت تبعية الحرف العربي للكلمة العربية ، هي أصل العقبات جميعاً الى أصالة الحرف العربي وحداثته ، الا أن (ضبابية نشأة العربية) كانت الأعصى على الترويض .

فما قصتي مع هذه العقبة الحروف ؟

لقد عرضت في (العقبة الأولى) أنني اعتبرت الحرف العربي هو الأصل والكلمة العربية هي الفرع . وانطلاقاً من هذا المبدأ ، قد اعتمدت الخصائص الصوتية لكل حرف عربي في البحث عن مدى تأثيرها في معاني المصادر الجذور التي تشارك في تراكيبها . فيكون من معانيه ما يتوافق بين خصائصه الصوتية مع معاني تلك المصادر بنسب مئوية مقبولة ، كما أسلفت بشيء من التفصيل في (الفين) .

والكن بعد أن أمضيت قرابة السنتين في استخراج معاني الحروف العربية باعتماد خصائصها الصوتية لحسب ، ولدى مراجعتها في إحدى المرات ، لفت انتباهي أن خصائص الرقة والضعف والوهن في صوت (الفاء) كما يقول عنها (ابن جني) في خصائصه ، لم يؤثر الا في (٢١) مصدراً جذراً تبدأ بها من أصل (٢٢١) ، بما نسبته أقل من (١٠٪) . فتساملت :

لماذا شذء هذا الحرف عن غيره من الحروف العربية ، وقد راوحت نسب تأثير خصائصها الصوتية في معاني المصادر التي تقع في أولها وآخرها بين (٥٠-٩٠) في المئة ، باستثناء قلة من الحروف كما أسلفت ؟

وبهاذا تدقيق المعاني الحسية الأصل لهذه المصادر جميعاً ، لاحظت أن ثمة (٥٨) منها لمعاني (الشق والفصل والحفر) ، يتطلب أحداثها من القوة والشدة ما يتعارض مع صدى صوت (الفاء) الواهي في النفس .

كما عثرت أيضاً على (٤٨) مصدراً لمعاني (الانفراج والتباعد والتوسع) ، وعلى (١٤) لمعاني (البعثرة والتشتت والانتشار) منا لا يتوافق أيضاً مع صدى صوت (الفاء) في النفس .

وبعد تكرار النطق بصوت (الفاء) مفخماً ، وتأمل طريقة النطق به على فترات متقطعة من الأيام وربما الأسابيع (لم أعدد أذكر) ، تبين لي أخيراً أن هذه المعاني تتوافق مع الحركات (الايمائية التمثيلية) التي ترافق مراحل إصدار صوتها ، مما لا علاقة له بصداه في النفس . وكانت مفاجأة مذهلة .

فالنطق بصوت (الفاء) مشبهاً مفخماً ، كما كان يلفظ في المراحل اللغوية المبكر ، يتم على ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى :

تبدأ بضرب الأسنان العليا خفيفاً على الشفة السفلى حسباً للنفس ، مما يضاهي ضربة بمظم حيواني أبيض على أرض طرية . فكان لهذه المرحلة (٥٨) مصدراً لمعاني (المفر والشق والفصل والقطع) كما في : (فأس - فإى - فار - فقر - فلع - فثغ - فدغ - فلق - فرخ - فطم - فلع ٠٠) .

المرحلة الثانية :

تبدأ بانفراج الأسنان العليا ، وانفتاح الفم واسعاً ، مما يضاهي الأحداث التي يتم فيها : (الانفراج والتوسع والتباعد) . فكان لهذه المرحلة (٤٨) مصدراً ، كما في « فتح - فسح - فجا - فلك - فسق - فرشخ - فق - فقص - فرغ - ففر - الفم ٠٠٠ » .

المرحلة الثالثة :

تنتهي بصدور صوتها مع النفس المبشر خارج الفم ، مما يضاهي الأحداث التي تتم فيها (المبشرة والتشتت والانتشار) ، كما في : « فرش - فشغ - فشل لحيته - فشى - فاح - فاع - فاج ٠٠ » الى (١٤) مصدراً .

وما أكثر ما اضطرت الى التنويه بهذا الاكتشاف المدهش في متن الدراسة .

وهكذا ، لما كانت نسبة المصادر التي تأثرت معانيها بخصوصائص حرف (الفاء) في الضعف والوهن أقل من (١٠٪) ، وكان تأثير طريقة النطق بصوتها ايماءً وتمثيلاً قد بلغ (٥٤٪) ، فقد أطلقت على هذا الحرف مصطلح (الايمائي - التمثيلي) .

وباعادة دراسة الحروف العربية جميعاً للكشف عن خصائصها الأخرى غير (الصوتية) ، تبين لي أن ثمة أحرفاً أخرى غير (الفاء) قد استمدت معظم معانيها من طريقة النطق بأصواتها (ايماءً وتمثيلاً) هي : (الميم واللام والشام والذال) . وأن بعضها الآخر قد استمد نسبة قليلة من معانيه من طريقة النطق بصوته مثل (الباء) . فكان ثمة ٣٩ / مصدراً (للاتساع والامتلاء والعلو) وفقاً لانفتاح الفم واسما عند خروج صوتها المفخم .

كما تبين لي أيضاً أن ثمة أحرفاً أخرى تستمد معانيها (الصرفية - النحوية) ، وليس (المعجمية) من خصائص أصواتها (الهيجائية) ، وهي (الهمزة والألف اللينة والواو والياء) كما أسلفته .

ولقد تراءى لي أن الأحرف (المهيجانية) أنفة الذكر ، هي من مستحاثاتنا اللغوية التي ورثناها عن مرحلة لغوية مفرقة في القدم ، كان الانسان العربي خلالها كغيره ممن ينتمون الى المراحل الغابية المبكر يعتمد الاصوات المهيجانية والحركات الجسمية (اللاارادية) . وهذا يثبت صحة (النظرية الفريزية) في نشأة اللغات التي رفضها الدكتور (واي) لأن القائلين بها لم يحفظوا بمثل هذه الشواهد من مستحاثاتنا اللغوية الفطرية (علم اللغة (٢٤) ص ١٠٠ - ١٠٢) . فنحن لا نزال حتى الآن نوظف الخصائص (المهيجانية) لهذه الأحرف للتعبير عن بعض المعاني التي كان يتداولها الانسان العربي الفجر في المرحلة الغابية . وذلك كما في (المهزمة) التي كان يفيد من خاصية الانفجار في صوتها للفت الانتباه الى خطر ما أو منفعة أو التعبير عن حالة نفسية ، فأصبح يفيد من خاصية الانفجار هذه بلفت انتباه السامع (للنداء والاستفهام) ، وغير ذلك من المعاني في (حروف المعاني والضمائر وأسماء الإشارة ..)

لقد أطلقت مصطلح (المهيجاني) على (المهزمة) لطابع الانفجاري في صوتها . كما أطلقت على أحرف (ا-و-ي) للطابع الفوخائي في أصواتها . ولهذا السبب أطلق علماء اللغة عليها مصطلح (الصائتة) تارة و (الجوفية) تارة أخرى . وذلك لقلّة تدخل جهاز النطق في اصدار أصواتها ، مما يثبت انتماءها الى المرحلة اللغوية الفريزية الغابية .

كما أن الأحرف (الايماثية التمثيلية) هي أيضا من مستحاثاتنا اللغوية قد ورثناها عن مرحلة حياتية أقل شورا في التاريخ وأكثر تطورا من مرحلة الأحرف (المهيجانية) الغابية . كان أبناء الجزيرة العربية خلال هذه المرحلة يعتمدون في تواصلهم اللغوي بصورة (ارادية) حركات جهاز النطق : (شفة - لسان - فم - فك علوي - فك سفلي - رأس) وما إليها من الحركات الجسمية الارادية الأخرى مترافقة بالضرورة مع الأصوات المساعدة . وبتقصياتي الأثرية والتاريخية الجيولوجية والدينية والاجتماعية ، قدرت أن هذه المرحلة تتوافق مع الحياة الزراعية التي تزعمتها المرأة العربية في الجزيرة العربية بعد الألف (١٢) ق.م . فتبعدها الرجل ربة للخصب تارة وربة للزراعة والجمال تارات أخرى ، ثم انتقلت عبادتها مع الموجات البشرية التي طردها جفاف ما بعد انصر الجليدي الأخير من الجزيرة العربية منذ الألف (٩) ق.م الى المناطق الزراعية المجاورة الف عام بعد ألف . فكان لهذه العبادة طقوسها في الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية والفرعونية ، ثم اليونانية وما إليها . وذلك ارثا أنثويا عن المرحلة الزراعية العربية .

أما ما تبقى من الحروف العربية التي تستمد معظم معانيها من خصائصها الصوتية فقد أطلقت عليها مصطلح الحروف (الايحائية) . وهذه الحروف تنتمي الى أرقى مراحل تطور اللغة العربية التي تتوافق مع طبيعة الحياة الرعوية في الجزيرة العربية التي بدأت تقديراً أيضا منذ الألف (٩) ق.م . ففي هذه المرحلة اعتمد العربي الراعي الخصائص الصوتية للحروف العربية صرفا بلا حركات جسمية الا ما يقتضيه النطق بها ، وذلك لعدم جدواها عبر المسافات الطويلة وهو يرمى القطيع نهارا ، ولا عبر الظلام وهو يحرسه ليلا .

وقد استعاد الرجل المحارب مالك القطيع من المراه زعامة المجتمع . فكان لألوهيته المقام الأول في الأساطير الأنفة الذكر ، اراثا ذكوريا عن المرحلة الرعوية ، وكان للمرأة فيها المقام الثاني .

وهكذا ، بانطلاقي من خصائص الحرف العربي الاصل ، بمرض البحث عن معانيه الفطرية في الكلمة العربية (الفرع) ، قد اضطررت الى الصعود مع اللغة العربية ، قسرا هني ، الى ما قبل التاريخ ، في رحلة طويلة وشاقة لا تغلو من المخاطر، للكشف عن خصائص ومعاني الحروف العربية (الهيجائية والايمائية والايحائية) على واقع المعاجم اللغوية دامت ثلاثة أعوام ونيف .

ولكن أين نشأت اللغة العربية وكيف تطورت عبر (التاريخ والطبيعة والمجتمع والنفس) ، حتى استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقران الكريم ؟.

فكان لا بد لي من الهبوط ما قبل التاريخ مع الانسان العربي واللغة العربية ، مرحلة حياة بمد مرحلة حتى الاسلام فاقضاني ذلك جهود قبضة ونصف من الأعوام .

ولقد تبين لي من الدراسة الأصل : « الحرف العربي والشخصية العربية » أن الحرف العربي هو أعرق الجذور الثقافية في بنية شخصية الانسان العربي وأناقها أصالة وأحوالها لقيمه الجمالية والانسانية وأوعاها الأحكامه العقلية وأحفظها لتقاليد الاجتماعيه المصيعة وأكشفها بالتالي عن سمات : « الشخصية العربية » . فكان الحرف العربي بخصائصه (الهيجائية والايمائية والايحائية) هو (تاريخ) العربي .

□ وختاماً :

لمل القارئ الكريم قد انتبه الى بعض ما عانيته من المشقة في هذا المقال عن (أصالة الحرف العربي وحدثته) . ولقد كان بحكم تشعب جوانبه وتنوع مسائله كثير المخاطر والمزالق .

وانه ليسعدني ، لا بل ، و (التمس) من ذوي الاختصاص أن يتفضلوا مشكورين بتصويب وتصحيح أي خطأ يمترون عليه في هذا المقال . وذلك ليس خدمة جلتي لي فحسب (وقد استعقتها) ، وإنما قبل ذلك ، خدمة للعربية . فحسانتها وحمايتها ورعايتها ، إنما هي مسؤولية ذوي الفيرة والاختصاص من أبنائها ، وليست مسؤولية واحد متمس بمغامر بمفرده .

« وفوق كل ذي علم عليم » .

★ ★ ★

□ المراجع :

- ١ - جدلية العرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة محمد منير ط ١ - ١٩٨٧ .
- ٢ - المجلد الأول من المؤلفات الكاملة - لزمكي الأرسوزي ط ٢ - ١٩٨٧ .
- ٣ - تهذيب المقدمة اللغوية - عبد الله العلايلي - تحقيق د. أسعد علي ط - ١٩٦٨ .
- ٤ - الخصائص - أبو فتح عثمان بن جني ط ٢ ط ٢ القاهرة - ١٩٥٥ .
- ٥ - المجلد الأول للأرسوزي .
- ٦ - الخصائص - لابن جني .
- ٧ - البلغة في أصول اللغة - محمد صديق حسن خان - تحقيق محمد أنور مكتبي بيروت - ١٩٨٨ .
- ٨ - البلغة .
- ٩ - تكوين العقل العربي د. أحمد حامد الجابري ط ١ - ١٩٨٤ .
- ١٠ - تكوين العقل العربي .
- ١١ - تكوين العقل العربي .
- ١٢ - وصف المباني في شرح حروف المعاني - أحمد عبد الثور المالح - تحقيق أحمد الغراط دمشق - ١٩٨٥ .
- ١٣ - مفتي النقيب عن كتب الأعراب د. عبدالله بن هشام الأنصاري - القاهرة .
- ١٤ - البلغة .
- ١٥ - قاموس أحياء الألفاظ - أسامة الطيبي ج ١ - ١٩٩٧ .
- ١٦ - تكوين العقل العربي - للجابري .
- ١٧ - تكوين العقل العربي - للجابري .
- ١٨ - مع نقدة جدلية العرف العربي - محمد منير - طباعة على الآلة الكاتبة ١٩٨٩ .
- ١٩ - مولد اللغة أحمد رضى المعالي - تعليق نزار رضى - بيروت - ١٩٦٨ .
- ٢٠ - تاريخ علم اللغة - جورج مونين ، ترجمة بدر الدين قاسم ط - ١٩٨١ .
- ٢١ - نشوء اللغة العربية واكتمالها - اکتھالها - استئناس ماري كرملي ط ١ - القاهرة - ١٨٣٨ .
- ٢٢ - المقدمة اللغوية للعلالي .
- ٢٣ - مفارقات لغوية د. عبد الحق فاضل .
- ٢٤ - تاريخ علم اللغة - جورج مونين ، ترجمة بدر الدين قاسم ط ١ - ١٩٨١ .

★ ★ ★

سيد قريش

رواية بين الواقع التاريخي والواقع الفني

عبد اللطيف أرناؤوط

هو

العجب أن تطوى صفحة رواية (سيد قريش) من أذهان الاجيال العربية اليوم أو تكاد ، مع زوال المرحلة الأدبية التي مثلتها ، فما ان غاب طيف الأدب الرومانسي في أدينا حتى غاب معه اسم (معروف الأرنؤوط) (ب) أو كعاد من ضمير المثقف العربي ، والناس يالفون كل جديد ويتعلقون بأهداب الحاضر وكانهم يلتفتون الى الماضي باللمح العابر ، ويفتحون عيونهم للحاضر بكل جوارحهم ، وقد فاتهم ان الحاضر ليس الا حلقة من حلقات متواصلة أسهمت في بنائه قيم الماضي وتطلعات كل جيل ، وما من شك في أن معروف الأرنؤوط بأدبه الروائي قد أسهم في تفجير الوعي الوطني والقومي في جماهير الأمة العربية في فترة كانت تواجه فيها الاستعمار الغربي بشتى صنوفه وأشكاله ، واضطلعت روايته / سيد قريش / بالمعبء الأكبر من تلك الرسالة ، إذ كتبها مؤلفها في فترة النضال الوطني في عام ١٩٢٩ واهداها [الى فتیان الشام والعراق والجزيرة ، الذين مشى أبائهم تحت ظلال قريش الى نواحي العالم لتهديبه وتعليمه] .

وقد فطن الأديب الدكتور منير العجلاني الذي قدم للرواية الى الغايات القومية من وراء تأليفها فهو يقول : (وأظن أننا في حاجة الى إثارة النضال بين القديم

(*) ولد معروف الأرنؤوط في مدينة بيروت عام ١٨٩٢ هاجر والده احمد الأرنؤوط من البانيا الى لبنان أيام الحكم العثماني . .

اهتم (معروف) بالأدب العربي والتاريخ الاسلامي . . انتقل الى مدينة دمشق . . وعمل في الصحافة . . اصدر جريدة (الاستقلال العربي) . . وانشأ مجلة (المعلم العربي) ثم اصدر جريدة (قتي العرب) انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي . . تولى في دمشق في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٤٨ .
كتب الرواية التاريخية الاسلامية - وترجم العديد من الآثار الادبية .

والحديث ، حتى ولو لم يكن يفهم الكثيرون ، ما هو القديم وما هو الحديث ، لأن النضال يهز الحياة الساكنة الغاملة ، وحسبنا هذا من النضال) .

وأحسن اذ أشار الى التزام كاتبها برسالة التوجيه والتوعية ، يقول :

[ايها الأدباء ، هذه رواية سيد قريش بين يديكم ، فيها عطر وموسيقى ، وفيها عنصر من الشعر كتبها صاحبها لا ليلعب ولا ليبيدز منعة الكتابة التي أعطيتها ، ولكنه كتبها كما اتنفس انا وأنت بسائق القيام بالواجب ، وليس بسائق البذخ] .

تشكل رواية (سيد قريش) مَعْلَمًا بارزاً من معالم النتاج الأدبي في الوطن العربي ، فهي حتى يومنا هذا أطول رواية تاريخية صدرت في الأدب العربي ، اذ بلغت صفحاتها (٨٠٧) صفحات حوت عالماً غنياً باللحاح والصور ، وتحليلاً تاريخياً ماتماً ، وعرضاً لعدد وافر من الشخصيات التاريخية الحقيقية والمتخيلة حتى ليتمكن مقارنتها برواية (الحرب والسلام) لتولستوي من حيث ضخامة المعجم ، واتساع الأفق التاريخي ، ولا تكاد الروايات التاريخية التي صدرت بالعربية قبلها أو بعدها تدانيتها من حيث الضخامة والفنى .

وضع معروف الأرنؤوط نصب عينيه خمسة حوافز أساسية تشكلت بمجملها الدافع لكتابة روايته ، فقد أراد أولاً أن يعرف الأجيال الصفحات المشرقة من تاريخ الأمة الاسلامية ، ويحرك في النفوس المشاعر القومية التي أيقظت الأجداد لبناء مجد الأمة ووحدتها ، وجمع كلمتها في مواجهة الأعداء ، لكنه لم يشأ أن يمرض التاريخ ويرده الى عوامله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . بل أشر أن يكتب التاريخ بروح غنائية غنية بالألوان ، وبنفس ملحمي شاعري يشير الوجدان ويحرك الهمم .

والحافز الثاني هو ما دفعه الى كتابة هذه الرواية التاريخية . أن الكاتب قرأ رواية (فلورينده البيزنطية) للكاتب الفرنسي : (رينيه دي سيكونزاك) عن تاريخ العرب في الأندلس . فلمس فيها تشويهاً مريماً ومسخاً للأحداث التاريخية .

وأما الحافز الثالث فيتجلى في اختياره حقبة من تاريخ الأمة الاسلامية تشبه الى حد بعيد الحقبة التي عاش فيها هو « معروف » فقبل الاسلام بمقود كان العرب يمانون من التجزئة والتشتت ويخضعون لدويلات عربية تدين بالولاء للفرس والروم ، وقد مزقتهم التجزئة وأذلتهم الجهل والولاء للأجنبي ، ثم شاءت

الأقدار بأن يتوحد شملهم ويتحرك وجدانهم القومي بعد دخول الأحباش الغرباء جزيرة العرب ، واكتساح الفرس سورية، والفرس الذين سماوا بالأبناء في اليمن . فكانت هذه الأحداث تمهيداً لظهور الاسلام وجمع كلمة العرب تحت راية التوحيد ، وكان المجتمع العربي في فترة صدور الرواية يعيش في ظروف مماثلة للظروف التي مرت بها الأمة قبيل الاسلام فهو يعاني من التجزئة والتشرذم ، وتخضع أجزاءه للاستعمار الفرنسي والانكليزي والاطالي ، وقد ضرب المستعمر طوقاً حديدياً على الأدياء ، فما كانوا قادرين على النقد والتصريح ، بل كانوا يؤخذون حتى بالكلمة العابرة أو التلميح ، وكان مصير أكثرهم النفي والسجن ، فوجد معروف الأرنؤوط في التاريخ ضالته المنشودة ورأى أن إسقاط أحداث الماضي على الحاضر من شأنه أن يبعث النفوس ويحرك الثورة في الرؤوس دون أن يتعرض للملاحقة .

أما الحافز الرابع فيتجلى في تركيز الكاتب على الجيل المهيأ لمقاومة الاستعمار، فهو في (سيد قريش) يفصل في تصوير الصراع بين جيلين ، جيل متمسك بالتقديم مستسلم لواقعه يتمثل بزعماء قريش التقليديين وأصحاب الأموال من تجارها ، وجيل جديد من الشباب المؤمن بالتغيير والثورة يتمثل بشخصية الرسول الكريم وأنصاره من أبناء الشعب ، ولا سيما الفقراء والمساكين ، فلم تكن دعوة الاسلام عند مؤلف الرواية دعوة دينية فحسب ، بل إنها دعوة قومية وحركة نضالية ذات أهداف اجتماعية وسياسية من أبرزها توحيد العرب وتحرير أرضهم وتجديد قيمهم الاجتماعية والانسانية نهض بها جيل الشباب .

ومما يدخل في هذا الهدف عناية المؤلف بالمرأة وحرصه على إبراز دورها في النضال والثورة ، فليلي الكندية وهند بنت امرئ القيس ومارية الفسائية وفاطمة بنت الخطاب وأخريات ممن صور الكاتب أدوارهن في الدعوة والتحرير ، يمثلن ما يجب أن تضطلع به المرأة العربية اليوم من أعباء المشاركة في التبعات الوطنية ، وقد جعلهن الكاتب قدوة تحتذيها فتياتنا في عصرنا الحاضر .

وأما الحافز الخامس فهو لغوي وتربوي حرص فيه الكاتب أن يقدم للأجيال نصاً أدبياً حافلاً بالجمال الأدبي والاحساس المهدب الرفيع الذي يسمو بمواطن الجيل ، ويرقى بنفوس أبنائه الى آفاق من الجمال والتهديب ، ويكون حافزاً للناشئة لتقدير لغتهم والتعلق بها ، وتمكينهم من استخدامها بكفاية في مواقف

التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم ، وهو هدف أصاب فيه الكاتب التوفيق ، فمن يقرأ رواية (سيد قريش) يفتني عن قراءة دواوين الشعر ، ويجد فيها من ألوان الصياغات والتعابير اللغوية الفنية ما يفنيه عن الاستماعة بكثير من كتب اللغة ومعجماتها . .

قسم الكاتب روايته الى ثلاثة أجزاء متوازنة الطول ، يقع الجزء الأول من ص ٣ الى ص ٢٠٦ ، ويتناول واقع العرب المتجزئ في فترة حكم المناذرة والفساسنة ، ومعاناة العرب من تلك التجزئة في الأرض والمعتقد والفكر ، دون أن يتجاوز أو يتفاضى عن المقومات القومية التي كانت من عوامل الوحدة ومنها وحدة اللغة والدم والمشاعر . وهو يفضح المعاولات الأجنبية في تفكيك عرى هذه الوحدة باصطناع العملاء واقامة دول تدين بالتبعية للفرس أو للروم ، وما أصاب العرب من ويلات بسبب هذا التشردم .

ويتناول الجزء الثاني من الرواية الذي يقع ما بين صفحة ٢٠٩ الى الصفحة ٤٣٣ الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي أدت الى تقارب وتوحيد عربي فرضه دخول الأحباش مكة ، وطردهم منها على يد البطل سيف بن ذي يزن والتفاف العرب حول عرش المناذرة بعد سجن الفرس ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، واجتياحهم الشام وتصفيتهم ملك الفساسنة وتدميرهم قصورهم ومنشأتهم في بلاد الشام ، ودور الشعراء المتنقلين بين البلاطات في التأليف بين الأطراف المتنازعة ، وأثر الشعر في توحيد المشاعر وجمع الكلمة من خلال الأسواق الأدبية التي كانت تقام في عكاظ وغيرها . والارهاصات التي مهدت لظهور الدعوة ، وانتظار العرب جميعاً قيام سيد قريش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بدعوته التي ستجمع كلمة العرب وتوحد شملهم .

وفي الجزء الثالث من الرواية (من الصفحة ٤٣٥ الى الصفحة ٨٠٦) يتابع المؤلف مراحل الدعوة ممتداً على كتب السيرة النبوية وغيرها من المصادر ، فيعيد كتابة هذه السيرة بنفَسٍ روائي شاعري محللاً شخصية الرسول الكريم (ص) وطلائع المؤمنين بالاسلام ممن نصره والتفوا حوله مستعرضاً هجرة أنصاره الى الحبشة ومواجهة المشركين من قريش في (أحد) رابطاً الأحداث المتباعدة التي وقعت قبل الدعوة وبعدها في الشام والعراق والجزيرة ، والظروف التي مرت

بامبراطوريتي الروم والفرس بروح المؤرخ الواعي ، وقلم الأديب البليغ ملتزماً
الأمانة التاريخية فيما يعرض من الوقائع .

وقد تزود المؤلف بقراءات مستفيضة عن تاريخ الروم والفرس والفساسنة
والمناذرة وحياة العرب في الجاهلية ، وماقدمته كتب السيرة والحديث النبوي من
معلومات عن تلك الفترة . ومن أبرز المصادر التي اعتمدها ؛ الطبقات الكبرى
لابن سعد - كتاب الأصنام لابن الكلبي - المعقد الفريد لابن عبد ربه - والطبري
- دلائل النبوة للبيهقي - والأغانى للأصبهاني - وشعراء الجاهلية والكمال لابن
الأثير وسيرة عمر بن الخطاب ، وتاريخ عمر بن الخطاب وتاريخ أبي الفداء -
سيرة الخلفاء أمراء المؤمنين للسيوطي - بلوغ الأرب للألوسي . ومن المصادر
الأجنبية التي اعتمدها عن تاريخ الروم والفساسنة والفرس ، تاريخ العرب
لسيديو ، وأمراء آل جفنه الفسائيين لنولوكي ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لكوش
دي برسفال ، وملوك لخم لكيرمون غانو ، وتاريخ العرب للكونت دي ساسي ، وتاريخ
الامبراطورية العثمانية لغانتيه ، وتاريخ فارس القديمة لكليمان هيار . ومن
المصادر الحديثة : فجر الاسلام وضعى الاسلام لأحمد أمين .

وقد تغلفت الوقائع التاريخية مع الوقائع المتخيلة في الرواية حتى طفت عليها،
فاكثر شخصيات الرواية لها وجود تاريخ حقيقي بل ان كثيراً من تحركاتها وأحداث
حياتها مستمدة من التاريخ ، كزيارات الشعراء حسان بن ثابت والنايفه الذبياني
لدمشق والحيرة ، وزيارة امرئ القيس للقسطنطينية . أما الأحداث التي أبداعها
الكاتب والشخصيات التي اخترعها فمحدودة جداً لا تتجاوز ليلى الكندية
الشخصية النسائية البارزة في الرواية . ومارية بنت امرئ القيس من سيلفيا
ابنة الامبراطور جوستينيان . والكاتب شديد الحرص على الأمانة التاريخية، فهو
يثبت المصدر الذي استقى منه الواقعة لتاريخية في هامش الرواية ، ولا يتجاوز
الوقائع الا حين يعمد الى تحليلها من وجهة نظره ، وكثيراً ما يمنح شخصيات الرواية
وعياً وسلوكاً قومياً أو اجتماعياً يتجاوز ثقافة العصر الذي يكتب عنه ، فليلى
الكندية البطلة القومية التي نهضت بدور في تصفية الوجود الرومي في بلاد العرب
تشارك أيضاً في معركة ذي قار ، وتخطب في الكعبة مبشرة وداعية لسيد قریش
الذي سيوحد شمل العرب بدعوته . وهي كثيراً ما تتحدث بلغة عصرنا العالي

ومفاهيمه التي لم تكن قد برزت الى الوجود ، وهي تجترح المعجزات والخوارق فتقود الكتاب في (ذي قار) الى مكة فالحيرة فدمشق ، ولم تكن هند بنت امرئ القيس أقل منها وعياً قومياً ، فهي تتابع هدفها في الثأر لأبيها بأصرار وتتحدث عن وحدة العرب وواقمهم الجزأ . على أن هذه المخالفة التاريخية مقصودة بعد ذاتها ذلك أن معروف الأرنؤوط كان يهدف من وراء تصوير شخصياته التاريخية رسم المثل الأعلى للأجيال العربية ، وإلباس الشخصيات ثوب العصر الذي يمش فيه ، لتكون أقرب الى نفوس قرائه .

وقد أجاد المؤلف في تصميم حبكة الرواية حين ربط التاريخ العربي الجاهلي منه والاسلامي وأحداثه التي وقعت في دمشق والحجاز والمراق في وحدة متماسكة تحقق هدفه ، كما ساعدته المصادر في الربط بين الأحداث المتباعدة في الزمان والمكان ، فشخصيات الرواية يرتبطون بالساحة العربية بأكثر من رابط مكاني وزماني ، ليلى الكندية ترتبط ببلاد العرب برابطة النسب والولاء ، وببلاد الروم برابطة العيش والاستقرار ، وهند تنتسب الى ملوك كندة في اليمن ، وتعيش في دمشق ، وصلتها بالعاصة الرومية وثيقة بسبب وجود عمته ليلى فيها ، وكونها زوج عمرو بن الحارث الفسائي ، والمطالبة بدزوع أبيها ودمه المهدور من الروم ، وأبو سفيان قرشي يزور دمشق لتجارته ، وأميرة بن أبي الصلت حجازي المولد والنسب يرتبط بالشام بديانته النصرانية ، وملوك الحيرة تربطهم بدمشق صلة الخصومة مع الفساسنة وبالحجاز رابطة النسب .

وفي الرواية حقائق تجاوز فيها المؤلف الشائع التاريخي المشهور والمألوف ، فهو يجعل جبلة بن الأيهم يقتل في مواجهة المناذرة حين اكتسحوا بلاد الشام ، ومع أن المصادر التاريخية تشير الى أنه شهد اليرموك وزار الحجاز وأسلم وارتد عن الاسلام ، في حين يذهب المؤلف الى أن ملك الفساسنة في تلك الفترة كان شرحبيل ابن عمرو الفسائي بعد جبلة ، ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقرير واقعة موت جبلة قبل الفتوح ، وبالرغم من طفيان الحقائق التاريخية على الرواية ، وإسهاب المؤلف في تفاصيل تاريخية وردت على لسان الشخصيات تتجاوز المقتضيات الفنية ، وتسيء اليها الا أنه نجح في خلق الحكمة التي أبدعها للرواية ، فتساوق الجانب المتخيل مع الواقع التاريخي ، وانسجما في خلق التأثير النفسي

والوجداني ، وساعد اختيار الشخصيات النسائية الكثيرة في الرواية على منحها
جواً من الرقة والنعومة تعزز ما امتاز به أسلوب الكاتب من نعومة وموسيقا .

تمتد البيئة الزمانية للرواية من أواخر القرن السادس للميلاد الى ما بعد
هجرة الرسول الكريم بقليل ، وتجري أحداثها في بيئات متعددة منها دمشق ومناطق
الفساسنة والعيرة عاصمة المناذرة والبلقاء ومكة والمدينة والطائف وغيرها من
المدن العربية كبصرى . وقد مكنت الصلات القومية بين هذه البيئات مؤلف الرواية
من أن ينتقل بشخوصها عبر المكان بيسر مستنداً الى المروييات التاريخية التي تحتل
حيزاً كبيراً من حياة الشخصيات ، وكانت هذه الأحداث تتجلى في سلوك أبطال القصة
وتحركاتهم ، أو ترد على ألسنتهم من خلال الحوار وكثيراً ما يتحول الحوار الى
سرد تاريخي مسهب يسيء الى فن الرواية .

وعند المؤلف الى رسم الوقائع التاريخية التي تمت في زمن واحد بالمعارضة
بينها في فصول متعاقبة يتبدل فيها المكان والحدث دون أن يتبدل الزمان ، ويلجأ
أحياناً الى طريقة الخطف خلفاً ليرجع بالتاريخ الى السوراء محللاً خلفيات
الأحداث ومكوناتها البعيدة فيطول كلام الشخصيات بصورة مسهبة تتجاوز
الشروط الفنية لكن القارئ لا يمل ذلك الاسهاب لغنى المعلومات التاريخية التي
تقدمها الشخصيات ، حتى ليتمكن أن تصد الرواية مرجعاً مفصلاً للتاريخ العربي
في تلك الفترة يتضمن معلومات لا تتوافر في الكتب الأخرى .

ويتنامى الحدث الروائي من فصل الى فصل ببطء بسبب تعدد البيئات
والشخصيات ، وان كان يتطور من خلال شخصية سيد قريش بطل الرواية الذي
رسم الكاتب حياته منذ طفولته حتى هجرته .

وأما عنصر التشويق فيبرز أكثر ما يبرز في الواقع الموهوم أو المتخيل الذي
ابتدعه الكاتب ، وحشد فيه المفاجآت التي تشد القارئ وترجىء الحل ، ومع
صعوبة تلخيص الرواية ، سأحاول ايجازاً أجزاءها الثلاثة في العرض الآتي :

- ١ -

يفد الشاعر حسان بن ثابت الى دمشق لزيارة الفساسة من طريق القوطة ، فيصادف
غلاماً يسأله عن الطريق الى دمشق ، فيرشده الغلام ويسأله عن هويته ، أهو من رجال قيصر
أو من بطاركة دمشق ، فيبتسم حسان بن ثابت ويعلمه أنه شاعر الفساسة ، وأنه زار

دمشق من قبل في ملك العارث بن جبلة الراحل والد الملك الفساني العالي المنذر ، ويتابع الشاعر سيره حتى بدت له دمشق في ضوء القمر ، وبرزت له جناتها ونهرها العذب ، فدنا من بيعة منارة ، ومنعه حمله أن يطرق الباب في هزيع الليل المتأخر ، ثم خرج من البيعة شيخ يدب على العصا وقد لفت انتباهه تردد حسان ، فسأله عن حاجته ودعاه للنزول وفتح له باب المعبد ، وعاد الراهب إلى حسان يسأله عن اسمه فأنبأه به ، فابتسم الراهب لأن شهرة حسان شاعراً كانت قد بلغت دمشق وحفظ الناس شعره حتى هؤلاء الذين اشتملت عليهم الصوامع .

لم يكن حسان وحده في زيارة دمشق ، بل رافقه في رحلته إلى الفسامة الشاعر النصراني أمية بن أبي الصلت ، وهرجما معاً في طريقهما إلى دمشق على بصري ، وباتا فيها ليلة في / دهر بحيرا / .

وشاءت المصادفة أن يلتقي حسان في دمشق زعيم قريش في الجاهلية أبا سفيان ابن حرب فيسلم عليه ، ويبيدي أبو سفيان إعجاب به بشعره ، ثم يلحظ حسان في عيني أبي سفيان شعراً فيسأله عن سر وجوهه ، فيبيدي أبو سفيان أساه ، إذ يرى دمشق تخضع للأجنبي ، وملوكها يخدمون قيصر ، فيعلمه حسان أنه زار الراهب بحيرا مع أمية بن أبي الصلت ، فأنبأهما بظهور نبي عربي كريم يقود الأمة إلى نصر أبدي ، وأن تيجان الغرباء والحلفاء ستتحطم قريباً حين يكتب للمغرب التحرر من ربة الأجنبي ، فيطرب حسان لما يسمع وتستبد بروحه نشوة من الحرية ، ويذكر أن أمية كان يود أن يكون هو ذلك النبي الموعود ، وتبعث فكرة النبي المبعوث المنتظر في حسان أفقاً جديداً يتصور فيه أنه سيكون شاعراً لهذا النبي الموعود ، فيعلن إيمانه بالنبي المبشر قبل بعثه .

لم تكن الزيارة هي الأولى أو الأخيرة التي يقوم بها أمية بن أبي الصلت لبلاد الشام ، فقد كان دائب السفر إلى الشام ، وثيق الصلة بالرهبان والأديرة . وفي كل مرة كان يحدثه عن اقتراب ظهور النبي الموعود ، فقرر هذه المرة أن يزور الراهب في طريقه إلى دمشق ليتثبت منه عن حقيقته ، فلما بلغ بصري تحول إلى دهرها فدخل إليه بحيرا وكان شيخاً يدب على العصا ، فسأله أمية :

— ما تحدثني هذه المرة عن النبي المبشر . . . ٩٩

فالتفت بحيرا من نافذة الدير حيث الصحراء ، وأشار إلى قافلة تقترب وقال :

« حلق طويلاً في هذا الرمل المنبسط ، فإذا نظرت إلى رجال هذه القافلة بدا لك في ذلك الصبي المجهيد ذلك الناموس الذي لاح نموس وعيسى ، لقد ولد النبي . وكان مولده في أشرف القبائل . . . »

وبدت على أمية علامات الدهشة ، فقال له بحيرا :

— فيم اجفالك هذا ؟؟ ابرمضك ان ينبت في العجاز هذا النبات المتارج ؟ يا عجباً لكم مآثر المرء ، تمشون في الصحراء المرضة ، وتركون مدنكم للفرييب يعصد ما زرعته ايديكم ، ويبني حصونه وقصوره فوق ارضكم ، وانتم في صحراء قاحلة لا تدر لبناً ولا تنبت حباً ؟؟ فليكن شمرک بمد الآن نغمات عذبة تشيد بروائع الفجر الجديد الذي سيظل نوره عالماً جديداً تفيئون اليه .

وراح أمية يقص ما سمعه من نبا النبي ﷺ على أبي سفيان في طريق عودتهما مع القافلة الى العجاز ، فيتمنى أبو سفيان لو يرى بحيراً في بصرى ، ليسمع منه ما سمعه أمية ، فيبكر في صباح اليوم التالي وقد بلغا بصرى ، ويسأل الراهب عن حقيقة الأمر ، فيميد على مسامعه ما كان قد أنبا به أمية ، ويرجوه الا يتفوه أمام الروم بما سمع ، وقبل ان يودعه أبو سفيان . يقول له الراهب :

« سيفرج من أبنائك ملوك يزيلون الروم عن هذه البلاد ، وسيكون أبنائك جنداً لهذا النبي العظيم ، ينصرونه اذا قعد الناس عن نصرته . . »

وانست طبيعة دمشق الساحرة أبا سفيان وحسان وأميه ما فاه بحيراً عن النبي الجديد ، وقد اقتربوا من شاطئ بردى ، فاذا هم يسمعون صوت استفاشة يصدر عن امرأة عربية تمرض لعدوان عالج من الروم ، فامتشق الثلاثة سيوفهم وكان الصوت صادراً من أحد القصور المطلة على بردى ، فمشروا على فساء عربية من كندة تستنجد وقد دهمها القائد الرومي هيباس وجنوده قبل أن تلج القصر ، يراودها عن شرفها ، فلما سمع وقع حوافر الفرسان العرب الثلاثة ، هرب مولياً الأديار ، ثم يتبين لهم أنها هند بنته امرئ القيس خلفها أبوها وهو في طريقه الى القسطنطينية في حماية دمشق ، لتتوسط الفساسنة في استرداد دروع أبيها التي أودعها قبل موته عند السمائل بن عاديا ، ثم أخذها الروم منه ، ويظهر للقوم أن هند بنته امرئ القيس على علم بخبر النبي الجديد . فتطلب منهم أن ينطلقوا الى سطيج الكاهن ليعلمهم بنبئه . ويمرض عليها الثلاثة أن ترافقهم الى بصرى فتمتذر لأنها تريد أن تنتقم من هيباس فتشكوه الى عامل قيصر ، فان لم ينتصف لها ستلجأ الى هانيء بن مسعود سيد بني شيبان .

وفي تلك الليلة ذاتها كان الفتى عمرو بن العارث الفساني الذي بهر جماله العذارى يطارح حبيبته مارية الغرام في قصره المطل على بردى فشغله ذلك عن سماع صوت استفاشة هند ، وكانت مارية جارية أهداها قيصر الروم الى عامله المنذر فأحبها وأخوه عمرو وساح معها أكثر من مرة في بلاد الروم ، وعاشت مارية في قصر البريص ، وفيما هما يتناجيان في تلك الليلة ، سمعت مارية جلبة ، فأضاء حراس القصر المشاهل فمشروا على أبي سفيان وصحبه ، وأطل عمرو فدعاهم للدخول الى قصر الفساسنة ، وأكرم وفادتهم ولا سيما أن من بينهم شاعر الفساسنة حسان بن ثابت ، ووقعت عينه على هند فقدر أنها من قريبات هؤلاء العجائزين .

وتقص هند على عمرو بن الحارث نبا النبي المبعوث وما أخبرها به الكاهن سطيح ، فيقول عمرو : ان سطيحاً لجدير بكل ثقة وإنه لا يكذب ، وسالت دموع أمية حين تيقن أنه لن يكون النبي الموعود، ولم يلحظ أحد حسرتة . ويعمر المجلس بحديث الشمر وأخبار امرئ القيس ، وترفع هند ظلالتها لعمرو بن الحارث وتخبره بما لحقها من هيباس فيطمئنها أن الحارث بن جبلة سيفسل هذه الاهانة ولن يطلع صبح الغد على هيباس وهو حي ، وأنه سيسكوه الى قيصر ، فان لم يماقبه انتصف لها منه بنفسه . وتدخل مارية فيذهل القوم للشبه بينها وبين هند، وتقص هند على الملك المنذر بن الحارث قصة دروع أبيها ، فيعرض عليها أن تمكث مع مارية في القصر ريثما يسافر الى القسطنطينية ، ويعرض الأمر على قيصر ، فتشكره وترجوه أن ينسى نذالة هيباس وألا يلوث يده بدمه الفاسد .

ويعود الثلاثة الى دير ايلياء قرب دمشق حيث وفد اليه بحيرا من بصرى ، فيحسن وفادتهم ويدور حديث طويل عن شعراء الحجاز ومنهم النابغة وعترة وربيعة بن مكرم ، ويطل الراهب من النافذة فيعلمهم أن النبي ظهر، وهو يقترب من بصرى في احدى القوافل ، ويسألونه ان كان يؤمن به ، فيجيب : «أمنت به .» وهو لا يبزح جنيناً في أحشاء أمه .» .

ويزيل شكوكهم ، فيعلمهم أن سطيحاً يعرف من أمره اليقين وهو مقيم الآن قرب البلقاء .

وكان هيباس يترصد أبا سفيان وصحبه بعد تدخلهم تلك الليلة وانقاذهم هنداً من مغالبه ، فلما رأهم يدخلون الدير ، دهمهم وصحبه ، فكانت معركة سقط فيها عدد من جنود هيباس ثم بارز أبو سفيان هيباس فطمعته ، وفر الرومي هارباً فألقى بجسمه في ماء النهر ولفظ أنفاسه ، ويتابع الثلاثة طريقهم الى بصرى قبل انبلاج الصباح .

وبينما كانت قوافل أبي سفيان تدخل بصرى ، كان المنذر الملك الفسائي يدخل موكبه دمشق عائداً من القسطنطينية ، وقد كان لمصرع هيباس صدى مزعج في نفوس الروم ، ومبعث فرح لهند ، لأنها أخذت بثأرها منه بسواعد أبناء أمتها العرب . وتمرض مارية ، فيقرر عمرو أن يرتحل معها الى موطنها القسطنطينية

التي زارها أبوها ومات في طريقه إليها . وتقرر مارية أنها ستجمع بين عمرو وهند وعمتها وليلى تلك المرأة المربية التي كان امرؤ القيس يتردد إليها في عاصمة الروم ؛ وهي سيدة عربية فرضت احترامها ومكانتها على قيصر وأعيان العاصمة . ويدخل ملك الفساسنة فجأة فيعرف هنداً لأنها كانت قد راجعته من قبل في قصة الدروع ، ويسأل عن حسان فيعلم أنه سافر الى الحجاز في غيابه ، ويخبره عمرو بقصة الاعتداء على هند ، فيغضب ويخشى شماتة النعمان بن المنذر ملك المناذرة لأنه لم يحرم عرض فتاة استجارت به .

لم يغادر حسان دمشق الا بعد أن اجتمع بصديقه جبلة بن الأيهم الذي جمعه بدوره بملقمة الفعل والنايفة ، فكان لقاء بين عمالقة الشعر تبادلوا فيه القصيد في بلاط الفساسنة ، وانصرف كل منهم الى سبيله .

ويقرر المنذر ملك الفساسنة أن يخرج لقتال النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة ، فاتجه جيشه الى العراق بطريق تدمر ، والتقى الجيشان ، فكانت معركة عنيفة خسر فيها المنذر الفسائي ثلث جيشه ، لكنه استطاع أن ياسر قابوساً ابن ملك المناذرة ، فلما مثل بين يديه ، قال له الملك الأسير : إن الملوك لا تجز نواصيها فرجاه المنذر أن تطوى الثارات ، ويصفو الدم العربي المراق ، وأطلق سراحه أملاً أن يقبل أبوه بهدنة طويلة بين الخصمين

وتنتهي المعركة في الخامس عشر من حزيران عام ٥٨٠ م . وشب دمشق كلها لاستقبال المنذر المنتصر ، ويمر في مقدمة جيشه يبرق تاجه تحت سماء صافية ، وتهمر عليه الرياحين والأزهار من الناس المنتشين ، لكن الملك كان حزينا ، لأنه لم يكن راضياً في أعماقه عما ارتكبه جنوده من قتل ونهب في مضارب أهله وقومه وأبناء عمومته المناذرة ، فكان ضميره يشقله ، وما إن اجتمع بأولاده حتى انهمرت دموعه الما ، ثم أوى الى فراشه وقد هدئه التعب . لكنه لم يستطع أن ينام تلك الليلة ، وأحس جبلة بقلق المنذر فدخل الى مخدعه وسأله عن سبب أرقه ، فصارحه الملك بأنه حزين لما جرى ، وانه غير آمن على نفسه من قيصر الروم جوستنيان ، ولا سيما أنه طلب منه أن يزور القسطنطينية ، ويصحب معه ولده .

وفي صباح اليوم التالي يتوجه موكب الملك الفسائي الى القسطنطينية ومعه عمرو ومارية وهند سالكا طريق حمص فحلب .

ويمر حسان بن ثابت في طريق عودته بالبلقاء ، ويحاول أن يزور الكاهن سطيحا ومعه أمية ، فلا يجدانه في كهفه ، بل يجدان عجوزاً شمطاء تسخر من أمية وادعائه النبوة ، وتعرف أنه المتنبي الكذاب من قروح في وجهه ، ويملمان منها أن سطيحا في البتراء ، فيتابعان طريقهما اليها ويتفان أمام معالمها المريية الأصيلة ، وقد كانت مدينة عظيمة نافست روما ، ويلتقيان فيها قافلة أبي سفيان عائدة من دمشق ، وبعد قليل خرج من المفارة سطيح ومعه شق بن أنمار بن نزار ، وكان ذا يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكان سطيح يدرج في ثوب ولا عظم له الا الجمجمة ، وقد بعث منظرهما الرعب في نفوس الوافدين ، وكانت لهما مكانة عظيمة في النفوس لمفرتهما الغيب ودورهما في التحكيم بين الناس والقبائل، ويتكلم سطيح لبيشر هؤلاء الرعاة من العرب بفجر جديد ونهضة عظيمة ، يقود لواءها نبي عربي عظيم من ولد غالب بن فهر ، فيبكي أمية لأنه لن يكون ذلك النبي ، ويطلب حسان من سطيح أن يقرأ له طالعه فينبئه أنه سينال حظوة لدى النبي الجديد ، وسيسعد هو وأولاده بصحبته . ويمود الركب في طريقهم الى الحجاز وأمية يردد :

- قتلني سطيح !!

وتعرّس قوافل أبي طالب في رحلة أخرى في (بلاس) قرب دمشق ، وقد اجتمع النصراني في دير الحارث لسماع صلاة بحيرا الراهب الذي يمتكف بعد الصلاة في (بلاس) . فيذهب أبو طالب لمقابلته ويدعوه بحيرا وصحبه لتناول الغداء، ويتخلف عن الركب طفل في الماشرة من عمره ، طفل يتيم ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات جده كفله أبو طالب وأحبه . وكان يرافق القافلة الى بصرى ، فيطلب بحيرا إحضاره ، ويسأل عن اسمه ، فيمرف أنه يدعى محمداً . ويتملى بحيرا طويلا بقسمات الطفل الهاديء الوداع ، ثم يستبد به ذهول . . فيقول لأبي طالب :

- ان لابن أخيك هذا لثانا ، وانه نبي موعود سيدعو الى ديانة مهذبة تصقل العقل ، وتمحو الوثنية . . !! وانه سيعيش مضطهدا يتيما كما عاش عيسى وموسى ، لكن سيدين له العرب . ويملك الروم والعجم .

ويقبل أبو طالب على ابن أخيه ، فيسأله :

— أسمعت ما قاله بعيرا . .

فيجيب الطفل العظيم : لا تنكر يا عم أن لله قدرته .

فيحتضنه أبو طالب ، ويصرخ أنه آمن برسالته قبل بمئه .

ويودع أبو طالب بعيرا ، فيعلمه الراهب أنه يشعر باقتراب أجله ، ويرجوه إن لم يجده في رحلته القادمة أن يُصفي إلى نصائح راهب آخر هو (نسطورا) فهو يؤمن برسالة الصبي وسيعضده .

- ٢ -

جلا الأحباش عن اليمن بعد سنتين من ولادة الرسول ، وأقبلت وفود العرب على سيف بن ذي يزن تهنئه بالنصر . وفيها وفود قریش ، وخطب عبد المطلب خطبته المشهورة ، ثم خلا بسيف بن ذي يزن ، فأخبره سيف أنه سيولد بهتامة غلام بين كتفيه شامة ، وتكون له الامامة والزعامة الى يوم القيامة . فيفرج عبد المطلب لهذه البشارة ويعلمه أن حفيده محمداً ﷺ فيه كل ما ذكر من علامات ، فيفرج سيف ويرجو عبد المطلب أن يعذر على الصبي من اليهود ، وأنه يجد في الكتاب المناطق والعلم السابق أن يثرب ستكون دار هجرته وبيت نصرته ، وأنه سيتابع رسالته في تحرير العرب من الدخلاء ، بعد أن تهيأت للجزيرة العربية ظروف مؤاتية .

ومرت أربعة أشهر على رجوع أبي سفيان من الشام الى مكة ، وقد أخذت مكة تستقبل وفود القبائل استعداداً لسوق عكاظ ، وتبارى الشعراء الذين تنبهت مشاعرهم القومية بعد هزيمة الأحباش في عرض قصائدهم في سوق عكاظ ، وأهدى سيف بن ذي يزن الى الكعبة كسوة فاخرة حملها عبد المطلب في زيارته ، فكان من شأن هذا التلاقي أن يوحد كلمة العرب ، ويصفي الأحقاد ، ويقرب بين القبائل . وأهدى النعمان ملك الحيرة مجموعة نفيسة من التحف ، وفي غمرة هذا الحشد المامر من الناس يبرز ورقة بن نوفل وهو في السبعين من عمره ، فشكر الله الذي منع البيت وطهره من الرجس وترحم على عبد المطلب الذي غيبه الموت ، وهنا العرب بالنصر ، وخطب أبو طالب فمدح ملوك الفساسنة والحيرة ، وأظهر دور قرينش في حماية البيت وسدائنه ، والسهر على أمن الحجيج اليه ، وانقضى الموسم فتوجه

ورقة الى سفح الجبل القائم بين مكة وعكاظ ، فأشرف على مكة وطافت في نفسه الخواطر فانشى يقول :

- ان هذا الهواء الذي ينبعث نديا سائفاً ، يحمل الى نفسي هبق ذلك النبي العظيم الذي سيجيء بعنه منحة من أبهر منعك أيها الاله القدير ، وان في قدرتك يا رب أن تطيع هذه هذه الصحراء المتبرمة بعزالتها عن العالم جلال الديانة ، وعظمة النبيين الذين يحملون الى الانسان الفريق الغلاص .

واتجهت الجموع من مكة الى عكاظ ، وكانت أسماء الشمراء المشاركين في الموسم مكتوبة بالذهب ، ويقبل عنتره وقيس بن زهير وعلقمة بن عبدة وزهير وحسان وعروة والخنساء ، ويجلس شرفاء الوفود من قريش وغسان ولخم وحمير في أماكنهم ، ثم يقبل النابغة حزينا يتمثرفي مشيته ، ويسأل الناس عنتره عن سر وجومه ليخبرهم بقصة زيارة النابغة لملك الحيرة ، ورؤيته زوجته المتجردة ، وما قاله فيها من وصف رائع ، وغضب ملك الحيرة لصرachte في وصف زوجته . ويلقي عنتره والنابغة أجمل شعرهما في عكاظ فتطرب النفوس وتهيج ، وكان الشعر ديانة العرب الوحيدة في الجاهلية التي تهذب النفس وتصقلها .

وبعد هذا الموسم أخذت قريش تسترد مكائنها ، وقد انتصرت على الأقباش ، وكانت قريش تحتل مركزاً تجارياً بارزاً في الجزيرة ، الى جانب مكائنها الاجتماعية والدينية ، ولبثت مكة حرماً مقدسالا يقتحمه عدو مغير .

وفي العقد الأخير من عام ٥٨٠ م . اجتمع سادة قريش في دار عبدالله بن جدعان لدراسة قرار الروم بمنع قوافل العرب من الدخول الى الشام بعد أن ثار أبناء المنذر الفساني على الروم بسبب حجز أبيهم في القسطنطينية واستغلال المناذرة هذا الخلاف بين الروم والفساسنة وتوغلهم في بلاد الشام ، ودرس المجتمعون الكوارث التي تحيق بالعرب بسبب اقفال حدود الشام ، فيطلب اليهم ورقة بن نوفل أن يخلصوا للسكينة ، وتكلم أبو سفيان الذي أصيبت تجارته ، فأبدى مناصرته للفساسنة ضد الروم ، وقرر المجتمعون أن يرسلوا وفداً لملك الحيرة لوقف الغزو على بلاد الشام .

ويقصد أبو طالب منزله بعد حضور الندوة ، فيضم اليتيم الى صدره وقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، وينظر اليه وهو يضحك ويتفحصه ويركز بصره على

كتفه الذي يحمل خاتم النبوة ، ويذكر طفولته وهو يرعى الغنم . فيتذكر طفولة موسى وعيسى ثم يخرج من تأملاته وهو أكثر ايماناً بحديث بحيرا ، ويسأله الطفل: ان كان يؤمن بالأصنام ، فيبهت أبو طالب للسؤال ، وتزداد دهشته حين يقول له الطفل اليتيم : أما أنا فمازلت أمقتها وأجفوها .

وتطول غيبة النعمان ملك الفساسنة في عاصمة الروم ، ويحاول قيصر أن يتزلف اليه ، فيخلع عليه في أول زيارته تاج الملك ورتبة بطريق ، ويتوج بحفل رسمي في كنيسة آيا صوفيا ، مثلما صانع الروم أباه قبله . وتحضر ليلى المعجوز حفل التتويج ، فتسخر من أساليب الروم وسذاجة ملوك الفساسنة الذين يقدمون خدماتهم للأجنبي مقابل عروش من ورق ، فاذا خالفوا مشيئتهم ، كان قتلهم أسهل من قتل ذبابة ، وتنطلق ليلى المعجوز الى الكنيسة الى شواطئ آسية الجميلة ، وتلتقي هنداً على الشاطئ وكانت تعرفها منذ طفولتها في القسطنطينية ، ثم تتحول الى ساحة ايهودروم المقفرة ، ويجوس نظرها بتمائيل القياصرة ، وتستعرض ماضيهم المثقل باللصوصية والجرائم فتهافتت على تمثال جوستينيان تضربه بعصاها وتذكر صاحبه بجرائمه ومبازله، ثم تركع أمام تمثال امرئ القيس الذي نحت المثلال روزاس فتؤكد له أن ساعة الانتقام آزفة ، ثم تتحول الى شوارع العاصمة تببع عقاقرها وعطورها . وتدهر مغامرات الحب للماشقين ، وتمارس سحرها المقبول بين الناس .

وتتحول باحثة عن هند ومارية في غابة القصر . وكانتا تتحدثان عن حبهما لدمشق وحينئذ هما الى بلاد المغرب ، وتفضيلهما وطنهما والعيادة فيه ، وتحديثها مارية عن ماضيها المجهول ، فقد حملت الى قصر ايرين ، وقدمت هدية لقيصر وهي ابنة سبع سنوات ، ولما بلغ عمرها عشر سنوات أهداها قيصر لمعرو بن الحارث ، وهي لا تعلم عن ماضيها شيئاً ، ثم تصيبها اغماء اثر دخول عمرو فتطلب بالحاح من عمرو وهند أن يرداها الى أبيها وأما ، فيدرك عمرو أنها مشرفة على الموت ، ثم تلتصق هند من عمرو أن يقودها الى ليلى الساحرة لتسمع حكاية أبيها امرئ القيس ، فيصلان الى منزلها ، وتصارع ليلى مارية أنها ابنة امرئ القيس من سيلفيا ابنة القيصر جوستينيان فقد أحبها امرؤ القيس ، وكانت مارية ثمرة حبهما وهي بالتالي أخت هند وان دروع امرئ القيس

ما زالت عند ليلى تحتفظ بها . فتتعاقد الأختان هند ومارية ، وتكون مفاجأة لا تتوقعانها . ١٠٠٠ فمارية ابنة ملك عظيم وأميرة رومية نبيلة ، وقد شمر جوستينيان بملاقة امرىء القيس بابنته فدبرت له زوجة قيصر مقتله بالسم في طريق عودته من بلاد الروم ، وخشي قيصر أن تنشأ الفتاة مارية على حب الانتقام فأوكل الى ليلى تربيتها ، ثم أهداها الى ملك الفساسة ليبيدها عن عالمه ، أما ابنته سيليفيا فلم تطلق فراق طفلتها ومقتل حبيبها امرىء القيس فدنفنت حتى ماتت .

وتودع ليلى عمروا وهنداً ومارية وتخبرهم بالخطر الذي يتهدد المنذر لأن قيصر قرر احتجازه بسبب تهاونه مع المناذرة ، وتذكر لهم أن مأساة امرىء القيس ستكرر في شخص المنذر .

وفي قصر جوستينيان كان المنذر يجادل قيصر ملك الروم وقد أخذ ملك الروم يلوم المنذر على تقاعسه في محاربة المناذرة والفرس ، ويذكره بأغلاط آبائه ، ويتهمه بالتواطؤ في قتل القائد هيباس ولم يضعف المنذر أمامه بل ذكره أيضاً بفدر قياصرة الروم وقلة وفائهم بمبادئ الحلف ، واستغلالهم الصداقة لمصلحتهم ، وفي تلك الفترة تلج ليلى القصر وقد تطور الجدل الى مشادة ، شمر قيصر بعدها بالتوعدك ، وأطفئت أنوار القصر بفتة بتدبير من ليلى ، فلجأ قيصر الى سريره ، وقد استطاعت ليلى أن تسكر حرسه ، وتطلب ليلى من المنذر أن ينجو بجلده لأن قيصر بيئت له الشر ، ليخرج ومعه هند وعمرو ومارية التي كانت في النزاع الأخير ، ويمتطي وصحبه زورقاً هاربين من العاصمة ، وتقترب ليلى من سرير قيصر ، وتزعم أنها جلبت له دواء مسكناً يهدى قلقه ، فتدس له السم من مستحضر جلبته من كهف الحياة ، فيصيبه مس من الجنون ، وامتمت ليلى زورقاً الى قصر تيودوس لا يقاطح حرس غسان النيام ، فيفرون بدورهم عن طريق الخليج .

واستفاق الناس صبيحة اليوم الثاني ليسمعوا بجنون سيدهم قيصر دون أن يعرفوا له سبباً ، وتسود الفوضى في الجيش والكنيسة والدولة ، ويصبح البطريرك طيباريوس وصياً على المرش ، وكان مكروهاً من الناس ، وأما المنذر فيستقر على الحدود حيث يتلقى نبأ وفاة مارية ويواسي عمروا ويخبره بما فعلت ليلى ، ثم يتم دفن جثة مارية ، ويودع الملك الفسائي وصحبه البيت المنعزل ، ويمضون في طريقهم الى الشام وقد بلغت مسامعهم بعثة النبي .

واجتمع مجلس الشيوخ الروماني ، فنادى بطيباريوس قيصرًا جديدًا ، وأمر باعتقال البطريرك ملاتيوس وكان محبوبًا من الرعية ، وبعد قليل أعلن قصر الامبراطورة ايرين نبأ موت جوستينيان الثاني ، وكانت هذه الأحداث المتلاحقة نقطة البداية في تصدع امبراطورية روما .

قضى المنذر أول ليلة من سفره في / ايبنون / في سورية ، ثم توجه الى الشام والفرح يعم الأرجاء بمودته سالمًا ، ويمر بسكّاء حيث دفن آباؤه في غوطة دمشق ، وقد هدّته عناء السفر وعجز الشيوخة والمرضى . وفي شدة مرضه يقرر عقد زواج أخيه عمرو من هند بنت امرئ القيس ، ويبارك لهما . وأما ليلي فتقرر السفر الى العجّاز للبحث عن « سيد قریش » هذا النبي العظيم الذي ملأت أخباره الآفاق . وما كاد القوم ينادرون المنذر حتى ثقل عليه المرض فأسلم الروح في نهاية عام ٥٨٠ م . وكان وفد قریش في طريقه الى الحيرة يلتمس من ملكها عقد سلم طويل مع غسان ، فارتضى النعمان ذلك ، وفرح الناس لهذا التقارب والتآلف في حياة شمم واحداً أخذ يحسن بحاجته الى تضامن وثيق يدفع عنه أذى الروم والفرس .

مركز تحقيقات قديم علوم اسلامی
- ٣ -

اجتمع مشركو قریش في دار الندوة ، لينظروا بأمر محمد ﷺ بعد أن ظهرت دعوته ، وكانوا قد قدموا الى أبي طالب عمه فقالوا له : ان ابن أخيك قد عاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فأنهه عنا ، أو خلّ بيننا وبينه .

فلم يفعل ، وتأخر عن الدعوة ورقة بن نوفل ، ثم أقبل على القوم فندد بموقفهم ، وتدخل ليلي الكندية على القوم ، فتسأل عن سيد قریش ، وتنكر على القوم معارضتهم دعوة النبي ﷺ وفيها حرية العرب وسيادتهم ، ويتحول القوم الى دار أبي طالب ، فيشكون اليه ذهاب هيبتهم بعد أن تجرأ الفقراء الذين آمنوا بدعوة الرسول على أشرف قریش ودينهم ، ويرفض أبو طالب التخلي عن ابن أخيه ، فيصيحون به : لقد زهدك ابن أخيك في دين آباءك ، وانصرفوا عنه حائقين .

وتدرك خديجة أن محمداً ﷺ نبي هذه الأمة ، وقد أكد لها ورقة بن نوفل وميسرة ما يثبت هذه النبوة ، ولمحت علاماتها البينة في ملامح الرسول ، فأرسلت جاريتها نفيسة بنت عليّة تعرض عليه الزواج ، فخطبها الرسول الكريم ، وشهد على ذلك صناديد قريش . .

ورفض أبو طالب أن يسلم محمداً (ﷺ) لمعارضيه دعوته من القرشيين والتمس منه أن يتحول عن دعوته ، فقال له : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وكان سيد قريش يمتزل الناس في غار حراء كل سنة شهراً ، ثم يعود إلى بيته ، فيطوف حول الكعبة سبعاً ، ثم يفد على المساكين فيطعمهم ، غير أنه منذ صيف ٦١٠ م صدف عن مخالطة العالم ، واعتزل أسابيع عديدة قضاها في الصوم والعبادة حتى ظهر له جبريل ، فقص على زوجته ما رآه ، ثم ظهر له ثانية في بيته ، وفي المرة الثالثة تراءى له في السابع عشر من رمضان « ١٣ شباط ٦١٠ » في غار حراء ، وأمره أن يقرأ وكان يجهل القراءة ، فضمه ضمة شديدة . . وقال له :

[- اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .]

ويستفيق الرسول ﷺ من غيبوبته ويتراعى النبا إلى ورقة بن نوفل . ثم يتوالى الوحي على محمد ﷺ فتؤمن خديجة برسالته ، ثم يؤمن علي بن أبي طالب فزيد بن حارثة . وطافت ليلي الكندية حتى بلغت الكعبة ، فخطبت بالناس ، ونددت باستيلاء الفرس على الحيرة ، ومطاردتهم الفساسنة ، وزحفهم إلى أراضي غسان ، وأهابت بالمعرب أن تجتمع كلمتهم لنصرة الدين الجديد الذي ينقذ بلادهم من ربقة الأجنبي . وتفعل كلماتها في نفوسهم فمسل السحر ، فيلتمسون من ورقة أن يدلهم على بيت سيد قريش ، ليذهبوا إليه ، ويؤمن أبو بكر ، فتتمزق بإيمانه الدعوة ، ثم يؤمن عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وسميد بن زيد المدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب وأبو سلمة ابن عبدالله المخزومي .

ويلبث الرسول ﷺ ثلاث سنوات يدعو للدين الجديد سرا في بيوت الفقراء

والمساكين حتى التحق بالدعوة خلق كثير، ويمتد القرشيون صلوات مع الفرس لتوثيق تجارتهم بعد اكتساحهم الشام وانتصارهم على الروم، ويأسى المسلمون لانتصار الفرس، وتتسع الدعوة فتتجاوز مكة، ويقرر الرسول ﷺ أن يدعو بنسي عبدالمطلب عشيرته الأقربين الى الدين الجديد، فيتحولوا عن عبادة الأصنام .
وبسبب ضغط الفرس على بلاد الشام، اضطر قيصر روما فوكاسي أن يصالح الفساسنة، وأقام عمرو بن الحارث ملكاً على البلقاء وبصرى وفلسطين، ولكن الفرس اجتاحوا سورية وطردهوا أمراء الفساسنة، وقتلوا عمراً وجبله بن الأيهم. وكانت أنباء الدعوة الجديدة قد بلغت دمشق، ولم يكن أهلها أقل تعاطفاً مع الدعوة بسبب ما عانوه من آلام ومحن بسبب صراع الروم والفرس . كذلك لم يكن أهل العراق أقل حماسة لها بعد أن زحزح الفرس النعمان عن العيرة، وعينوا عليهم عميلاً لهم يدعى اياس بن قبيصة .

ودعا الرسول ﷺ بني عبدالمطلب الى طعام في بيته، وبعد أن شبعوا خطب فيهم قائلاً :

[يا بني عبد المطلب ، اني ما اهلم شاباً في العرب جاءكم بالفضل مما جنتكم به ، قد جنتكم بغير الدنيا والآخرة ، وقد امرني الله ان ادعوكم اليه ، فايكم يؤازرنى على هذا الامر يكون اخي وصاحبي] .
[تحقيقاً لعلوم رسول الله ﷺ]

ولم ترقهم لهجته ، فضحكوا منه ، فما ثناء ضحكهم .

وسار حتى بلغ الصفا على جبل أبي قبيس ، ورأى الفرصة سانحة ، فاستند الى عصاه ، وصاح بقريش ، فأجتمعت كلها ، ودعا قومه للإيمان فأنكر عليه أبو لهب دعوته ، وجابهه والشريقطر في عينيه فحماه عمه أبو طالب ، وأبدى اصراره على نصرته .

وتجتمع قريش كلها في دار أبي طالب ، ويقول أبو طالب لسيد قريش : أي ابن أخي . . . هؤلاء مشيخة قومك . . . وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهم ، ويدعوك والهك . . .

فيقول السيد : أي عم . . . أولاً ادعوهم الى ما هو خير لهم منها . كلمة يقولونها تدين لهم العرب بها ، ويملكون رقاب العجم .

قال أبو جهل : ما هي ١٠٠ ،

قال : تقولون لا اله الا الله .

فنفروا وقالوا : سلنا غير هذه .

فقال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها .

وخرج القوم مفضبين ، وراحوا يتأمررون على سيد العالم ، ورأوا قبل أن يصارحوه بعدائهم أن يوفدوا له وفداً مؤلفاً من كبارهم . لكن الوفد اصطدم بورقة بن نوفل الذي ردهم الى منازلهم .

ويمر ورقة بن نوفل بعمار بن ياسر مشدوداً الى صخرة مقيداً بأمراسٍ ، فيسأله عن فعل به هذا ١٠٠ !! فيعلمه أن جماعة المشركين من قريش قتلت أباه وأمه وقيدته تحت حر الشمس ، ثم يبذل ورقة وليلى الكندية أن بعض القرشيين يسوقون جماعة من المؤمنين الفقراء وقد أختنتهم الجراح ، وبينهم بلال الحبشي فينزعون عن بلال لباسه ، وينهالون عليه بالضرب الموجه ، ويقيدونه بصخرة فوق صدره ٠٠ وهم يرددون : هكذا تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .. وهو أشد ما يكون صبراً وجلداً ، فيحرره ويسأل عمار عن الرسول ، فيقول له ورقة :

— انه يرسم بدماء الشهداء حدود العالم الجديد الذي سيخرج اليه عما قريب .

ويخطب الوليد بن المغيرة في الكعبة ، فيطلب من مشركي قريش أن يجمعوا أمرهم ، ويوحدوا موقفهم من الرسول (ص) ٠٠ فيتهمه أبو جهل بالخروج عن دين آبائه بعد أن وصف لهم ما سمعه من الرسول (ص) :

(اني سمعت قولاً ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا بالكهانة) .

ويمر عمر بن الخطاب ، فيطلب منه أبو جهل أن ينطلق الى بيت أخته التي أسلمت مع زوجها ، وترك دين الآباء ، فيتجهم وجه عمر ويصمم على الذهاب الى منزلها بعد أن شاع أمر اسلامها . ويلج منزلها ، فيدلف منه صغارها بعد أن سمع ترتيلهم القرآن من الخارج ، ويسأل صغيرهم عن علمه النشيد فيخبره أنها

أمه وأنها علمته أموراً كثيرة : منها الدعاء إلى الله له بالتوفيق ، وفيما هو يتسسم للصغار يدخل زوج أخته سميد بن زيد المدوي ، فيوبخه على التحول عن دينه . ويدخلان معاً إلى فاطمة بنت الخطاب وقد انتبذت ناحية من حجرتها تقرأ سورة طه بصوت رقيق ، فأشجى عمر صوتها ، وأخذته بلاغة ما سمع ، وأرهبها مقدمه ، وراح يلومها على ما سمع من الناس عن إسلامها ، ثم انتزع الكتاب منها فطلبت منه أن يتوضأ قبل أن يمسه ، وتوضأ عمر وراح يقرأ سورة وما أن أتمها حتى طلب منها أن تدله على محمد ﷺ ليسلم على يديه ، ثم يلج دار ورقة ابن نوفل وقد ثقل عليه المرض ، فيقصص على ورقة قصة إسلامه ، فيشرق جبين ورقة بضياء الفرح ويقول :

— كان سيد العالم يقول : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، عمر بن الخطاب وعمر بن هشام » .

ويتكلم ورقة ، فيأمل أن تكون الفتوح على يد عمر وتحت راية سيد قريش ، ثم يلفظ ورقة روحه بعد ماضٍ مشرق بالإيمان ، فيحزن الناس لوفاته ، ويشيعون جثمانه من الكعبة .

وخرج الرسول الكريم ﷺ من عزلته بعد إسلام عمر . فقاد عمر وحمزة جموع المؤمنين إلى الكعبة ، فطافوا بالأصنام والتماثيل فمبثا بها . فلما رأى غطاريف قريش ما فعلوا ، مضوا إلى أبي طالب يطالبونه بتسليم ابن أخيه ، وتأمير المشركون على قتل محمد ﷺ ، ولكنهم تراجعوا بمد أن هددهم أبو طالب فتفرقوا .

وثار أناس من قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسحبوهم وفتنواهم عن دينهم ، فدعا الرسول ﷺ صحبه وقال لهم : تفرقوا في الأرض .

فقالوا : أين نذهب .

فقال : ها هنا . وأشار بيده إلى أرض العبيشة ، وكانت أحب البلاد إلى نفسه ، فخرج أصحابه منسولين ، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، فركبوا سفينتين للتجار أقلتهما إلى العبيشة حيث الأمن والسلام .

ويموت أبو طالب بعد شهر ، فيأسى لموته سيد قريش ، وتموت خديجة بنت خويلد بعد موته بثلاثة أيام ، وتنمر المشركون ، فخرج الرسول من مكة حتى لا تلتحق به خيل قريش ، ثم تحول إلى الطائف ، وأقام في عكاظ خلال الموسم يدعو الناس إلى رسالته ، وفيما كان يخطب في الناس مرة أخرى به السفهاء والمبيد فراحوا يسبونهم ويرمونهم بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وزيد بن حارثة يدفع عنه وهو يردد : اللهم اليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس . .

فينتصر له شيخان من شيوخ قريش هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة . ولم يمنعه شيء من متابعة رسالته السامية فانطلق مهاجراً إلى يثرب ، وبلغ المؤمنين من يثرب نبأ خروجه من مكة والطائف ، فعاثوا بيوتهم ونزلوا في الحرة ينتظرون أن يوافيهم فيها ، واعترضه الأنصار كل يدعوهم إلى داره ، ويمسك بزمام ناقته ، فيسألهم أن يخلوا سبيلها فانها مأمورة ، وتبرك الناقة حيال دار مالك بن النجار فنزل الرسول عنها . . وقال : هذا المنزل ان شاء الله . . وأثارت هجرته إلى المدينة ذكريات الماضي في نفسه ، فذكر أبويه وذرف الدمع .

وفي دمشق ، كانت هند بنت امرئ القيس قد تحولت إلى العبادة بعد مصرع زوجها عمرو في المارك التي اقتحم فيها الفرس سورية ، وقد انزلت في قصر مارية في ضواحي /منين/ بغوطة دمشق ، وكانت تتألم لانهيال الفساسة وحرق الفرس قصورهم وآثارهم في سورية ، ويبلغ مسامعها ظهور النبي وانتشار الدعوة ، فتفرح اذ حان اليوم الذي ستأرفيه لأبيها وزوجها وأهلها من الفرس والروم ، وتتعرف وهي في غمرة فرحها بشر حبيب بن عمرو الفسائي الذي قاد كتائب الفساسة وطرد الفرس من سورية متعاوناً مع الروم ، ولم يسعدها النصر لأنها كانت تؤثر أن يكون نصرأ عربياً خالصاً .

ويغادر أمية بن أبي الصلت الجزيرة إلى دمشق ، ويأوي إلى منسك /دارس/ معزولاً عن العالم ، وقد خاب أمله في أن يكون نبي العرب .

وتجتاز ليلي الكندية الصحراء ، فتصل إلى دمشق وقد هدتها الضعف والمجز فكانت كالشبح ، وتستقبل جموع المصلين في عيد الفصح ، لكنها كانت تصلني



في أعماقها لسيد قريش ، ثم تتحول الى قبور أحبائها فتناجي قبر عمرو بن الحارث الفسائي . وتقول : سيري الذين يمرون بي في هذه اللحظة أنني لم أحمل الى دمشق بقايا العالم المتهدم ، بل سيرون أنني جئت اليهم بالعالم الجديد ، عالم سيد قريش . !!

وفي قصر شرحبيل بن عمرو الفسائي ، كان النابغة الذبياني وحسان وأبو سفيان يزورون القصر ، وقد أخبرتهم هند أن عمته ليلى اشتركت في معركة ذي قار ، وأن أخبارها انقطعت منذ زمن بعيد ،

ويتحدث أبو سفيان عن الرسول ﷺ ودخوله مكة وتحطيمه الأصنام وارساله الرسل الى ملوك الروم والفرس يدعوهم الى الايمان ، فتفرح هند بأخبار سيد قريش ، ثم يدخل حنظله القائد الفسائي الذي شارك في معارك ذي قار ، فيعلم هنداً أن فارساً ينتظرها ، وما أعظم دهشتها حين رأت عمته ليلى . . !! وتتحدث العمه طويلاً عن نصر العرب في ذي قار ثم يتبين أنها قادت كتائب كنده في هذه المعركة الظافرة ، فتسعد هند لبطولات عمته وتبكي فرحاً . وتعانق تلك المرأة العظيمة التي ناضلت من أجل مجد العرب وعزة كنده . .

وتخرج المرأتان الى روابي جبل / سنير / فتشرفان على دمشق الخالدة ، وتلتفت ليلى الى ناحية الصحراء ، ثم تقول :

[- اترين الى هذه الرمال الوردية التي تترامى من الافق البعيد ؟ من هذه الرمال سيخرج الشعب العربي الى نواحي العالم ، ليبنى المدن والصروح والمعابد تحت راية سيد قريش 1100]

* * *

هذه خلاصة موجزة عن الرواية ، ولا يخفى أن الايجاز لا يعكس جمال صياغة الكاتب ، وتحليله المسهب لشخصياتها ، ونقله أحاسيس كل شخصية ومشاعرها بحرارة وصدق حتى ليتمكن أن تُعدّ / سيد قريش / قطعة غنائية ، كتبت بنثر يقترب كثيراً من الشعر ، وممازادها جمالاً اهتمام الكاتب بوصف الطبيعة والبيئات . . مثل المقطع التالي الذي يصف فيه الطبيعة في ضواحي دمشق . . يقول :

[٥٥] كانت الشمس في تلك الغداة تستريح في احضان الشفق من تعب وسام ، وقد اشفت على الموت ، واخذت أنوارها تغبو وتذوب في روعة الجبال الهاجعة الوسنانة ، كان عروس السماء تستجيب هذا النزح الذي يصاحبها العشية بين ذراعي الطبيعة .]

على أن رومانسية معروف الأرنأؤوط وعواطفه الدافقة واحساسه المرهف وهنائيته البارزة في التعبير ، ونزعتة الى تمجيد الألم شأن شمراء الرومانسية ، كانت اطاراً ناجحاً شديد الانسجام مع أحداث الرواية المأساوية ، فكل شخصية من شخصياتها البارزة يفتسل بالألم ، وتتغذى روحه من ينبوعه الدافق .

عمرو بن الحارث الخائب في حبه الأول بعد موت مارية ، وهند بنت عمرو الفتاة اليتيمة التي أجهدها طلب الثأر لأبيها ، وليلى الكندية التي عانت وتشردت وشقيت لتصل الى طموحها القومي ، ومارية بنت امرئ القيس التي كانت ثمرة علاقة غير شرعية ، وقد دفعت حياتها ثمناً للألمها وتفرّبها . وأمّية بن أبي الصلت الذي جاهد من أجل أن يكون نبياً فما قدرت الأقدار لأحلامه أن تتحقق ، وسيد قريش الذي كانت حياته وحياة طلائع المؤمنين به سلسلة من العذاب المتواصل لبلوغ الهدف .

هذه الألام الفردية تتساقق كلها لتخلق جواً درامياً في الرواية ، ما يلبث أن تخفف من حدته الانتصارات الفردية التي ينالها كل من هذه الشخصيات . غير أن الألام والأفراح الفردية في الرواية تلتقي معاً ، لتصب كلها في ألم واحد هو معاناة الشعب العربي ، ثم تتحول الى فرح جماعي واحد بانتصار الدعوة واسترداد الشعب حريته وكرامته تحت قيادة النبي محمد بن عبد الله ﷺ .

فالرواية دراما تنتهي نهاية مفرحة يطمئن لها القارئ ، ومن ذلك يتبين أن ابداعية معروف الأرنأؤوط لم تكن ابداعية تفرد وعزلة وألم وتشاؤم . انها ابداعية ايجابية متفتحة على الجماعة تسمى للبناء ، وتلتقي في أبعادها مع الشعر الابداعي الحديث في فترة التحرر الوطني والقومي ، وهو شعر رسم فيه الشمراء الألام الفردية لكنهم لم يتخلوا عن التعبير عن آلام أمّتهم وقضاياها التحريرية .

دمشق : عبداللطيف أرنأؤوط

طائر سليمان عليه السلام

الهُدُود

نادية الغزي

من صوت الهدد الرتيب : هو - يو - يوب HOU - POU - POU .

انطلقت تسمية الهدد في اللغات العالمية :

- الاسم في اللغة اللاتينية : UPOPA ، EPOPS .

الاسم في اللغة الفرنسية : HUPPE - FASCIE .

الاسم في اللغة الانكليزية : HOOPOE او HOOPOG .

كذلك استعملت اللغة العربية نفس المغارج الصوتية في التسمية : الهدد .

* * *

ورد ذكر الهدد في القرآن الكريم في سورة النمل :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« وتفقد الطير فقال ما لي لا ارى الهدد ام كان من الغائبين »

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم :

« اذهب بكتابي هذا فاقه اليهم ثم تول عنهم فانظروا ماذا يرجعون »

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم :

« يا ايها الناس هلئنا منطلق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا هو الفضل المبين »

(صدق الله العظيم)

* * *

هو طائر سليمان عليه السلام .. النبي الذي علم منطلق الطير ا

هو طائر سليمان .. هو الغائب الذي تفقده النبي الحكيم وسأل عنه ا وتوعدده ان لم يات به بذكر سلطان مبین .

هو الهدهد ؛ الذي جاء من سبأ مملكة بلقيس ، نبأ يقين ، وهو الذي كلم سليمان عليه السلام كذلك كلمه النبي الذي يفهم منطلق الطير .

* * *

هو طائر الهدهد المخطط الموشى .

طائر الحكمة .. وطائر الصولية ..

الطائر ذو الأطوار الغريبة .

وصف الهدهد :

- طائر طوله بين ٢٥ - ٢٦ سم ، ووزنه بين ٥٠ - ٨٠ غ .

- طائر رائع المظهر .

- أما الريش فمتماثل بين الأنثى والذكر ، كذلك ريش الفرخ مماثل لريش أبويه .

- لكن الأنثى أرشق .. وألوانها أقل بهجة من ألوان الذكر .

- وفوق رأس الهدهد (غرة) تسميها العرب (قنزعة) ذات ألوان برتقالية تتدرج حتى تصبح سوداء في نهايتها .

- أما الريش فمزهر مخلوط مع ريش رمادي واسود .

- والريش الأسود يتحول في فصل الخريف الى لون بني داكن .

- والهدهد ، طائر مبهر .. وهذا الابهار ينتج عن جمال ريشه الاسود المقلم بالأبيض في الجناحين وفي الذيل .

حركة الهدهد وطيرانه :

يلجأ طائر الهدهد الى حركات هزبية أثناء الطيران .. وله أطوار أهرب أثناء هذا التحويم . وهذا ما جعل الناس في القرون الوسطى في أوروبا ، ينسبون الى الهدهد أعمال السحر .

الهدهد في الحضارات القديمة :

يملك الهدهد ميكلًا أنيقاً طريفاً لا مثيل له .. ولقد أذهل هذا الهيكل الانسان منذ قدم الانسانية ..

- فقد شوهدت أشكال الهداهد محفورة على جدران المعابد في مصر واليونان .
- كذلك حفر الفراعنة على توابيتهم أشكال هذا الطائر الجميل .
- وتعتبر الهداهد من المعرّمات في الوصايا العشر .
- والهدهد كان يعتبر نجساً بالنسبة للمبرانيين .

التصرفات :

مما لا شك فيه أن تصرفات الهدهد غريبة وشاذة .. ولم يعرف السبب في هذا الاضطراب وهذا الشذوذ الى يومنا هذا .

قتلون الريش :

يجعل الطائر يمر دون أن يلحظه الكثير من الطيور والحيوان .. يمر وهذه الخفة في المرور والاختفاء سببها السمي لمحافظة الهدهد على سلامته .

والطيران الفريب :

الذي يكون على شكل هبات ، يشير للدهشة فعلاً . فالهدهد لا يرفع جناحيه أثناء الطيران أكثر من الوضعية الأفقية ، ليبقى الهدهد سرا ولا يتحول الى طائر مرفرف . وبشكل فجائي ، يتبدل طيران الهدهد (القفزي) نحو اتجاه آخر وبشكل آخر .. ويحدث كل شيء بسرعة وبديهيّة مما يجعل الهدهد بجناحيه الأفقيين يبدو أقرب الى الأسطورة ..

القنزة أثناء الوقوف والطيران :

الوقوف: عندما يقف الهدهد ، تعود القنزة فتنتصب على رأسه بعد أن كانت مائلة ، ثم ترجع الى وضعية الاسترخاء .

الطيران : تميل القنزة نحو الخلف .. لكنها تنتصب أحياناً عند الطيران .. فتجعل من الهدهد طائراً محيراً سحرياً .

الراحة : أما اذا كانت الهداهد مستريحة فانها تطوي (قنزعتها) التي ترتكز فوق رأسها .

النوم : وأثناء النوم .. تحتفظ بها كما هي مطوية على رأسها .. ويبدو آخرها متديلاً فوق المنقار ..

الذنب : يبدو ذنب الهدهد المنفرج طويلاً .. لكنه أثناء الطيران ، يبدو قصيراً بالمقارنة مع الجناحين الطويلين الفارعين .

المنقار : فاذا وقف الطائر الموشى رأينا له منقاراً طويلاً مقوساً .. يغمي على هيئته الكثير من السحر والغرابة ..

الهبوط : فاذا حط الهدند على الأرض ، فبهودء • وقبل أن يستقر تماماً فوق الأرض ، يتراجع قليلاً في الهواء ثم يقف : فيخلق ريش جناحيه ، ويطوي فنزخته •• ويصبح أصغر بكثير مما كان يبدو أثناء الطيران • ويظهر هذا التغيير فجائياً ، مما يذهل الناظر اليه ••

التجول : فاذا تجول للبحث عن غذائه ، فبتثاقل طوباوي معيثر •• ثم يمضي بشكل غير مرئي مما يثير العجب ••

وكانه لا يخاف ••

كانه لا يخدع •

الغدهة : بلى •• يخدع الطائر أثناء طيرانه فقط ••

أي أثناء التوجه والحركة والانطلاق وقلة التركيز ••

الغذاء :

– يحب الهدند الحشرات الكبيرة ، والهوام من أمثال المقارب والعرادين الصغيرة •

– وأثناء بحثها عن اليساريع ، تبدو الهداهد وهي تحفر الأرض بمنقارها الذي يساعدها • كما تساعدها جمجمتها القوية المظلم •

كذلك فكأما القويان ، القادران على التغلب وعلى طعن بعض الأحجار في الأرض لتحصل في النهاية على (البرقانة) أي (اليسروع) الذي يشكل الغذاء الرئيسي بالنسبة إليها •

طريقة أخرى في التقاط الطعام :

يلجأ الهدند الساحر الى رفع فريسته في الهواء •• ثم يلقفها بمنقاره ، والظاهر أن الطائر مضطر الى اللجوء الى هذا التصرف لأن لسانه قصير جداً ••

وقديماً •• لم يكونوا يعرفون آلية هذا الالتقاط وسببه ، لذا كانوا يعتبرون هذه التصرفات حركات استعراضية مدروسة يقوم الهدند بها ليسحر غيره ••

والمحظوظ من الناس •• من شاهد هدهدا يقوم بألمابه واستمراضاته أثناء تقديم واهدام الغذاء لأتشاء وأفراجه ••

وما أجمله حاملاً اليساريع •• والمنكبوت •• والبراق الى صفاره •

صوت الهدندد :

هو صوت ناعم ورتيب .

ليس رخيماً .. لكنه يسمع من بعيد ..

هو صوت فسره سليمان عليه السلام ، سمعه وفهمه من هدندده وهو ينبثه بأمر مملكة سبأ ، وبملكة المملكة ..

★ ★ ★

ولقد أجمع الواصفون .. أن الهدندد طائر رائع غير قابل للوصف لشدة جماله .

★ ★ ★

- قيل : الهدندد طائر نتن !!

فهل الهدندد طائر نتن فعلاً ؟؟

قال العلامة زكريا القزويني في كتابه « عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات »
عن الهدندد :

- الهدندد طائر نتن الرائحة .

- وهو يلعّخ عشه برجيع الانسان ، فيحتمل أن يكون ننته منه ا

... وتراه في الربيع « فاتحاً فاه » يخرج الذباب من حلقه ويطير ..

- وكل مكان به الهدندد لا يوجد به حشرة « الأرضة » .

- فاذا مرض الهدندد يأكل العقارب الجبلية يزول مرضه .

- وتعتقد العرب .. أن قنزته تعلق على من به وجع في رأسه فليبرأ .

قال الجاحظ في كتاب الحيوان :

العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التي على رأس الهدندد ، ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأنه لما ماتت .. جعل قبرها على رأسه فهذه القنزعة هوض عن تلك الوعدة .

والهدندد طائر نتن الريح والبدن من جوهره وذاته .. فرب شيء يكون منتقناً من

نفسه من غير عرض يعرض له ، كالتبوس والحيئات وغير ذلك من أجناس الحيوان .. أما العرب فتجعل النتن شيئاً خامر الهدندد لسبب تلك « الجيفة » التي كانت مدفونة في رأسه .

ويزعمون أن الهدندد هو الذي كان يدل سليمان عليه السلام على مواضع الماء في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها .

ويروون عن نجدة الحروري ، ونافع بن الأزرق أنهما قالوا عن ابن عباس : انك تقول
عن الهدندء إذا نقر الأرض ، حرف مسافة ما بينه وبين الماء !! والهدندء لا يبصر الفخ
دوين التراب حتى إذا نقر الثمرة ، انضم عليه الفخ !!

لقال لهما ابن عباس : إذا جاء القدر . . عمي البصر .

وقد عنى ابن عباس هُندء سليمان عليه السلام بعينه ، فان القول فيه ، خلاف
القول في سائر الهدء .

وقال الجاحظ أيضا :

الهدء يطلب الزبل لعمته . . حتى إذا وجد منه نقله كما تنقل الأرض من التراب . .
وبنى بيتا كما تبني الأرض وفيه غائط .

فإذا طال مكوثه في هذا البيت ، وفيه أيضا ولد . . وفي مثله تربى ، وهدنه ينمو
بتلك الرائحة . . وأخلق به أن يورث ابنه النتن الذي علقه ، لذلك يكون منتنا !!

* * *

وفي العيوان :

ليس من المستحب قتل الهدء ولا تقتلوا الهدء فإنه كان دليل سليمان عليه السلام
الى قرب الماء وبعده . . وأحب أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا في أقطار الأرض . .

مركز تقيت كيتوير * يوم رمدى

طائر الصوفية :

عمد الفلاسفة المسلمون الصوفيون الى الاسقاطات الرمزية الفلسفية والروحية للنفس
والروح وما وراء الطبيعة ، فاستماروا لها أحوال الطير . . وانطلاقاته . . وتوجهاته ،
بل ربما اختفاه في الألق المجهول أيضا .

ومن أشهر المؤلفات في التصوف ، والذي أدرجت فيه الاسقاطات الرمزية على الطيور
كتاب : « منطق الطير » لفريد الدين النيسابوري المعطار . .

وأعلام التصوف الفارسي ثلاثة على التسوالي :

سنائي الفزنوي - فريد الدين المعطار - جلال الدين الرومي .

والمعطار اسمه : محمد ، ولقبه : فريد الدين ، وينسب : الى نيسابور ، وكنيته :
المعطار : توفي عن ثمانين عاما في الفترة بين ٥٩٠ - ٦٠٥ هجرية ، وتاريخ وفاته غير
محدد تماما .

* * *

يتحدث العطار عن الغناء التام ورؤية الخالق بعين الزوال .
والغناء الصوفي ، هو الذي تتوارى فيه الارادة والشخصية والشعور بالذات .. وكل
ما سوى الخالق .

والغناء الصوفي يعني الغناء السلبي والبقاء الايجابي [كالفناء عن الماصي] .
ومن يمشق عالم الغيب ، فهذا هو العشق الحق .. الخلي من كل عيب ..

* * *

يرد الهدهد على البلبل وهو يتباهى بمشق الورد فيقول :
« يا من تملقت بالصورة .. لا تتباه أكثر من ذلك بمشق الجميل ، فمشق الجميل
شيء ماله الزوال .. يصيب العاقل بالضجر والملل » .
ويرد الهدهد على العجلة وهي تتيه غروراً بتملقها بالجواهر :
« فاذا زالت الألوان عن الجوهر عاد حجراً لا قيمة له » .
ويمبر العطار بواسطة الهدهد عن تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا .

* * *

أما الطائر الرئيس ، فهو طائر غير معروف في تسميات الطيور العادية .. رمز اليه
بكلمة (سيمرغ) وتعني رقم « الثلاثين » في اللغة الفارسية .
والطير الباقية ، تتجمع بأسمائها العادية ، ذات الرموز ، في طريق الصوفية ، لتتجه
نحو « السيمرغ » التي نعتها البعض بلفظة « المنقاء » المستحيلة .
وأشهر طيور الصوفية هو :

الهدهد : هو الدليل وهادي الطريق .. ومرشد كل واد .. وصاحب أسرار سليمان
والحافظ لها ، والمكبل الشيطان .. الزاج به في السجن [والشيطان رمز الشر الموجود في
النفس] ..

ويرمز بالهدهد الى ارادة الخير .

حديث الهدهد مع الطيور في طلب السيمرغ (١) :

اجتمعت طيور الدنيا جميعها ، ما كان منها معروفا وما هو غير معروف وقالوا جميعاً:
في هذا العصر وذاك الأوان ، لا تخلو مدينة قط من سلطان ، فكيف يخلو اقليمنا من ملك ،
وأشئ لنا أن نقطع طريقنا أكثر من هذا بلا ملك ؟ ربما لو يساعد بعضنا البعض ، لتمكنا
من السمي ..

(١) كتاب « منطق الطير » للعطار .

سارع الكل الى الاجتماع والبحث عن ملك أو عن سلطان .. فاقبل الهنْدُ مَضطرباً
لكثرة الانتظار .. اقبل بين الجمع لا يقر له قرار .. جاء مرتدياً على صدره حلقة
الطريقة ، ، جاء وقد علا مفرقه تاج الحقيقة .. جاء وقد خبر الطريق .. جاء بعد أن
اطلع على ماضيه من قبيح ورشيق قال :

أيها الطير اني بلا ريب مرشد الحضرة ورسول الغيب .. جئت مزوداً من الحضرة
بالمعرفة .. جئت وقد فطرت أن أكون صاحب أسرار ، ومن نقش اسم الله على منقاره ليس
بمبيد أن يدرك المزيد من الأسرار . اني أميش نهب همومه زمناً طويلاً ، ولا صلة لي بأي
إنسان .. إذ .. عندما أكون مشغولاً بالأم الملك ، لا يمكن أن يصبني من الجند أي ألم .

انني تحدثت مع سليمان كثيراً .. فلا جرم أن أكون مقدماً على خيله ، فان هبت عنه
لحظة .. أرسل من يطلبني في كل مكان .. وهو لا يصبر عني برهة .. فعسب الهنْدُ
الى الأبد هذه المنزلة .. الفخ ..

د انشروا الأرواح وسبروا في الطريق .. وامضوا قدماً نحو تلك الأعتاب .

★ ★ ★

تصرفات الهنْدُ وطبائه :

مشت الهداهيد غير مرئية مما أثار العجب .
مررت بحيث لا يلحظها أحد من حيوان أو طير أو بشر ..
ثم طارت .. غريبة الأطوار طارت .. بهيكلها الموشى وجناحها الكبير المقلّم ..
فبدت .. فراشات .. كبيرة .. هائلة .
انطلقت تطير بتغزات وعتبات في السمام الزرقام .. وبدت تدور في دورات متماوجة .
لتقطع هذه الدورات بهبوط مفاجيء .. غير متوقع .
بين حين وحين .

هبوط عمودي .. لا يستطيع أحد تكهنه ..
ولا يفسره سوى هوى الهنْدُ .

★ ★ ★

فاذا حطت الهداهيد على الأرض وتأرجعت ..
وإذا رمت فراثها في الهواء والتقطت .
وإذا غيرت طبائعا بين فترة وأخرى ..
ولربما غيرت طبعا حسب طباع المعيطين بها .

لهي مرءة حذرة .. ومرءة طيئة ..

وهي (أحياناً) تشق بالانسان فتتركه يقترب منها ..

ولكن .. الى مدى مقبول .. فالهداهيد لا تُخدع ..

الا اثناء طيرانها الشعاعي المجبول بالغرابة ..

اذا حطت الهداهيد وطارت .. فهو السحر .. والجمال ، والانبهار ..

* * *

والعلم الحديث ... يعتبر أن تصرفات الهدهد دون شك غريبة وشاذة .. لا تفسير

لها ولا لمزاج الطائر الجميل ..

فاذا دق ناقوس الخطر :

فان ذلك يجعل الهدهد يتخذ وضعية معينة ا .

يتسمّر بلا حراك وهو على الأرض .. ويطوي الذيل والجناحين ..

يريد الهدهد بذلك أن يقلّص حجمه ..

ورأسه يصبح مرمياً نحو الخلف ..

والمنقار يصبح مرفوعاً الى الأعلى .. حماية وتحفظاً ،

حتى .. يزول الخطر ..

التهيؤات :

والغريب .. أن الخطر قد يكون أحياناً [متغيلاً] تابها لمزاج الهدهد !!

فهل للهدهد تهيؤات ؟ هل يهلوس الهدهد !!

أم أنه يرى ما لا ترى الطيور !!

يسمع أصوات الماضي والحضارات .. وللمل .. يسمع صوت سليمان هاماً منذ

السحيق في الأجواء ...

* * *

الطائر الانفرادي :

وحيداً .. فريداً من نوعه .. يطير الهدهد ، ويبعد وحيداً

ولا يشاهد بشكل رفوف أو قطعان الا في الصيف ..

حين تشكل الهداهيد عائلات صغيرة .. وتنطلق مع أفراخها في السماء ..

فاذا وقفت المشيرة الهندندية على الارض سارت الهداهد وهي تحج برأسها كالعمام
 • واذا طارت •• طارت بصمت •• ودون انتظام
 • والهندد الوحيد •• طار أيضا وذهب بصمت
 • ومضى يتلاعب في طبقات الهواء حسب هواء

على قسم الأشجار :

• وفي الاماسي الحلوة •• يتمركز طائر سليمان على قمم الأشجار
 يراقب ٩. يشاهد ٩. يحلم ٩. يستنتج ٩.
 لا أحد يعلم ا.

ويصافر حجمه بمد وقوفه بعد أن يفلق جناحيه وينفلق على (ذاته)
 مؤكداً لا أهميته أمام الذات الكبرى ••
 والأشجار تقول مرحباً •• بطائر الصوفية ا.



المقارنة بين ما ذكره القزويني والجاحظ وبين المعلومات الموسوعية الحديثة :

هل الهندد طائر نتن قدر ٩٩؟
 ورد في موسوعة اللاروس المجمعية :
 عش الهندد قدر جداً ••
 تختلط فيه رائحة هذه الطيور مع رائحة الرجيع والزبل •
 والعش يكون في حفرة أو صخرة دون شيء من الزخرفة والتزيين الفني
 لكنه من الممكن أيضاً أن تبيض الأنثى مباشرة على الأرض أو الخشب •
 في هذا العش تبيض الأنثى من ٥ - ٨ بيضات تكون مدهونة بالفانط طيلة المدة ،
 من قبل الأم •
 وقد يمشش الهندد في أعشاش غيره شرط أن لا يكون العش أعلى من ٣-٤ أمتار •
 والبيض طويل غير لامع •• مخضر قليلاً أو مسمر ••
 ولديه نقاط بيضاء في بعض الأحيان ••

حضان البيض :

ويهتم الذكر بالأنثى .. فهو يعضن في البداية لأن الأنثى تكون (متعبة) من التبيض ثم تتمركز الأنثى وتحضن وحدها .. ويكون الذكر مشغولاً طيلة الوقت في احضار الغذاء ، فيذهب من ثماني إلى عشر مرات ليحضّر اليساريع .
وفي كل مرة يصل فيها إلى العش .. يمد رأسه نحو اليفته ويضرب منقارها بمنقاره .. قبل أن يعطيها الغذاء ..
هي تحية الهدهد !!

* * *

نعود لنتساءل عن قول القزويني قبل ثمانئة عام: في أن الهدهد طائر قنر نتن !!

القول الفصل :

لا يعتبر الهدهد طائراً قنراً جداً وعلى الدوام ..

لكن الأم تطلي بيوضها فعلاً بالفائط .

وتكوم منه في العش تكويماً ؟

وبعد التفقيس ، تبقى الأفراخ شهراً كاملاً في العش .. حتى تكتسي أجسامها بالريش المشابه لريش أبويها .. وأثناء هذا الشهر تكون بين القافورات والرجيع ؛ لكن أجسامها تتخلص تدريجياً ، من نتن ، له رائحة خاصة تذكر باللحم المتفسخ [البيفة]
مراجعة قاسم علوم عربي

وهذه الرائحة ناتجة من هذه خاصة هي « الفدّة الزمكية » UROPHYGIENE وهي هدد شعبية عند عجز الطائر ، يحمي أفراسها ريشه ، وتكون غير مستعملة في هذه السن .

والأنثى :

تفرز نفس الإفرازات في كل مدة تبيضها وحضانتها .

والهدهد .. تتخلص تدريجياً بعد الطيران والانطلاق ، من هذه الرائحة .

لكن ذلك لا يعني أن الأنثى لا تهتم بنظافة العش !!

التعاون :

لفي كل مرة .. وبمساعدة الذكر ، تقوم الأنثى بعنبة الفضلات الفائطية كلها ، فقط ، في حال صغر العش وضيقه ، وفي حال كثرة الأفراخ الذين يعيشون متراصين ، تكون عملية تنظيف المكان بالنسبة إليها صعبة للغاية ، فتتجمع الأقدار ليتحول العش إلى وكر أسن .

طريقة غريبة في دفاع الافراخ عن نفسها :

اذا وصل خطر ما الى العش :

فان الافراخ ترمي بنفسها على مسافة الفضلات الفائضية .

وهذا التصرف الدفاعي المترافق بالصغير .

يلطخ الافراخ بالننتن والرجيع .

★ ★ ★

طفولة غريبة .. للهدهد الغريبة !! وطريقة أغرب في الدفاع عن النفس .

★ ★ ★

المقارنة :

١ - المعلومات واحدة .. فمن المؤكد وجود الننتن ورجيع الانسان في عش الهدهد ، وقد فسّر العلم وجود الرجيع كخطة دفاعية لحفظ النوع . كما فسّر وجود الروائح البشعة بافرازات الغدة الزمكية .

ويحق لنا أن نتساءل : لماذا هو الرجيع بالذات ؟!

الآن الرائحة التي تعتبر من أقبح الروائح ، جعلت الهدهد لشدة ذكائه وحرصه على أفراده يستدل على « أحكم خطة دفاعية » !!

وقد كانت هذه الخطة مستعملة إبّان الحرب العالمية الاولى .. اذ كان المتحاربون يتراشقون بالفازات الخائقة .. وقد استعملت هذه الخطة ، ضمن ما استعملت في سوريا .. وكانت العامة تدمو هذا الغاز : (الغاز المُنخِيق) .

★ ★ ★

وعلى أي حال .. فان لجوء الهدهد الى الرجيع لصيانة نسله ، لم يبرره العلم بعد !! ولعله ، يبقى سرا من أسرار الهدهد !!

٢ - يفتح الهدهد فمه في الربيع فعلا .. لكن .. لتلقف الذباب .

أما أن تخرج الحشرات من حلقه .. فلملها كانت كثيرة العدد في العهد البعيد أيام الحر .. فاذا تلقف الهدهد عدداً كبيراً منها .. ازدرد البمض .. ونجا البمض هارباً .. وهذا لا يناقض مقولة العلامة زكريا القزويني .

٣ - لا شك أن الهدهد يتغذى بالحشرات .. وطعامه الأثير من الهوام هو المقارب والحراطين الصغيرة .. وهذا ما ذكرته موسوعة (اللاروس) الفرنسية عن الهدهد . ولا شك .. أن العرب .. شاهدت الهدهد وهي تتغذى بالمقارب ، وهذا يؤكد الخطة

البيئية المحكمة في الحفاظ على التوازن .. فكل مخلوق ، مسخر ، بشكل أو بآخر ،
 وغيرياً لتمييز بقائه ، وللمعدن من التكاثر الشديد لمخلوق معين آخر .
 أما العرب .. فقد ظننت أن الهداهد تتداوى بالمقارب .. لسُميئة المقارب ..
 ولعل في رأي العرب وجهة نظر لم يفسرها القدامى الـ .

٤ - أما ذكر الجاحظ ، عن شفاء الآلام الرأسية بواسطة وضع قنزعة الهدهههه على
 الرأس !! فذلك ناشيء عن الأسطورة التي أوردها في كتابه « الحيوان » وقد سبق
 الكلام عنها في البحث .. وتتلخص في أن الهدهههه حمل قبر أمه على رأسه فأثابه الله
 تعالى بهذه القنزعة الجميلة فوق رأسه .
 لذا .. اعتبرت العرب ، قنزعة الهدهههه ، طريقاً للشفاء من آلام الرأس .

* * *

وعلينا التذكير بأن المعتقدات الغربية في العصور الوسطى ، كانت تؤمن باستخلاص
 بعض المواد الشافية من جسم الهدهههه .. تستعملها بواسطة النقع والغلي ، لتقوية
 الذاكرة .. وللمعدة البصر .

وبذلك .. يلتقي الشرق والغرب في أهمية استخلاص البلسم من بعض أعضاء
 الهدههههه لشفاء آلام [الرأس] .
 هو طائر الصوفية .

وهدهههه واحد بين الهداهد : هو طائر سليمان عليه السلام ..

هو طائر الفراشة ! كتحقيق كالمطور علوم راسدي

هو الطائر الجميل المبهج ، الرائع .

الغريب الأطوار .. المضطرب التحليق .

نادية الغزي

* * *

□ مصادر البحث :

- مجلب المخلوقات وخرائب الموجودات للعلامة زكريا القزويني .
- الحيوان للجاحظ .
- منطق الطير لبهاء الدين النيسابوري العطار .
- اللاروس المعجم - قسم الطيور - موسوعة الحيوان اللاروس .
- طيور أوروبا وفرنسا فريدناند ناغان .

اللغة العربية والاصطلاح العلمي

د. وليد سراج

تنتمي اللغة العربية الى مجموعة اللغات السامية ، التي تضم ايضا الكنعانية والفينيقية والعبرية والآرامية والنبطية والبابلية والسريانية والعبشية . ولقد اندست هالبية تلك اللغات ولم يبق منها سوى آثار ورسوم على الأحجار والجلود ، أما اللغة العربية فعاشت وبقيت ولا تزال تنتشر ، بل وتتوسع ، في بقاع من الأرض عديدة .

القرآن واللغة العربية

شك أن السر في أسباب خلود العربية وبقائها إنما يكمن في القرآن الكريم ، الذي حفظها بحفظه من قبل الرحمن ، كما في سورة الحجر/ ٩ [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ] ، ومنعها مرونة كبيرة ومقدرة عظيمة على التعبير عن مختلف المعاني الطارئة في حياة الناس . الأمر الذي أدى إلى أن تتسع العربية لكمية هائلة من الاصطلاحات والاستعمالات الجديدة بسرعة فائقة ، وجل هذه الألفاظ كلمات عربية أعطيت معاني جديدة . وبذلك تلونت الألفاظ بدلالات مختلفة في فكر أو علم ، وهذا خير دليل على أنها قادرة على مواجهة أسس الظروف وأهدها والتفوق عليها .

زد على ذلك أن الإسلام جعل تعلم اللغة العربية جزءاً من أجزاءه ، لا يكمل إسلام المرء إلا به ، بل لا تصح العبادة - كالصلاة مثلاً - إلا بتلاوة القرآن بلسان عربي مبين . فضلاً عن كون القرآن المرجع والميزان الثابت لقياس نحو اللغة العربية وصرفها ، فأجماع العلماء

(*) خبير الإعلام العربي لدى المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة . ص ٥٦٦٦ ، حلب - سورية .

معتود على أن ما خالف نحو القرآن أو قواعده - من الناحية اللغوية أو البلاغية - مردود لأنه كلام رديء . وهذا سر قوة اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية ، التي تنادي مدارسها النحوية الحديثة بضرورة ألا يخطئ والنحو كلام الناس ، لأن مقياس صحة الكلام عندها هو الشبوح على الألسنة ، سواء اختلف كلاماً قديماً أم لم يخالف . وهذا يفسر سهولة فهمنا نحن العرب لكلام أجدادنا حتى في فترة ما قبل الاسلام ، بينما لا يستطيع الأوروبيون أن يفهموا ما كتب في لغاتهم قبل ٤٠٠ سنة فقط الا بجهود جهيد ، وبالاستعانة بالقواميس لحل غموض اللغة ، التي باتوا يطلقون عليها اسم «الكلاسيكية» أو «القديمة» نظراً لتغير أساليبها وقواعدها . والأمر ليس كذلك بالنسبة للغة العربية ، التي لا يمكن أن تتفرع إلى لغة «كلاسيكية» وأخرى «عصرية» ، بل هي لغة فصحي تتكلمها ويتكلمها جميع الناطقين بها ، وأن كانت هناك لهجات محلية أو عامية في البلدان العربية .

اللغة العربية لغة العلم

لا تكون اللغة علمية حتى تستوعب علم وفكر الأمة ، وتمكن الناطقين بها من أخذ العلم واستساغته ، ثم تمثله والابتداع فيه ، لذا يجب أن تتولر فيها شروط ، أهمها : الوضوح ، وسلامة البنيان اللغوي ، والابجاز ، والقصد إلى حقيقة الأمور ، وعدم العناية الكبيرة بالشكل ، والمنطقية ، والشمولية ، إضافة إلى وحدة المفهوم التركيبي للجملة العلمية . والحقيقة أن اللغة العربية تمتلك كل هذه الخصائص وغيرها بأوضح ما يكون ؛ فهناك اتصال وثيق بينها وبين الطبيعة ، وبينها وبين المجتمع ، كما أن للحرف العربي زمنيته ودلالته ومعناه ، واللغة عموماً سمعتها الاشتقاقية التي تتميز بل تنفرد بها عن سائر اللغات الماضية والحاضرة مهما بلغت درجة انتشارها . وفي العربية أيضاً تتمتع معاني اللفظ الواحد ، وتتمتع كذلك المترادفات للمعنى الواحد ، ولديها من الامكانيات التضاد والاعراب والتعويض والتقديم والتأخير ، ووضوح وسهولة النطق ، والاقتصاد والابجاز ، والنمو والحركية .

تأثير العربية في مختلف اللغات العالمية

أثرت اللغة العربية في مختلف اللغات العالمية وتأثرت بها ، شأنها في ذلك كشأن أي كائن حي يؤثر ويتأثر بالوسط المحيط . ويؤكد البحث العلمي أن مفردات جملة عربية قد غزت قواميس لغات عالمية عديدة ، في الوقت الذي أخذت فيه العربية عن لغات أخرى . أي أنها تفاعلت - ولا تزال تتفاعل - مع غيرها بإيجابية مشرة .

ففيما يخص الانكليزية مثلاً يقدر الخطيب (١) وجود ٣٠٠٠ كلمة عربية اسلامية في معاجم اللغة الانكليزية ، مضافاً إليها خمسة آلاف كلمة مشتقة من الكلمات الأصلية . ويكفي للدلالة على ذلك مثلاً أن تفتح على الصفحة ١٠٤٩ من قاموس Webster's Third New International Dictionary الشهير الصادر عام ١٩٧١ في الولايات المتحدة الأمريكية ، لترى في العمود الأيمن فقط كلمتين عربيتين ، هما: حَجْرِي hegari ، وهجرة Hegira (= Hejira) .

وأما تأثير اللغة العربية في اللغة الألمانية فإن المستشرقة هونكه (٢) قد أتتته لهارس كتابها القيم « شمس العرب تسطع على الغرب » بملحق ضم أكثر من ٢٥٠ كلمة عربية بعضها مشترك مع قائمة بيير جيرو الفرنسية . وظهر في ميونيخ قاموس صغير للألفاظ الألمانية من أصل عربي ، وضعه الدكتور نبيل عثمان وتناول فيه بالشرح ٣٠٠ كلمة أصلها عربي (٣) . والشيء نفسه يقال بالنسبة إلى لغات أخرى ، مثل : الفرنسية ، الإيطالية ، البرتغالية ، والإسبانية التي لا يزال حوالي ١٧٪ من المفردات فيها عربياً .

وكان تأثير اللغة العربية في اللغات الشرقية أكبر وأعمق أثراً ؛ فقد قدر آيبك (٤) عدد المفردات العربية بنحو نصف محتويات القاموس الإندونيسي ، وتراوحت نسبة الكلمات العربية في بعض الكتب الفارسية (٥) ما بين ٥٠ - ٨٠٪ . وحتى في العصر الحديث لم تسلم اللغة التركية من دخول الكثير من المفردات أو المقاطع اللفظية العربية إليها ، مثل : قهوجي وسكوجي وكتبخانه (٦) .

تأثير العربية بغيرها من اللغات الأخرى

تتصارع اللغات بعضها مع بعض كما تتصارع الكائنات الحية تماماً ؛ وتكون حصيلة ذلك إما غلبة ، أو انهزاماً ، أو تمازجاً واقتراضاً بين اللغتين . وتتوقف حدة ذلك على عوامل كثيرة ، أهمها : درجة اختلاط الشعبين الغازي والمفروز ، وحضارة كل منهما ، وطبيعة اللغة . . . وقد تفرج اللغتان بعد الصراع دون غالب أو مغلوب ، بل تعيشان معاً جنباً إلى جنب .

إن عملية الاقتراض أو الاستمارة اللغوية مهمة ومفيدة ، لأنها تفيد اللغة المقترضة وتثنيها . . . فاللغة العربية حين اتصل أهلها قديماً بالثقافات المجاورة ، واحتكروا بشعوبها دخلتها ألفاظ من لغاتها . ففي الجاهلية أخذ العرب عن الفارسية ألفاظاً كثيرة ، مثل : أبريق ، سندس ، ديباج ، نرجس ، وسلسبيل . ومن الهندية أخذوا : فلفل ، قرنفل ، كافور ، وشطرنج . ومن السريانية : كنيسة ، كهنوت ، ناقوس ، وفدان . ومن اليونانية أخذوا : فردوس ، قسطاس ، قنطار ، وترياق . ومن العبرية : تورا ، يم ، أسباط ، وجهنم . ومن الحبشية أخذوا : نجاشي ، تابوت ، مشكاة ، وأرائك . ومن النبطية اقترضوا : أسفار (جمع سفر وهو الكتاب) ، وحواريين ، وأكواب . ومن القبطية أخذوا : معكأ ، وأترج . ومن الزنجية اقترضوا : حصب جهنم ، ومينساء . ومن البربرية أخذوا : المهل (عكر الزيت) ، وأبأ (أي المرعى أو الحشيش) .

الاصطلاح العلمي

يُعتبر الاصطلاح العلمي إحدى الركائز الأساسية للتعبير العلمي ؛ إذ بدونهِ تسير لغة العلم على رجل واحدة ، وتتعطل عملية الإبداع والابتكار . ويمثل الاصطلاح الواحد تحدياً عظيماً لاختبار قدرة اللغة على استيعابه والتعبير عنه . وما لم تتمكن اللغة ، أي لغة ، من ذلك ، فإنها توصف بالمعجم والمعجز والقصور .

تفسير الاصطلاح

الاصطلاح أو المصطلح العلمي - وهو مصدر اصطلاح - لفظ علمي يؤدي المعنى بوضوح ودقة ، ويميز عن اتفاق طائفة على شيء مخصوص . والكلمة علم اصطلاحاته . وعرفه آخرون بأنه أداة البحث ولغة التفاهم بين العلماء ، وليس شمة علم بدون قوالب لفظية تؤديه . وقيل عنه بشكل أدق أيضاً انه اللفظ الذي يضمه فرد أو هيئة للدلالة العلمية أو حضارية معينة ، بشرط أن يكون قد تواضع عليه المشتغلون بذلك العلم ، أو المعنيون بذلك الجانب من الحضارة . وعلى هذا فان شرطه الأول بجميع أبعاده ، هو : اللفظ ، والمعنى ، وأهل الشأن . وتقدير الدراسات في هذا المجال أن حوالي ٥٠٪ من مفردات لغات البلدان المتقدمة في ميادين العلم تتكون من اصطلاحات علمية وفنية (٧) .

الاصطلاح العربي : أزمة لغة أم أزمة أفراد ؟

ان أزمة وضع الاصطلاحات وتوحيدها لا تترتب سبباً للمرب دون غيرهم ، بل هي قضية ملحّة تشغل العلماء في العالم بأسره ، الى حد جعل العلماء السوفييت ينعنون علم الاصطلاح بأنه علم العلوم .

وليست العربية بأقل قدرة من اللغات النحوية على أن تكون لغة علمية . وان ظهر شمة عجز في مجال ما فليس مرده قصورها ، بل تقصير الناطقين بها عن العناية بإيجاد الاصطلاح الملائم ، والتصدي لاغنائها بالترجمة والتأليف . وعلى ذلك فان الأولى بأن يكون في تفصيص الاتهام هم أهل اللغة ، وليس اللغة (٨) ، ذلك أن العربية لا تفتقر الى منهج علمي لوضع الاصطلاح وصياغته .

وقد شهدت العربية في التاريخ الحديث محاولات عديدة جادة قام بها علماء فحول ، كان مهمهم الفوص في بحور هذه اللغة الفنية بحثاً وتنقيحاً عن الاصطلاحات الخاصة بكل حقل من حقول العلوم التطبيقية والانسانية ، مثل : الدكتور عمر فروخ في مجال العلوم الفلكية ، واللواء الركن محمود شيت خطاب في العلوم العسكرية ، والدكتور حسني سبيح في العلوم الطبية ، والأمير مصطفى الشهابي في العلوم الزراعية . . . وغيرهم كثير .

شروط الاصطلاح ومواصفاته

لا يمكن للفظ أن يتخذ اصطلاحاً ، ويروج ، ويدخل في الشروة اللفظية للغة ما حتى تتحقق فيه الشروط التالية ، وأهمها :

- ١ - البساطة والوضوح في الدلالة على الفكرة العلمية أو الفنية .
- ٢ - الإيجاز والالتصار ما أمكن على أقل عدد من الكلمات والحروف .
- ٣ - أن يكون موضوعياً في دلالته بحيث لا يكون مقصوراً على جانب دون آخر .
- ٤ - ألا يتمدد الاصطلاح للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل العلمي الواحد .

- ٥ - أن يتم وضعه بعد الرجوع الى لغات أخرى ليكون أكثر دقة وشمولية وقابلة للرجوع .
- ٦ - أن يسمح بالاشتقاق بما لا يضر بكيان اللغة . ويتفرع عن ذلك أيضاً ضرورة ترجمة الاصطلاح المفرد بمفرد مثله ، لان ذلك يساعد على التصريف والاشتقاق .
- ٧ - أن يمكن ضبطه بتطبيق قواعد تحديد شكل الاصطلاح ؛ كان يعبّر عنه بصيغة المفرد أو الجمع ، أو فرزه الى مكونات مستقلة يعبر عن كل منها بصيغة الاسم ، وتستغنى بصورة مستقلة كاصطلاح تكشيف عند وضع المكانز .
- ٨ - أن يُراعى في وضعه عدم اللجوء الى الألفاظ العامية الا لضرورة أو توضيح .

طرق توليد الاصطلاح

١ - إحياء اللفظ العربي القديم :

اجتمعت الجامعات اللغوية الأربعة (في دمشق والقاهرة وبغداد وعمّان) ، وهيها من الهيئات العلمية في الوطن العربي ، على ضرورة إحياء اللفظ القديم قبل التمجيل بابتكار الجديد ، وعلى ضرورة اللجوء الى المصادر العربية قبل تعريب الاصطلاح الأجنبي . ولا يؤخذ على هذا الاجماع العام ما يلاحظ أحياناً بين تلك الجامعات من اختلاف في بعض الاصطلاحات . وما دامت الاصطلاحات العربية القديمة مؤدية للمعنى المقصود بدقة ووضوح فانها تقدم على الحديثة ، ما لم يشع استعمال الأخيرة مع عدم مخالفتها لقواعد الاستعمال العربي المفصيح .

وينطبق هذا بشكل خاص أيضاً على ما يعرف باستمادة المفردات المهاجرة ، وهي المفردات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية من خلال التفاعل الحضاري ؛ سواء أكان ذلك بالمجاورة والتداخل ، أم عن طريق الترجمة ، أم عن طريق لغات أخرى أخذت عن العربية كالتركية والفارسية . والألفاظ الفلكية والرياضية هي خير مثال على هذا النوع من الاصطلاحات ، نحو : لفظة تسمية النجم « واقع » التي صبحت في كثير من اللغات الأوروبية « Vega » أو « Vega » ، وكذلك « العبرام » وليس « الهمبرا » ، و « الجبر » لا الجبرا وهيها كثير .

٢ - التضمين وتوليد المعاني :

ويقتصد به تضمين المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية معنىً جديداً نظراً لوجود تشابه ولو كان جزئياً بين المعنيين ، حتى يصبح الاصطلاح الجديد مع الوقت حقيقة معرفية في الدلالة على المعنى الجديد بدلاً من مدلوله المندثر ، أو يضاف مدلول جديد الى المدلول القديم . مثال ذلك : « السيارة » وهي تمنى في الأصل القافلة ، و « القاطرة » التي تعني اليوم عربة في خطوط السكك الحديدية وهي في المناجم القديمة الناقلة التي تتقدم القافلة ، و « الطيار » ويمنى قائد الطائرة وهو في الأصل الفرس الشديد . ومثل ذلك إحياء الأرض

الموات، وأرض العشر، والمزارعة... وغيرها كثير من الألفاظ العربية المتناثرة في ثنايا
وذخائر التراث العلمي العربي، والتي تستطيع التعبير - وبدقة تامة - عن مدلولات العديد
من الاصطلاحات الوافدة التي قد نحار اليوم في إيجاد المقابل لها بالعربية .

٣ - الاشتقاق :

وهو كما عرفه الامام السيوطي (١) « أخذ صيغة من أخرى على اتفاقها معنى ومادة
أصلية وهيئة تركيب، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلافا حروفاً أو
هيئة » . وأكثر العلماء على أن الاشتقاق نوعان : صغير - وهو الشائع - وكبير ؛
فالصغير هو أن تتفق جميع المشتقات في ترتيب حروفها الأصلية كزراع من زرع ، والكبير
لا يشترط فيه ذلك نحو جذب وجذب . وقد جرت العادة على اعتماد المصدر أو الماضي
المجرّد أصلين للاشتقاق، سواء أكانا من أصول عربية أم معربة . وتتبع هذه الوسيلة حين
لا يوجد لفظ عربي مقابل للاصطلاح الجديد، لذا فالاشتقاق ذو فائدة جمّة لمدّ المصطلحيين
بالفاظ جديدة هم في أمس الحاجة إليها .

ولما كانت قواعد الاشتقاق في العربية من أكثر القواعد اللغوية دقة وانتظاماً فإن
الحاسوب (الكمبيوتر أو الكبتار إذا شئنا ترميز الاصطلاح) قد يكون أنسب جهاز
لتطبيق القواعد المتنوعة للحصول على كثير من الصيغ التي تؤدي دلالات مختلفة . إذ يمكن
بمساعدة برنامج حاسوبي يناسب قواعد بناء الألفاظ واشتقاقها وضع الكثير من الاصطلاحات
العلمية . وهذا أمر أساسي لدخول اللغة العربية في أوجه نشاطات عالمنا المعاصر ،
وتعاملها مع الآلة عموماً في تطبيقات شتى ، نذكر منها : الترجمة والنشر بمساعدة الحاسوب،
والفهم الآلي للغات الطبيعية، وتعرف الكلام، وتركيبه ، وتعليم العربية ، وصناعة المعاجم
العامة والمتخصصة ، وغيرها .

ولنا أسوة حسنة في أجدادنا القدامى ، الذين عمدوا إلى الاشتقاق من : المصادر (أي
أسماء المعاني) فاشتقوا من المصدر « كتابة » اسم الفاعل « كاتب » واسم المفعول « مكتوب » ،
أو أسماء الأعيان العربية ، فقالوا : فضض وكبّرت وأبحر من الفضة والكبريت والبحر
على التوالي . وكذلك من أسماء الأعيان المعربة ، فقالوا : بسنتنة ونحالة وفهرس
من البستان والنحل والفهرسة على الترتيب السابق نفسه . ويمكن التوسع أكثر في
الاشتقاق من الألفاظ المعربة مع المحافظة على أوزانها في العربية، مثل كلوزة chlorination
وأكسدة oxidation وأكسجة oxygenation . وقد يتسع حد الاشتقاق أيضاً ليشتمل الأعمال
التي يمكن أن تصاغ من الجامد ، وما يشتق منها من أسماء ، مثل : اشتقاق الفعل تحجّر
من الحجّر ، والتحجّر أو التحجبر ونحوهما من المشتقات . ويتضح من تلك الأمثلة وجوب
إتقان المعرفة بأصول اللغة ، والالمام بالقواعد الأساسية للنحو ، حتى يستقيم التعبير ، ويسلم
من فساد اللفظ والمعنى .

ونستنتج مما سبق أن اللغة العربية لغة اشتقاقية ، أي تتوصل كلماتها عن طريق
استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس مطرد . وهي بهذه الميزة تتفوق
على اللغات العالمية الأخرى التي لا تعرف هذه التحول الداخلي « بل تقتصر على طريقة
« الإصاق » التي سنبجتها في الفقرة التالية .

٤ - الالتصاق :

يقصد بالالتصاق affixation اضافة زائدة في صدر الكلمة تسمى سابقة prefix ، أو في عجزها وتسمى لاحقة suffix ، أو في وسطها وتسمى حشوا infix ، ويغلب على اللغات الأوروبية كما أسلفنا الاعتماد على السوابق واللواحق في صوغ الكلمات ، ويقل - ان لم ينعدم - استعمال الحشو أي التدخل في قلب الكلمة بالتغيير أو الاضافة . ويمكن في العربية استعمال السوابق واللواحق والدواخل أو الحشو بشكل مقاطع كاملة تعبر عن معنى لغوي ، وهذا يتم الحصول على قدر وفير من الكلمات . واللواحق في العربية نوعان :

(أ) لواحق اشتقاقية : وهي التي تدخل في صوغ الاصطلاحات العلمية ، وتصبح جزءاً من بنية الكلمة . ومن ضرورها لاصقة المصدر الصناعي وهي ياء مشددة تضاف اليها تاء مربوطة ، مثل : الانسانية وتقابلها في الانكليزية (-ism) . وهناك أيضاً اصطلاحات تصاغ قياساً على المصدر الصناعي وتنتهي باللاصقة (-ty) مثل : الموصلية conductivity

(ب) لواحق دلالية : وهي ما يتصل بالكلمة من أدوات تفيد معنى زائداً عليها ، ولا تعتبر جزءاً من بنيتها . من أمثلتها : الأدوات « ما » و « لا » حين تلصقان بالفعل ، مثل : ما جرى ولا أدري فينشأ عنهما الاصطلاحان الماجري واللاأدرية .

وهذه اللواحق تشيع في اللغات الأجنبية بالسابقة (iso) الدالة على التساوي، والسابقة (mono) الدالة على التوحيد ، والسابقة (poly- أو poli-) الدالة على التعدد، والسابقة (sub) الدالة على التصغير ولدينا في العربية قاعدة للتصغير .

٥ - النحت :

عرف العرب النحت وصنفوا فيه بعض التأليف ، وحدده ابن فارس (١٠) بقوله : « العرب نحتت من كلمتين كلمة واحدة ، وهجنس من الاختصار » . ويعتبره بعض اللغويين أيضاً نوعاً من الاشتقاق أسموه : الاشتقاق الكبار ، واتخذوه مذهباً في الاشتقاق ، وذهبوا الى أن قسماً كبيراً من الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف انما جاء نتيجة لنحت كلمة من كلمتين . ويعرف النحت أيضاً بأنه انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على سبيل الاختصار ، بشرط أن يكون هناك توافق في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه . وليس هناك قاعدة واضحة لتحديد الحروف المنتزعة من كل كلمة لتأليف الكلمة المنحوتة . وكان النحت قليلاً في الماضي ، الا أن مجامع اللغة أقرت جوازه عند الضرورة ، وقد اتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قراراً حول استخدام النحت في وضع الاصطلاحات العلمية ، اقتطفناه من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (١١) ، هذا نصه : « النحت ظاهرة لغوية احتاجت اليها اللغة قديماً وحديثاً . ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات . وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته ، ومن ثم يجوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر اسم أو فعل عند الحاجة ، على أن يراعى ، ما أمكن ، استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد . فان كان فعلاً كان على وزن فَعْلَل أو تَفَعَّلَل الا اذا اقتضت غير ذلك الضرورة ، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة » . فهو إذن بهذا المعنى يمكن استخدامه في وضع

الاصطلاحات العلمية اذا دعت الحاجة اليه ، الا ان التوسع فيه قد يتنافى مع الحس اللغوي العربي ؛ ذلك ان المنحوت يطمس معنى المنحوت منه ، كما أنه يحتاج الى ذوق سليم للخروج بكلمة ذات معنى وسهولة الوقوع على الأذن ، مثل : برمائي amphibian ، وكهرطيسي electromagnetic .

ومع ان النحت يولد ألفاظاً جديدة ، فانه لا يفني الثروة اللفظية للغة العربية ، ذلك ان الضرورة التي تلجئ اليه لا تتكرر كثيراً . وغالباً ما تكون ترجمة الاصطلاح الأجنبي بكلمتين سهلتين ومعبرتين أفضل من كلمة منحوتة غامضة أو مستهجنة .

٦ - التركيب المزجي :

ويعتبر من وسائل توليد الالفاظ ووضع الاصطلاحات . وحسبما أوردته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، يعرف التركيب المزجي بأنه ضم كلمتين أحدهما الى الأخرى ، وجعلهما اسماً واحداً إعراباً وبنياناً ، سواء أكانت الكلمتان عربييتين أم معربتين . ويكون ذلك في أعلام الأشخاص والأجناس والظروف والأحوال والأصوات والمركبات العددية والوحدات الفيزيائية . ويختلف التركيب المزجي عن النحت بأنه تركيب يحافظ على حروف الكلمتين الممزوجتين . وقد أجازت مجامع اللغة العربية استعماله عند الضرورة . من أمثلته : ماورد ، ومازهر ، وبمليك وميتورولوجيا العربية Meteorology في الانكليزية .

٧ - الترجمة :

لجأ العرب الى الترجمة منذ العصر الأموي ، ونبغ منهم مترجمون مهرة ، أمثال : ابن المقفع ، وصالح بن عبد الرحمن عن الفارسية ، وحنين بن اسحاق ، وبني نوبخت عن اليونانية . واشتهر عندهم نهجان مختلفان في الترجمة : أحدهما يقوم على أساس ترجمة المفردات واحدة إثر واحدة وهو ما يعرف اليوم بالترجمة الحرفية ، والثاني يقوم على أساس الترجمة الضمنية أو ترجمة المعنى وصياغته جيداً بالعربية . وقد عرف العالمان Hartmann & Stork (١٢) الترجمة بأنها نقل المعلومات من لغة الى أخرى . وهذا يشابه ما قاله القاسمي (١٣) بأنها التفسير المعنوي للرموز اللفظية في اللغة برموز لغة أخرى .

وغالباً ما تكون ترجمة الاصطلاحات ترجمة حرفية ، وهذا تعتبر من أضعف الوسائل لوضع الاصطلاح ، نظراً لعدم وجود مطابقة تامة بين معاني الكلمات المتقاربة في اللغات المختلفة ، حتى وان كانت تنتمي الى فصيلة لغوية واحدة ، وترتبط فيما بينها بعلاقات ثقافية وثيقة . لذا ينبغي على مترجم الاصطلاح ألا يقتصر على المعنى الأساسي اللغوي للكلمة فقط ، بل يتمداه الى المعنى الاصطلاحي الذي يختلف بقليل أو كثير عن المعنى المجمي . مع الاستفادة بالطبع من معطيات علم النحو والصرف لتحديد صيغ الاصطلاحات ، ومعرفة مكوناتها الصرفية الأساسية من جذور وسوابق ولواحق . من هنا كان لا بد للمترجم من الافادة من معطيات علم الدلالة Semantics في تحليل المعنى ؛ إذ ان معاني الكلمات ينبغي تحليلها حسب هذا العلم لا كوحدات تصورية ، بل كمركبات مكونة من عناصر معنوية تمثل الجوانب الأساسية للمعنى (١٤) .

ولما كان معظم الاصطلاحات العلمية والفنية ترجع مكوناتها غالباً إلى اللغتين اليونانية واللاتينية ، فمن الضروري - والحالة هذه - معرفة معاني تلك المكونات لتحديد دلالة الاصطلاح ، وكذلك معرفة حدود أشكالها اللفظية لتحديد نطق الاصطلاح وصيغته الصرفية . فمثلاً عند ترجمة اصطلاح thermometer لا بد من معرفة أن المكون الأول فيه (therm-o) اليوناني الأصل هو بمعنى « الحرارة » ، والثاني (meter) بمعنى مقياس .

كما سبق ندرنا أن الترجمة كوسيلة لوضع الاصطلاح العلمي ليست عملاً هامشياً أو سهلاً ، وهي تتطلب شروطاً يجب أن تتوفر في المترجم والنص المترجم أي الصيغة الجديدة باللغة الأخرى . ومن الشروط التي ينبغي توفرها في المترجم الدراية الواسعة بكلتا اللغتين اللتين تتم بينهما عملية النقل ، والاطلاع والخبرة الواسعة في العلم الذي تترجم مادته من تلك اللغة إلى العربية . فالمشكلات التي تعترض المترجم إذن ليست لغوية بالمعنى المألوف ، ولكنها مشكلات تتعلق بالتعبيرات والتسميات والاستعمالات والاصطلاحات غير المألوفة لبعض الكلمات في مجال ما من مجالات المعرفة . يضاف إلى ذلك ، بالطبع ، ذلك الزخم الهائل والمتجدد من الاصطلاحات التي تطالعنا بها الدوائر العلمية على اختلافها ، بحيث يصل عدد ما يظهر منها في الدقيقة الواحدة إلى أربعين اصطلاحاً جديداً (١٥) . وينبغي التأكيد هنا على أن الترجمة الدقيقة للاصطلاح العلمي تعني عن تعريبه ، إذا ما تعرى المترجم الملم بأمرار العربية اللفظ العربي الأنسب لأداء مدلول اللفظ الأعجمي (١٦) ، واستعان بأهميات القواميس والمعاجم والمصادر اللفظية المختلفة ، وخاصة تلك التي أصدرتها مجامع أو منظمات أو هيئات عربية أو اقليمية أو دولية .

٨ - التعريب :

إن التعريب من طرق توليد الاصطلاح ، هو ليس هدفاً بعد ذاته ، بل وسيلة للباس المفردة الأجنبية ثوباً عربياً من حيث تغيير أصواتها ، ووزنها إلى ما ينسجم مع الذوق العربي ، ويتفق مع أحد المباني العربية وأوزانها . ويلجأ إلى التعريب حين يستمسي إيجاد مقابل عربي مقنع ، وفي هذه الحالة يفضل التعريب الجزئي على التعريب الكلي لأنه أخف على اللسان من النعت والتركيب أحياناً ، مثل psycholinguistics التي اقترح لها الفهري (١٧) سيكولسانيات . ويمكن إجراء التعريب وفق منحين :

أ) نقل الكلمة الأجنبية إلى العربية كما هي دون تغيير فيها ، وهو ما يعرف أيضاً بالنقحرة أو الكرشنة transliteration أي كتابة حروف لغة بحروف لغة أخرى . ولكي تكون النقحرة صحيحة لا بد من وجود مواصفات توحد العملية ، منعا لوجود عدة أشكال للاصطلاح الواحد . وقد دعى المجتمع الدولي هذه الحقيقة فأصدر عدة مواصفات دولية ، من بينها المواصفة الدولية أيزو رقم ٢٢٢ ، التي تهتم بنقحرة الحروف العربية إلى اللاتينية . وقامت المنظمة العربية للثقافة والعلوم بمسائل يحتوي على بعض الاختلافات من المواصفة الدولية . إلا أن الأمر الأكثر تعقيداً هو نقحرة الحروف اللاتينية

الى العربية ، وهو المجال الذي لم يظهر فيه اي عمل عربي مشترك ، باستثناء ما قام به مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وبعض العلماء مثل الشهابي (١٨) وإتيم (١٩) لتقوية صور الحروف الانكليزية بالحروف العربية على أساس الصوت الذي يلفظ به الحرف في أصله ، وليس لحرف بمفرده .

ب) نقل الكلمة الاجنبية الى اللغة العربية مع اجراء تغيير وتعديل عليها . ويطلق على العملية برمتها « الافتراض اللفوي » او « الاستعارة اللفوية » ، وهي عملية تمارسها اللغات الحية باستمرار ، للتعبير عن مفاهيم جديدة لم يعدها الناطقون بتلك اللغة من قبل .

وعند نقل اللفظ الأجنبي كما هو الى اللغة العربية يسمى « دخيلاً » ، وعند تغييره يسمى « مغرباً » . ومن أمثلة الدخيل : باذنجان ونرجس وزرنيخ المأخوذة من اللغة الفارسية ، واوكسيجين والكترون وفيوزايوم من اللاتينية ، وكذلك الالفاظ العالمية التسمية الموضوعية لتخليد ذكرى عالم او عالمة (كفولط وكوري) ، أو المركبة من احرف متعارف عليها دولياً (كرادار وليزر) . اضافة الى عدد كبير من الالفاظ التي احتواها المعجم الوسيط الذي اصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نذكر منها : إنزيم (إفراز خلوي) وجيلاتين (مادة هلامية) . ومن أمثلة المغرب الالفاظ مثل : تلفاز بدلاً من television ، وتقنية بدلاً من technology ، وفلسفة بدلاً من philosophy .

ونستنتج مما سبق أن للتعريب أيضاً أفاقاً واسعة في مجال وضع الاصطلاح العلمي ، شريطة الاحتكام الى قواعد أو ضوابط ، منها : عدم وجود المقابل باللغة العربية ، وتعذر الترجمة الدقيقة للاصطلاح الجديد ، والاحتفاظ بأصل اللفظ المغرب والأخذ فيه باقرب نطق الى العربية دون تقوُّس بأصل انكليزي أو غيره ، والخضاع لللفظ المغرب لأوزان العربية وصيغها قدر الامكان مع توحيد نطقه ، واتباع طريقة مقننة في تعريب الحروف والحركات والسوابق واللواحق في اللفظ المغرب والاسترشاد في ذلك بقواعد نطق هذه الاصوات في الاصطلاحات الاجنبية ، واخيراً أن يقسوم بالتعريب مختصون عاملون في المجال العلمي للاصطلاح ، ذلك أن أهم معيار لقياس نجاح الاصطلاح هو مدى رواجه بين المستعملين له من المتخصصين ، وقربه - ما أمكن - من أشباهه في اللغات الأخرى شريطة تساوي الشروط الأخرى . اذ لا فائدة من اصطلاح يظل حبيس الأدراج ، فكم من اصطلاحات عديدة أصدرتها مجامع اللغة لم يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

* * *

□ العواشي :

- 1 - الطيب ، أحمد شفيق ، 1981 ، معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية : قاموس انكليزي - عربي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ٧٥1 صفحة .
- ٢ - هونكه ، زيفريد ، 1969 ، شمس العرب تسطع على الغرب ، فاروق بيضون وكمال دسوقي (مترجمان) ، طبع في بيروت ، لبنان .
- ٣ - ماهر مصطفى ، 1986 ، هرض وتعليل « القاموس الصلح للالفاظ الالمانية ذات الاصل العربي » مجلة الفيصل 11٣ .
- ٤ - آبييك ، حسين ، 1988 ، تأثير اللغة العربية في اللغة الاندونيسية ، مجلة الاصلاح العدد 1٢٨ .
- ٥ - العروبي ، أحمد ، 198٥ ، اللغة العربية : تاريخها وخصائصها وآثارها في الحضارة العالمية ، في : « دراسات في الحضارة الاسلامية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٦ - الداويولي ، فتحي أنور ، 1989 ، صراع اللغات ، مجلة المنهل العدد ٤٧٢ .
- 7 — Pei, Mario, 1985. The story of language. American Library Inc., New York, USA.
- ٨ - جبر ، عبد الرؤوف ، 199٥ ، الاصطلاح : مصادره ، مشاكل وطرق توليده ، المؤتمر العلمي الاول حول الكتابة العلمية باللغة العربية : واقع وآفاق ، ١٥ - 1٣ آذار/مارس 199٥ ، بنغازي ، ليبيا .
- ٩ - السيوطي ، جلال الدين ، ت 911 هـ - الاشباه والنظائر في النحو ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية . المجلد ٢ ، ٧٤٢ صفحة .
- ١٠ - ابن فارس ، أحمد ، ت 34٥ هـ - معجم مقاييس اللغة ، نسخة مصورة عن الطبعة المصرية ، عبد السلام محمد هارون (محقق) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ٦ مجلدات .
- ١1 - مجمع اللغة العربية في دمشق ، 196٥ ، مجلة المجمع العلمي العربي ٤٥ : (٢) : ٧1٥ - ٧1٢ .
- 12 — Hartman, G. ; and Stork, A. 1972. Dictionary of language and linguistics. John Wiley and Sons, New York, USA.
- ١٣ - القاسمي ، علي ، 19٧٥ ، علم اللغة وصناعة المعجم ، مطبعة جامعة الرياض ، الرياض ، السعودية .
- 14 — Kempson, R. M. 1980. Semantic theory. Cambridge University Press, Cambridge, UK.
- ١٥ - فرحان ، اسحق ، 198٣ ، كلمة في الموسم الثقافي الاول ، مجمع اللغة العربية الاردني ، عمان ، الاردن .
- ١٦ - الصالح ، صبحي ، 19٧٣ ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .
- ١٧ - المهري القاسي ، عبد القادر ، 1986 ، المصطلح اللساني، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات - سلسلة اللسانيات ٦
- ١٨ - الشهابي ، مصطفى ، 19٦٤ ، كتابة الاعلام الاعممية بحروف عربية ، مجلة المجمع العلمي العراقي 39(٢) : ٣٦٤-٣٥٣ .
- ١٩ - اتييم ، محمود أحمد ، 198٧ ، بناء المكانز وتطويرها ، مركز التوثيق والمعلومات ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، تونس العاصمة ، تونس .

الجملة الفعلية و الجملة الاسمية

صَاحِبُ الدِّينِ الرَّعْبَلَاوِيُّ

جرى النحاة على تقسيم الجملة الى فعلية واسمية . وقالوا في تعريف الفعلية :
انها الجملة التي تبتدىء بالفعل ، وفي الاسمية : انها الجملة التي يتصدرها الاسم ، ولا
شك ان مقالتهم هذه في تعريف الجمليتين وتمييز احدهما من الأخرى تبدو شكلية
تتناول الجملة من حيث شكلها ولا تتجاوزها الى مضمونها ومادتها . قال ابن هشام في
معنى اللبيب : « فالاسمية التي صدرها اسم كزيد قائم . . والفعلية هي التي صدرها فعل
كقام زيد . . » . فهل أصاب النحاة حقا في هذه القسمة وهل تبيّنوا في بنية كل من
الجمليتين ما تتميز به فعلا من أختها من حيث اسنادها ودلالاتها وشانها في الأداء ؟

ما الفارق في الأداء بين الجملة الفعلية يتقدم فيها الفعل فيسند الى فاعله ، والجملة
الاسمية يتقدم فيها الفاعل وهو لا يزال مسندا اليه ليكون مبتدأ ، متى نختار هذه الجملة أو
تلك ؟

أشار الامام عبد القاهر الجرجاني ، في كتابه (دلائل الاعجاز) ، الى أنك اذا حدثت
عن محدث عنه ، بالفعل ، بدأت به ولم تقدم ذكر المحدث عنه ، كلما كان الفعل مما
لا يشك فيه ولا ينكر ، وهو الغالب ، قال الجرجاني : « ويزيدك بيانا أنه اذا كان
الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال ، لم يكديجيء على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير
مبنى على الاسم ، فاذا أخبرت بالخروج مثلا عن رجل من عاداته أن يخرج في كل غداة ،
قلت : قد خرج ، ولم يحتج الى أن تقول : هو قد خرج ، ذلك لأنه ليس بشيء يشك فيه
السامع فتحتاج أن تعقّقه ، الى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه . وكذلك اذا علم السامع من
حال رجل أنه على نية الركوب والمضي الى موضع ، ولم يكن شك وتردد أن يركب أو
لا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب، ولا تقول : هو قد ركب/ ١٠٤ » . ولا شك
أن الشيخ علي الجارم ، وقد تحدثنا في مقال سابق ، عن مذهبه في تمويل العرب في كلامهم
على الفعل ، قد أفاد ما قاله الجرجاني في ما تقدم :

ويقول الجرجاني في موضع تقديم المحدث عنه : « ويشهد لأن تقديم المحدث هنا يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه ، اننا اذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه انكار منكر أو اعتراض شاك ، أو في تكذيب مدّع ، كذلك في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة » .

وسترى أن القول ما قاله الجرجاني ، ولكن كيف استدل إمامنا على صحة ما انتهى إليه من الحكم ، وأي سبيل سلك في هذا الاستدلال ؟ أقول انما أتى الجرجاني بالدليل من أي التنزيل ومن كلام العرب . وقد استكثر من الشواهد وأخذ باستقراؤها وتحليلها . واذا تعذر الذهاب بالاستقراء الى حد الاستقصاء الذي اوجبه السامرائي ، فيما سبق من القول في مقال سابق ، فانه لا يمنع التمويل في الحكم على هذه الشواهد لكثرتها وتنوعها ، ومكانتها من البلاغة ، ومبلغها من إحكام السبك الى حد الاعجاز في البيان . فالاستدلال الاستقرائي هذا ، انما هو استقراء للنظائر واستشهاد بها على الامر المطلوب اقامة الحجة على صوابه . وهو يصل بصاحبه الى انتميم عن طريق ملاحظة عدة نماذج متشابهة في ناحية من نواحيها ، فيمم الحكم عليها بحيث يجعلها زمرة واحدة ، ويقوي اليقين بهذا الاستدلال كثرة النظائر والأمثلة المنتمية الى هذه الزمرة .

ولكن ما رأي العلماء المعاصرين في ما قيل عن فارق الأداء بين تقديم الفعل واسناده الى فاعله ، وتقديم الفاعل ليكون مبتدأً وهولاً يزال مُسنداً اليه ؟ وما يتفرع على ذلك من قسمة الجملة الى فعلية واسمية .

□ مذهب الجوّاري في قسمة الجملة الى فعلية واسمية :

ذهب الدكتور أحمد عبدالستار الجوّاري ، رحمه الله في كتابه (نحو الفعل) الى أن الجملة في مثل قولك (قام زيد) قد أسند فيها القيام الى زيد ، وفي (زيد قام) قد أسند فيها القيام الى زيد أيضاً ، وليس بين الجملتين ، عند الموازنة ، إلا اهتمام المتكلم في الأولى بالآخبار عن المجيء ، وقد دعاه هذا الى الابتداء بالفعل ، فقال : (قام زيد) ، واهتمام المتكلم في الثانية بالآخبار عن (زيد) ، فقاده هذا الى تقديم ذكره فقال : (زيد قام) ، فالجملة في العاليتين كلام أسند فيه ما تخبر به ، أي (المسند) وهو الفعل ، الى ما تخبر عنه أي (المسند اليه) وهو الاسم . قال الأستاذ الجوّاري : « وحقيقة الأمر انه لا فرق بين نحو قام زيد ، وزيد قام ، من حيث طبيعة التركيب . فالمسند فعل في الجملتين ، واذن فطبيعة الاسناد فيهما واحدة ، يقصد فيها الى النص على معنى الزمن . والفرق بينهما ينحصر في تقدم المسند اليه في الجملة الثانية للاهتمام به ، وتأكيد الحكم عليه . أما الجملة الأولى فهي الجملة الفعلية على رسلها ، وعلى الوجه المألوف بينها ٢٠ و ٢١ » .

وهكذا يرى الأستاذ الجوّاري أن تقديم الفاعل بالابتداء لا يغير من تركيب الجملة فيقول : « وليس تقديم الفاعل بالأمر الغريب ، فقد اجازته نحاة الكوفة ، وهو في اللغات الحديثة وما تحدرت عنه من اللغات القديمة ، هو المألوف / ٨٥ » .

فالجملـة الفعلية عند الجوارـي هي التي أسند فيها الفعل إلى الاسم ، أي الفاعل ، سواء اتقدم هذا الفاعل أم تاخر . وأما الاسمـية فهي التي أسند فيها الاسم إلى الاسم . قال الجوارـي : « ويبدو أن الجملة العربية قد تميزت في صورتها التي وصلت إلينا بأن التركيب فيها يكون بين الاسم والفعل تارة ، وبين الاسم والاسم تارة أخرى . وتسمى الصورة الأولى الجملة الفعلية ، وتسمى الصورة الثانية الجملة الاسمـية » ، ثم انتقل إلى تفصيل الكلام على الجملة الاسمـية فقال : « وهذه الصورة الأخيرة لا يمكن أن تخلو في ما نعرف من اللغات ، ولا سيما الحديثة ، من فعل وإن كان فعلاً ناقصاً يعين على الاستناد ويحدد زمانها / ١٨ » .

ويمضي الأستاذ الجوارـي في الكلام على الجملة الاسمـية ويورد لها الأمثلة فيقول : « فنحن نقول في العربية إذا أردنا استناد القيام إلى زيد : زيد قام ، ونقول في اللغات الأخرى ما يشبه قولنا في العربية : زيد يكون قائماً ، وهكذا » . ويمتدح على ذلك فيقول : « وقد يكون التركيب الاسمـي أو الجملة الاسمـية في اللغة العربية ثمرة من ثمار التطور والتحول الذي قطمته هذه اللغة في عهود سحيقة ، موعلة في القدم ، لا نكاد نتبين لها ملامح ، أو نشهد لها آثاراً ، وإنما نقف في بعض المظان على ظواهر تدل على أن العربية كانت تسلك سبيل غيرها من اللغات فتستعين بفعل الكون ، كان الناقصة ، على الاستناد ، ولعل من ذلك ما يذكره النحاة عن (كان الزائدة) ، في مثل قول أم عقيل ابن أبي طالب :

أنت تكون ماجد نبيل إذا تهب شمالاً بليـل

وواضح أن فعل الكون في مثل هذه الجملة لا فائدة فيه ، فإن تركيبها من اسمين غني عن معنى ذلك الفعل غير محتاج إليه ، اللهم إلا إذا ريد معنى المضى فيؤتى بالفعل ماضياً ، ويكون حينئذ هو المسند أو يكون جزءاً منه / ١٩ » .

□ خلاصة مذهب الجوارـي في الجملة الفعلية والاسمـية :

أقول يمكن إيجاز مذهب الجوارـي هذا بأن الجملة الفعلية هي التي أسند فيها الفعل إلى الاسم ، وهو الفاعل ، ولا يعني تقديم الفاعل أو تأخيره إلا الاهتمام به في مثل قولك (زيد قام) أو الاهتمام بما أسند إليه وهو الفعل في مثل قولك (قام زيد) . أما الاسمـية فهي ما أسند فيها الاسم إلى الاسم كقولك (زيد قائم) ، وهي صورة حديثة انتهت إليها العربية بعد أن تجاوزت أطواراً كانت تستعين فيها على الاستناد بفعل ناقص ، هو فعل الكون ، كما تفعل اللغات الأخرى ، ولا سيما الحديثة .

□ الرأي في ما تصوره الجوارـي حداً لتمييز الجملة الفعلية من الاسمـية :

خالف الجوارـي في ما انتحاه ، مذهب جمهور النحاة ، وتفرقت بينهما السبل . إذ اعتد قولك (زيد قام) جملة فعلية ، وقصر الاسمـية على مثل قولك (زيد قائم) . وسنجد الرد عليه وعلى من اتخذ نوعاً من مذهبه بحد . على أننا نود أن نشير هنا إلى أن قوله إن

اللغات الحديثة لا تزال تستعين في الاسناد بفعل مساعد في مثل قولها : (خالد يكون قائما)
وأن العربية قد عرفت هذا في طور من اطوارها، في نحو قول أم عقيل ابن أبي طالب :

أنت تكون ماجد نبيل
إذا تهب شمال بلييل

حين اعتدوا فعل الكون المضارع زائدا لا يفيد في موقعه معنى . أقول ان دهواه هذه
فيها نظر ، ذلك أن اللغات الحديثة ، ومنها الأريسة ، تستعين بأفعال مساعدة في الاسناد
كفعل الكون والملك . وهو أمر معروف . ولكن ما بال الجوارح يقتصر للعربية وطرائقها
في الاسناد بما تستن به اللغات الأخرى كالأرية ، وينهج لها في التمييز سبيلها . وكيف اتفق له
ان يتحقق أن العربية إنما كانت تجري على اسلوب هذه اللغات وتحاكيها في طريقة
الاسناد . وهو لو برهن أن اللغات الأكادية والاشورية والبابلية والكنمانية والآرامية من
أحوال لغتنا العربية ، بل لهجاتها الموزلة في القدام ، إنما تستعين بأفعال مساعدة وأن
العربية كانت تحذو حذوها وتطبع على غرارها لكان له في ذلك وجه صالح ومذهب
متقبل ، ولم يتحدث المتخصصون في هذه اللغات عن شيء من هذا القبيل .

ولا ننس أن ما خصت به العربية من ظاهرة الاعراب الذي تتكشف عن علاقة أجزاء
الجملة بعضها ببعض قد أسقطت عنها ضوابط كان لا بد للغات غير العربية من التزامها ،
فتميزت بذلك أصول كل منهما في التركيب بسماوات خاصة بها . وقد أشار الدكتور محمد
خير الحلواني الى نحو من هذا فقال : « والاعراب بهذه الوظيفة أغنى اللغة العربية
عن أن تجعل تركيبها ذا حدود صارمة مقيدة لا يمكن تجاوزها والخروج على أعرافها ، كما
هو الحال في اللغتين الفرنسية والانكليزية » ، وأردف : « ومن هنا لم يكن التركيب فيها
بحاجة الى فعل الكون ، أو الى فعل مساعد ، كما لم تكن به حاجة الى تقديم الفاعل وتأخير
المفعول تمديدا واجبا ، ولا يستلزم أن يكون الاسم قبل الفعل المغبر عنه ، لان صرامة
التركيب جاءت في اللغتين الفرنسية والانكليزية تعويضا عن فقدان الاعراب الذي كان لأمتهما
اللاتينية والجرمانية اللتين تفرقتا عنهما - مجله الفيصل / العدد : ٣٧ » .

وهكذا أمكن في العربية تقديم المفعول على الفاعل وتأخيره ، كلما أملت دقة التعبير
ودعا اليه وجه الأداء ، وكان من شأن الاعراب ان يكشف عن الفاعل والمفعول على السواء ،
خلافا للفتين الفرنسية والانكليزية حين أوجبتا تقديم الفاعل وتأخير المفعول . ففي التنزيل :
« إنما يخشى الله من عباده العلماء - فاطر / ٥٨ » ، وقد بدأ بالاعراب فاعلية (العلماء)
ومفعولية (لفظ الجلالة) ، وكشفت عن ذلك القرينة المعنوية ، فالخشية إنما تقع من
العلماء ، وقد نزه الله عن الخشية . وفي تقديم المفعول ، وهو اسم الله ، عرض هو
الاخبار بأن الذين يخشون الله هم العلماء خاصة دون سواهم ، فقد قصد بتقديم المفعول
حصر الفاعلية ، ولو اطرر لانعكس الأمر ، أي لو قيل : (إنما يخشى العلماء الله) لفهم أن
المخشي هو الله دون غيره ، ولا تكون الخشية مخصوصة بالعلماء ، مقصورة عليهم ، بل
يشارك فيها غير العلماء ، فهم يخشون الله وقد يخشون سواه ، خلافا للعلماء فهم لا يخشون
سواه .

وهكذا قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماما / البقرة ١٢٤ » . فالفاعلية للفظ الجلانة والمفعولية لابراهيم ، وقد دللت على ذلك قرينة المعنى ، فالمبتلى هو الله ، والضمير لابراهيم لتقدمه لفظاً وأن تأخر رتبة ، إذ يكفي أن يتقدم مرجع الضمير لفظاً أو رتبة . وأنت تقول : (أخطائي العطف) فتعلم أن الفاعل هو العطف ، وقد تقدم عليه المفعول ، كما تقول : (أخطات العطف) فتعلم أن العطف هو المفعول ، وقد تقدم عليه الفاعل .

أما دعوى الجوّاري أن العربية قد عرفت الاستعانة بفعل مساعد في طور من أطوارها بدليل قول أم عقيل « أنت تكون ماجدٌ نبيلٌ » برفع (ماجد نبيل) على أنه خبر للمبتدأ ، فليس ذلك باليقين الثابت بالدليل المقنع .

□ زيادة (كان) في كلام العرب في غير موضع زيادتها :

ذكر النحاة أن (كان) تختص من بين أخواتها بجواز زيادتها بلفظ الماضي ، بين شيئين ليسا جاراً ومجروراً ، فتكون زيادتها للدلالة على الزمن الماضي . وهي إذ أشبهت (أمس) حكم لها بحكمها ، كما ذكر ابن عصفور أبو الحسن الأشبيلي الأندلسي ، في كتابه (الضرائر) . وقد ورد هذا في سمة الكلام كقول قيس بن غالب البدري : « ولدت فاطمة بنت العرشب الكملة من عيس لم يوجد كان مثلهم » .

وأما زيادتها بلفظ المضارع فانه نادر . وقد جاء عليه قول أم عقيل « أنت تكون ماجد نبيل » وقول حسبان :

كان سيئة من بيت رأس يكون مزاجها غسل وماء

برفع (مزاجها) على المبتدأ ، ورفع (عسل) على الخبر ، كما قال ابن السيد في أبيات المانسي من كتابه (اصلاح الغلغل) . والسيئة بالهمزة الخمرة . وبيت رأس قرية بالشام اشتهرت بجودة الخمر . وقد حمل ابن هشام في (المغني) رفع (عسل وماء) على اضمار الشأن . وروي (مزاجها) بالنصب أيضاً ، وجعلت المعرفة الخبر والنكرة الاسم ، وذهب سيبويه أي أن هذا غير جائز في الاختيار وأنه خاص بالشعر ، لأن الأصل أن يخبر بالنكرة عن المعرفة . وتأوله أبو علي الفارسي على أن انتصاب (المزاج) على الظرفية المجازية ، أي يكون في مزاجها . وقد روي برفع (المزاج) ونصب (المسل) على الأصل . وأقرب ما يقال في تأويل ما جاء أنه من الضرائر الشعرية ، كما قاله كثيرون . (الضرائر لمحمود شكري الألويسي/ ٣٠٨) ذ

□ المخزومي ومذهبه في الجملة الفعلية والاسمية :

ومن بحث تقسيم الجملة من الباحثين المعاصرين ، الدكتور مهدي المخزومي ، في كتابه (في النحو العربي) ، وقد نهج في ذلك سبيلاً عقد فيه العمد في قسمة الجملة على (المُسند) ، كما فعل الدكتور الجوّاري . فالجملة فعلية إذا كان فيها المسند فعلاً فأفاد التجدد ، فقولك (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان فعليتان ، خلافاً لما أجمع عليه جمهور

النعاة . قال المخزومي : « الجملة الفعلية هي الجملة التي يدل فيها المسند على التجدد ، أو التي يتصف فيها المسند اليه بالمسند اتصافاً متجدداً . وبعبارة أوضح ، هي التي يكون فيها المسند - فعلاً - لأن الدلالة على التجدد انما تستمد من الأفعال وحدها/ ٤١ » .

وقال المخزومي في ايضاح مذهبه : « ومعنى هذا أن كلا من قولنا طلع البدر والبدر طلع ، جملة فعلية . أما الجملة الأولى فالأمر فيها واضح ، وليس فيها خلاف مع القدماء . وأما الجملة الثانية فاسمية في نظر القدماء وفعلية في نظرنا ، لأنه لم يطرأ عليها جديد الا تقديم المسند اليه ، وتقديم المسند اليه لا يغيّر من طبيعة الجملة ، لأنه انما قدم للاهتمام به/ ٤٢ » .

فالجملة الاسمية ، عند المخزومي ، ما كان المسند فيها اسماً فافاد الثبوت والدوام ، كقولك (البدر طلع) . قال المخزومي : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام والثبوت ، أو التي يتصف فيها المسند اليه بالمسند اتصافاً ثابتاً غير متجدد ، أو بعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه الجرجاني في ما اقتبسنا من كلامه ها هنا/ ٤٢ » .

وقد أخذ المخزومي على النعاة أنه قد فاتهم الكشف عن الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فقال : « فان تقسيمهم الجمل الى اسمية وفعلية مبني على أساس لفظي محض ، لم يلحظوا فيه الفرق بين طبيعتين مختلفتين ، فضيقوا مجال الجملة الفعلية حتى قصروها على ما تقدم فيها الفعل ، ووسّعوا مجال الاسمية حتى أدخلوا فيها ما ليس منها ، من جمل فعلية تقدم فيها الفاعل على الفعل . . » ، وأردف : « ولو كان تحديدهم الاسمية والفعلية قائماً على أساس من ملاحظة واعية للفرق بين طبيعتي الجملتين ، لكان عملهم أجدى ، ولكفّروا أنفسهم والدارسين والنصوص المدرسية ، عناء ما تكلفوه من تأويل وتخريج/ ٢١٨ » .

□ الرأي في ما جاء به المخزومي :

أقول الجواب عما جاء به المخزومي انما يتناول جهتين :

الأولى : أن قوله (طلع البدر) و (البدر طلع) جملتان متشابهتان من حيث الاسناد ولذا كانتا فعليتين ، قوله هذا لا أظنه صحيحاً ، وسنبين في ما بعد دلالة كل من الجملتين ، حين الموازنة بينهما ، وأن النعاة على حق في الفصل بين الجملتين . وقد فات المخزومي الأصواب كذلك حين قال : « أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام . . » وبعبارة أوضح : هي التي يكون فيها المسند اسماً ، على ما بينه الجرجاني ، في ما اقتبسنا من كلامه ها هنا ، فالجرجاني لم يقصر الجملة الاسمية على الجملة التي جاء مسندها اسماً ، في ما اقتبسه المخزومي من كلامه ، وكل ما أشار اليه في مثاله هو ثبوت الانطلاق لزيد في قولك : زيد منطلق ، وتجده في قولك : هو ذا ينطلق ، لا أكثر من ذلك ولا أقل !

الثانية : ان في وصف الفعل بالتجدد ونسبة ذلك الى الجرجاني نظراً ، ذلك أن التجدد الذي عناء الجرجاني ، كما سنبسط القول فيه ، مقصور على المضارع ، على حين جاءت أمثلة المخزومي على الفعل الماضي !

□ مقالة الجرجاني في تجدد الفعل واستمرار اسم الفاعل :

ذكر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز/ ١١٥) أن الاسم الذي أسند الى (زيد) في قولك (زيد منطلق) يثبت معنى الانطلاق لزيد، دون أن يقتضي تجدده ، وأن الفعل الذي أسند الى (زيد) في قولك (زيد ينطلق) يثبت به الانطلاق الذي يتجدد فيقع من (زيد) شيئاً بعد شيء . وأكد في موضع آخر (ص/ ١١٧) أن لكل من الاسم والفعل المسندين في هذه الجملة الاسمية دلالة تغاير دلالة الآخر، فقال: « ولا ينبغي أن يفرك اذ تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر أننا قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم ، كما نقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم ، فان ذلك لا يقتضي أن يستوي المعنى فيه استواء لا يكون من بعده افتراق، فانهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعلاً والآخر اسماً ، بل كان ينبغي أن يكونا فعلين أو يكونا اسمين » ، فما الذي قصد اليه الجرجاني بقوله : الفعل الذي يثبت به المعنى المتجدد ، والاسم الذي يثبت به المعنى غير المتجدد ؟

القول صواب المسألة عندي أن الفعل الذي قرن بالتجدد ، في مقالة الجرجاني ، هو الفعل المضارع خاصة ، وأن الاسم الذي وصف بعدم التجدد هو اسم الفاعل ، المعد للتعلم ، الجاري على معنى الفعل ولفظه ، واسم الفاعل لا يعد للتعلم ما لم يكن للعال أو الاستقبال ، دون الماضي ، وما لم يكن معتمداً على نفي أو استفهام أو مبتدأ صريح أو منوي ، أو موصوف ، أو ذي حال .

فقد ذهب كثير من النحاة ، في مثل قولك (خالد دأب في عمله) أنه بمعنى قولك (خالد يدأب في عمله) . ورأى الجرجاني غير ذلك حين أكد أن في دلالة الفعل ، أي المضارع وهو (يدأب) من التجدد ما ليس في الاسم ، وهو اسم الفاعل (دأب) . وأشار الى مثل ذلك بعض الأئمة . قال ابن مالك في (الفهية) : « أحمد ربي الله خير مالك » فعقب الأشموني على هذا فقال : « أي أتى عليه الثناء الجميل اللائق بجلال عظمته وجزيل نعمه ، التي هذا النظم من أثارها » ، وأردف : « واختار صيغة المضارع المثبت لما فيه من الأشعار بالاستمرار التجديدي . أي كما أن الآء تعالى تتجدد في حقنا دائماً ، كذلك نعمده بمحامد لا تزال تتجدد . . » وفي قوله : « واختار صيغة المضارع » ما يشفر بخصوصية هذه الصيغة في الدلالة على التجدد .

وهذه شواهد الجرجاني وأمثله . ومنها قوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد - الكهف/ ١٨ » . قال الجرجاني : « فان أحدا لا يشك في امتناع الفعل هنا هنا ، وأن قولنا : وكلبهم ببسط ذراعيه ، لا يؤدي الفرض . وليس ذلك الا لان الفعل يقتضي مزاوله وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاوله وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً ، بل تشبهه بصفة هو عليها ، بالفرض ان تادية هيئة الكلب/ ١٣٤ » . وقد ذهب جماعة الى أن اسم الفاعل في الآية ، وهو (باسط) جاء للماضي ، أي أن زمن حصوله للمخبر عنه سابق نزول الآية الكريمة على رسول الله (ﷺ) ، وقد أجيب عن ذلك بأن الكلام قد جاء على حكاية الحال ، بدليل قوله تعالى (وكلبهم

باسط) والواو للحال ، ولا يحسن أن يقال هنا : وكلبهم بسط ، بالماضي ، وإنما يحسن أن يقال بمد واو الحال : وكلبهم يبسط . وقد جاء قبل الآية قوله تعالى : « وَنُقَلِّبِهِمْ ذَاتَ اليمينِ وَذَاتَ الشمالِ » فأتى فيه بالفعل المضارع الدال على الحال أو الاستقبال .

ومن شواهد الجرجاني في هذا الباب ، قوله تعالى « هل من خالق غير الله يرزقكم - فاطر/ ٣ » فقد ذهب الجرجاني أن الفعل قد أتى بصيغة المضارع لأن الرزق يتجدد ساعة بعد ساعة ولو قيل (هل من خالق غير الله رازق لكم) بصيغة اسم الفاعل لكان المعنى غير ما أريد (ص/ ١٣٦) .

وهكذا قول الجرجاني (زيد منطلق) فإنه لا يعني عنده غير اثبات الانطلاق لزيد ، أما (زيد ينطلق) فقد قال فيه : « فإذا قلته ، أي زيد ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً جزءاً وجعلته يزاوله ويُرْزِجيه . . » .

ويتبين بما قلنا أن الجرجاني قد رأى التجدد في صيغة المضارع دون سواها ، وقد استنّ بسنته في وصف الفعل بالتجدد الدكتور المخزومي في ما اقتبس عنه ، لكنه لم يقصر التجدد على المضارع منه ، فقال : « أن الجملة الفعلية هي التي يدل فيها المسند على التجدد . . . وبعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند فعلاً ، لأن الدلالة على التجدد إنما تستمد من الأفعال وحدها/ ٢٤١ » . ثم استشهد في اثبات مقالة التجدد هذه بمثال جاء به على صيغة الماضي فقال : « ومعنى هذا أن كلاً من قولنا طلع البدر والبدر طلع جملة فعلية . . » ، فقاته بذلك فهم مذهب الجرجاني في التجدد ، وفي دعواه أن (البدر طلع) جملة فعلية .

وانظر بعد إلى ما جاء في (الكليات) لأبي البقاء الكفوي . قال أبو البقاء : « اشتهر عند أهل البيان أن الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث - ١٨٢/٥ » ، فأشار إلى نحو مما خلص إليه الجرجاني ، في هذا الباب ، ولم يشير إلى ما يريده بالفعل صراحة . لكنه بحث هذا في موضع آخر فقال : « الجملة الاسمية إذا كان خبرها اسماً فقد يقصد بها الدوام والاستمرار الثبوتي بسمونة القرائن » ، وأردف : « وإذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجديدياً - ١٧٤/٥ » ، فكشف عن أن ما يريده بالفعل هو المضارع .

وعلق أبو البقاء على اسم الفاعل ودلالته على الاستمرار ، على كونه للحال أو الاستقبال ، فقال : « اسم الفاعل إذا كان للاستمرار يصح إعماله نظراً إلى اشتماله على الحال والاستقبال ، والغاؤه لاشتماله على الماضي - ٣١٧/٥ » .

□ الثبوت في الصفة المشبهة :

وإذا دل اسم الفاعل على الاستمرار والدوام فإن الصفة المشبهة أصل في الثبوت . فقد جاء قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميئون المؤمنون/ ١٥ » . قال الامام البيضاوي في تفسيره : « لصائرون إلى الموت لا محالة ، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت ، دون اسم الفاعل » . ولكن أو لا يصح هنا أن يقال : (ثم إنكم بمد لمانتون) بلفظ اسم الفاعل ؟

أقول يصح هذا إذا أريد به الاستمرار ، فقد أشار الى ذلك الامام البيضاوي نفسه ، حين أردف : « وقد قرئ به » أي قرئ باسم الفاعل أيضاً .

ولا يخفى أن دلالة (الميت) بتشديد الياء ، في الآية ، نحو دلالة (المائت) ، أي لا بد أنهم صائرون الى الموت ، ولا يعني أنهم فارقوا الحياة ، وكذلك قوله تعالى : « إنك ميتٌ وإنهم ميتون - الزمر/ ٣٠ » بتشديد الياء . قال الراغب في مفرداته : « قيل معناه ستموت ، تنبئها أنه لا بد من الموت ، كما قيل : والموت حتم في رقاب العباد » .

وجاء في الكليات لأبي البقاء الكفوي : « والميت مغففة هو الذي مات ، والميتٌ بالتشديد ، والمائت هو الذي لم يمّت » : وقد ذهب الى هذا جماعة ، لكن الذي عليه نصوص المعجمات أن المائت هو الحي ، والميت بالتخفيف هو الذي فارق الحياة . أما الميتٌ بالتشديد فقد يعني الحي كالمائت ، ويعني فاقد الحياة كالميت بالتخفيف . وجاء في الحديث الشريف : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . والميت هنا فاقد الحياة ، وقد روي ها هنا بالتخفيف . (أحزاب الحديث النبوي للمكبري - ص/ ١٢١) .

□ مذهب الدكتور السامرائي في الجملة الفعلية والاسمية :

بسط الدكتور السامرائي مذهبه في هذه المسألة ، في كتابه (الفعل زمانه وأبنيته) ، فسلك طريقة المخزومي في ما رسمه من حد يفرق به الجملة الفعلية من الاسمية ، وجرى على منهاجه فجعل قوله (سافر محمد) و (محمد سافر) سواء في الاسناد ، لأن المسند فيهما هو الفعل ، وهذا هو سبيل الجواربي نفسه في الموازنة بين الجملتين .

لكن السامرائي قد أخذ على المخزومي قوله بتجدد الفعل . قال السامرائي : « وقد خالف الدكتور المخزومي الأقدمين في حد الجملتين الفعلية والاسمية . فقد ذكر أن الجملة الفعلية ما كان فيها المسند اسماً ، وقد أصاب الأستاذ المخزومي الحقيقة في الحد الذي رسمه للجملة ، فإن : سافر محمد ، جملة فعلية هي نفسها : محمد سافر . غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة الجرجاني واتخذها دليلاً للتمييز في الجملة الاسمية والفعلية ، لم يفتن الى أن هذه المقالة حجة عليه . فالتجدد المنسوب للفعل المسند الى الاسم ، لم يتحقق في قولهم : محمد سافر وسافر محمد . ومن هنا لا يمكن للسيد المخزومي أن يعتبر الجملتين فعليتين . » ، وأردف : « أما نحن فنقول ان محمد سافر وسافر محمد جملتان فعليتان ، ما دام المسند فعلاً ، وليس لنا أن نلصق التجدد بالفعل لأن ذلك ليس من منهجنا ، لأن الشواهد لا تؤيد هذا التجدد المزعوم » .

وقد أوضح السامرائي رايه في تجدد الفعل فقال : « وكيف لنا أن نفهم التجدد والحدوث في قولنا : مات محمد وهلك خالد وانصرف بكر . فهذه الأقوال كلها أحداث منقطعة لا يمكن لنا أن نجريها على التجدد والحدوث . واختيار الجرجاني لـ : ينطلق ، مفيد له في اثبات مقالته . أما أن يكون الفعل : سافر وذهب ومات ، وما الى هذا ، فليس من ذلك ما يحقق غرض الجرجاني ، ولا ما ذهب اليه المخزومي - ٢٠٥/٢٠٤ » .

□ الجواب عما جاء به السامرائي :

أقول في الجواب عما جاء به السامرائي انه لا حجة لمقالة القائلين أن (سافر محمد) و (محمد سافر) سيان في الاسناد لان المسندفيهما هو الفعل ، وسين ذلك بعد . أما تجدد الفعل الذي أتت به مقالة الجرجاني ، فقد تأكد أنه مقصور على المضارع ، خلافاً لأمثلة المخزومي . والسامرائي على حق حين أنكر تجدد الأفعال في ما أورده من الأمثلة ، لا لشيء سوى أنها أتت على صيغة الماضي ، لا المضارع ، كما بسطنا القول فيه قبل . اذ ليس في قولك (سافر محمد) و (محمد سافر) أو في قولك (البدر طلع) و (طلع البدر) ما يشعر بالبتة بتجدد الفعل . ولكن ما الذي أراده السامرائي بقوله : « غير أن الدكتور المخزومي الذي أفاد من مقالة الجرجاني ، واتخذها دليلاً للتمييز بين الجملة الاسمية والفعلية ، لم يفتن . . » ؟ فما الذي أفاده المخزومي من مقالة الجرجاني واتخذ منه دليلاً للتمييز بين الجمليتين ؟

أقول الذي فعله الجرجاني هو أنه بسط القول في دلالة مختلف الصور التي تؤديها الجملة الفعلية والاسمية ، فأبان مثلاً فرقاً ما بين دلالتها (زيد ينطلق) و (زيد منطلق) الاسمييتين ، وبين (قتل الخارجي زيد) و (قتل زيد الخارجي) الفعليتين ، وبين (ينطلق زيد) الفعلية و (زيد ينطلق) الاسمية ، وبين (ضربت زيداً) الفعلية و (زيد ضربته) الاسمية . . وهكذا .

ومما قاله الجرجاني مثلاً في الفرق بين أن يكون المسند في الجملة الاسمية اسماً لا تجدد فيه ، أو فعلاً متجدد الحدث ، فقال في كلامه على (فروق الخبر) : « أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء ، من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء . أما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء . فإذا قلت : زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فديناً ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك زيد طويل وأمر قصير . وكما لا يقصد ما هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث كما توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقتضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتمرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من اثباته لزيد . وأما الفعل فإنه يقصد منه إلى ذلك . . فإذا قلت زيد هو ذا ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجملته يزاوله ويزجيه . . - ١٣٣/١٣٤ ، . فقد جاءت مقالة الجرجاني هذه للتمييز بين كون الخبر اسماً يثبت به المعنى للمبتدأ دون تجدد ، أو فعلاً يثبت به وقوع الحدث منه في تجدد . والذي أفاده المخزومي من هذا أنه اتخذ الفرق بين الخبرين حداً يميز به الجملة الاسمية من الفعلية ، وذلك ما لم يخطر للجرجاني على بال أو يجري له في حساب ، هذا ما ذهب على المخزومي من أن الذي عناه الجرجاني بالفعل ، هو المضارع دون سواه .

وقد أفاد السامرائي نفسه من مقالة الجرجاني هذه ، فعكاها عنه في كتابه (الفعل زمانه وأهنيته/ ٢٠٢) ، وعقّب عليها فقال : « وعلى هذا فالجملة الاسمية ما دل فيها المسند على الدوام والثبوت » ، وأردف : « ومقالة الجرجاني هذه في التمييز بين الفعل والاسم يثني عليها التمييز بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية » .

وهكذا فات السامرائي في استنباطه هذا ما فات المخزومي من مقالة الجرجاني . إذ كان فرض الجرجاني من مقالته هذه بيان الفرق في الاسناد بين أن يكون الخبر اسم فاعل أو فعلاً مضارعاً (أي جملة فعلية فعلها مضارع) في جملة اسمية لم يتغير مبتدؤها ، ويؤيد ذلك قول الجرجاني بعد هذا : « ولا ينبغي أن يفرك ، إذا تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر ، أنا قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم ، كما تقول في زيد يقوم انه في موضع زيد قائم . . » ، فدل بكلامه هذا أن كلا من الجملتين (زيد يقوم) و (زيد قائم) تتألف من مبتدأ وخبر ، فهما إذن جملتان اسميتان .

□ السامرائي وموضوع النحو :

نهج السامرائي ، كما ذكرنا ، نهج الجوارري والمخزومي في التسوية به قولك (قام الرجل) و (الرجل قام) ، فنقد على الشيخ الجارم مذهبه في اتخاذ مذهب النحاة في التمييز بين الجملتين الفعلية والاسمية ، وكشف عما يعنيه تقديم الفعل في الأولى وتأخيره في الثانية ، على ما انتحاه الجرجاني في (الدلائل) ، قال السامرائي : « وهذه المسألة البلاغية لا يمكن أن تكون مادة في البحث النحوي ، والشيخ الجارم يجد في دلائل الامجاز للجرجاني ما اعانه على اثبات ما أثبتته . وهو في ذلك كالاستاذ المخزومي في التماس مادته من المصدر نفسه / ٢٠٦ » .

ثم أوضح رأيه فقال : « وعلى هذا فإن هذا المنحى ليس منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في أي وجه من الوجوه / ٢٠٨ » ، وخلص الى القول : « ولقد بحث علماء المعاني في الجملة العربية بحثاً خاصاً بهم ، ذلك لأن ما حاضوا فيه ليس من مادة النحو الذي يقتصر على أجزاء الجملة وعلاقات هذه الأجزاء ببعضها ، ووصفها كما تبدو في بناء الجملة / ٢١٢ » .

وهكذا سلك السامرائي في معالجة المسألة مسلكاً لا يتناول فيه حقيقة ما ذهب اليه الجرجاني وتابعه فيه الجارم ، في التفريق بين الجملتين ، أوه حقيقة علمية رافضة يدعمها البحث وتؤيدها الأدلة الواضحة والبيِّنات المسلِّمة وعلم اللغة الحديث ، فلا بد من الأخذ بها ، أم هو شيء لا يتصل بهذا كله فلا بد من ممارسته واستجماده ، وإنما يأبى الخوض في ذلك لأن المسألة مسألة بلاغية ، لا يمكن أن تكون مادة البحث النحوي ، وأن تحريرها يستلزم العدول الى منحى ليس هو منهجاً نحوياً ولا يقرب منه ، في أي وجه من الوجوه .

اقول يمكن الاجابة عما ذهب اليه السامرائي من جهتين :

الأولى : أن ما يجب الفحص عنه هنا ، هو حقيقة الحد الذي اقتاس به الباحثان الجرجاني والجارم ، سواء أكان البحث فيه من شأن البلاغة أم من شأن النحو . فإذا صح أن لكل من الجملتين شأناً في التعبير لا تؤديه الأخرى ، فالجملتان متغايرتان ، وأن اشتراط النحاة في الفاعل أن يتقدم عليه فعله ليمتيز بذلك من المبتدأ الذي تبدأ به الجملة الاسمية ، أمر يقتضيه الفصل بين شأنيهما ، وأي غرابية أن تتغير معاني التركيب بتغير مواضع عناصره ؟

الثانية : أنه لا غنى لمادة النحو من بحث ما نحن بسبيله من الكشف عن تغير الدلالة في كل من الجملتين بتنقل أجزائها . فإذا كان فرض النحو الاول وقائمة اللسان من اللحن

والخطأ ، ولذا جعلوا منه العلم الذي تعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً ، فكان علم الإعراب ، كما ذكر الزمخشري في مقدمة كتابه (المفصل) فإن من أهراض النحو ، ولا شك ، انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره . . . ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، كما قال ابن جنبي في الخصائص (١/١٣٢ - ط/١٩١٣ م) ، وقد أشار الزمخشري في موضع آخر من مقدمته إلى علاقة ما بين النحو والبيان فقال : « وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن » ؛ فمبر بذلك عن اتصال النحو بالبلاغة وتلازمهما ، وقد برع الجرجاني في ذلك وبسط القول فيه . وأكد ابن سيده أبو الحسن كلام ابن جنبي في مخصصه ، حين حاول تعريف علم النحو ، فاستعمار ألفاظ ابن جنبي نفسها ولم يخرج عنها .

وقد عرضت لهذا في كتابي (مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها/١١١) ، إذ جاء فيه : « ولا يخفى أن النحو عند الأوائل هو علم العربية الذي يُعرف به وجهة كلام العرب وما يتصدون إليه في التعبير عن أهراض النفس . وقد أشار إلى ذلك الأشموني حين قال : وهو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اختلفت منها ، كما أشار إليه ابن عصفور في المقرب حين ذكر أن المراد هنا بالنحو قولنا علم العربية ، لا تقسيم الصرف . أم . أما عند المتأخرين فقد غدا النحو غالباً : علم الإعراب والبناء ، كما نبه عليه الصبان حين قال : واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجمله تقسيم الصرف ، وأردف : وعليه فيعرف بأنه علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً ، وموضوعه الكلم العربية من حيث ما يعرض لها من الإعراب والبناء . أم . وهكذا تحول النحو مما كان عليه من البحث في صحة تاليف الكلم للتعبير عما في النفس من أهراض ، إلى البحث في ضبط الأواخر إعراباً وبناءً ، ضماناً لسلامة اللسان من اللحن ، وبسط الكلام في عوامل ذلك والاسهاب في تعليقه بالجدل النظري ، فبدأ النحو وقد غار ماؤه وشاه بهاؤه وساء مذاقه ، والا فإن تركيد المنهاية بالمعاني كان يوجب دراسة اللفظ في تركيب الجملة بدراسة موقعه من التركيب عامة من حيث اتصاله بالأجزاء الأخرى وتأثره بها وتأثيره فيها ، ثم دراسة الجملة مجتمعة الشمل من حيث صورة التعبير وأسلوبه ، وقد جرد النحو من هذا كله وخصصت به علوم البلاغة كالمعاني والبيان . . . » .

وهذا سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ) أمام هذا العلم وعلم أهلامه ، قد ضمن كتابه أبواباً جعلت بمدادة لعلم المعاني ، فأشار بذلك إلى أن هذه الأبواب ملازمة للنحو لا تنفك عنه بحال من الأحوال . قال سيبويه : « هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة ، وذلك قولك : ما كان أحد مثلك ، وليس أحد خيراً منك ، وما كان أحد مجترئاً عليك . وإنما حسن الاخبار هنا هنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون مثل حاله شيء ، أو لوقه ، فإن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا . وإذا قلت : كان رجل ذاهباً ، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله ، ولو قلت : كان رجل من آل فلان فارساً ، حسنٌ ، لأنه قد

يحتاج الى أن تعلمه أن ذاك من آل فلان ، وقد يجمله . ولو قلت كان رجل في قوم هارسا ، لم يحسن ، لانه لا يستنكر أن يكون في الدثيفارس ، وأن يكون من قوم ، فعلى هذا النحو يحسن ويتبع ... ٢٦/١ و ٢٧ ، -

فقد تجاوز سيبويه في كتابه مادة النحو ، في هذه المرحلة ، الى ما أسموه بعد بعلم الصرفي وعلم المعاني وعلم البيان وعلم العروض وعلم الأصوات وعلم القراءات ، من علوم العربية ، بل علم النقد الأدبي ، ذلك لتلازم هذه العلوم واستحالة انفكاك بعضها من بعض ، فجاء كتابه متضمنا كل ما يستعان به على فهم كلام العرب والكشف عن سر تأليفه . وإذا عمد علماء العربية في دراساتهم بعد الى تخصيص كل علم منها بمادة وموضوع للفصوص على جزئيات كل من هذه العلوم ، فلا يعني ذلك إمكان الفصل بينها في التماس فهم كلام العرب ، ففي كل علم منها تمام للعلم الآخر ، بل جلاء لأسراره ودقائقه .

ولا شك أن ما جاء به سيبويه ، ما هنا ، ونحوه مما ذكره في مواضع أخرى من كتابه ، قد أوحى الى الجرجاني ما أوحى ، في كتابه (دلائل الاعجاز) مما يتصل بعلم المعاني . وقد تحدث الجرجاني عن معاني النحو ، ونبه على أن النظم ، وهو موضوع الكلام بشكل من الأشكال ، إنما يتوخى هذه المعاني . وإذا كان العلماء قد قصروا الحديث عن المعاني المذكورة ، على ما أسموه بعلم المعاني ، فإنهم لم يوفقوا في فصله عن النحو ، جملة وتفصيلا ، لأنه نوره الذي به يهتدى الى صوغ الكلام واحكام البيان .

وقد وفق الجرجاني حقا في الكشف عن اتصال النحو بالبلاغة خاصة وتلازمها . وقد حذا هذا الحذو ويم هذا السمت الامام أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) في كتابه (مفتاح العلوم) فقد تحدث فيه عن علوم البلاغة فجعل ما تعلق منها بمطابقة الكلام لمقتضى الحال والتتبع لخواص تراكيب الكلام مادة علم المعاني ، وما اتصل بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه مادة علم البيان ، وما اختص بوجود تحسين الكلام ، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة مادة علم البديع ، فهو أخص من علمي المعاني والبيان ، لكنه قال في مقدمة كتابه : قد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، ما رأيت أن لا بد منه ، وهذه عدة أنواع متأخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه وأنه لا يتم الا بعلم الاشتقاق . . . » ، وأردف : « وأوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه بعلمي المعاني والبيان . . . » ، فدل بذلك على تعلق النحو بعلم البلاغة وتأكيد مهمة اللغة في الأداء والابلاغ .

وقال في موضع آخر من كتابه : « ان علم النحو هو أن نحو معرفة كيفية التركيب في ما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية . وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات أزام ذلك ، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها - المفتاح/٣٧ » . وجاء في شرح السيد للمفتاح : « وأما عن المركبات فباعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو » .

وهذا هو أبو اسحاق الشاطبي ابراهيم بن موسى (٧٩٠ هـ) يعرف علم النحو في شرح (الخلاصة) فيقول: « وهو في الاصطلاح ، علم بالاحوال والاشغال التي بها تدل الفاظ العرب على المعاني ، ويعني بالاحوال وضع الألفاظ من حيث دلالتها على المعاني التركيبية ، أي المعاني التي تستفاد بالأشكال ٠٠ » .

بل هذا ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) يقول في رسائله ، وقد عرض فيها لعلم النحو : « ويشترك النحوي صاحب علم المعاني في البعث عن المركبات ، إلا أن النحوي يبحث عنها من جهة هياتها التركيبية صحة وفسادا ، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعاني يبحث عنها من حيث حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب ، وقبحه ٠٠٠ » ثم خلس إلى القول : « وهذا كون علم المعاني تمام علم النحو » .

وقال الأستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمه الله ، في كتابه (إحياء النحو) : « وجاء بعد ذلك بأساد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، فرسم في كتابه - دلائل الإعجاز - طريقاً جديداً للبحث النحوي ، وتجاوز أواخر الكلم وعلامات الاعراب ، وبيّن أن للكلام نظماً وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الابانة والافهام وأنه إذا عدل الكلام عن سنن هذا النظم ٠٠ لم يكن مفهوماً معناه ولا دالاً على ما يراد منه/١٦٠ » .

وإذا كانت مادة النحو لا تتجاوز الحكم على أواخر الكلم وعلامات الاعراب ، فلا شك أن عالم النحو المحيط به خبيراً الواقف على جليل أحكامه ودقيقها ، لا شك يستطيع أن يتعاشى الخطأ في بيانه وتمييره ويتبين صحيح الكلام من فاسده ، لكنه قاصر أن يتعرف كيف يكون إحكام الأداء واحسان التعبير واجادة السبك ، وتمييز سديد الكلام من فساده ، بل قاصر أن يتعرف كيف يكون انتهاج سبيل الفصحاء في تأليف الكلام نثراً ونظماً ، وهو ما قد أشرنا إليه في كتابنا (مسالك القول في النقد اللغوي - ص/٦٢) ٠٠ وأنشئ لندرس النحو هذا أن يعي نظام صياغة كلام العرب ومتصرف قولهم ويستشف طرق نسجهم وحبكهم إذا انصرف من غرض النحو في تعرف روح المربية ونهجها في التأليف والتعبير وتصريف المعاني فقصر النحو على بحث أثر العوامل في أواخر الكلم .

ولا شك أن الجرجاني قد وفق في مذهب اليه من تجاوز ظواهر الاعراب إلى تبين أسرارها وأغراضه ودواعيه . فإذا نحن أفردنا مذهب الجرجاني لنجعل منه مادة لعلم المعاني وحسب ، وحسنناه عن مادة النحو ، فقد بخسنا النحو حقه بل أبيضنا نسفه وغضنا ماءه وأذهبنا ندوته .

وقد كشف الدكتور أحمد البدوي في كتابه (عبدالقادر الجرجاني) عما انتهى إليه الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) من أن أصل المعنى يمكن أن يمتد عنه بطرق مختلفة ، وأن لكل عبارة من ذلك معناها الخاص الذي تفرق به عن العبارة الأخرى ، لأن العبارة لا يمكن أن تؤدها معنى واحداً ، إلا إذا اتفقتا من جميع الجهات .

أقول هذا ما فات كثيراً من النحاة أن ينبهوا عليه وينصحوه عنه ، في كثير من الأحيان ، فأهملوه وتجاوزوه حين أهرقوا في الصناعة اللفظية ، وقصروا الاهتمام على ضبط أواخر الكلم .

□ مذهب العلامة الحصري في الجملة الفعلية والاسمية :

ومن عمد الى هذا الموضوع من البحث ، فسلك مسلك الجوارى والمخزومى والسامرائى ، في مخالفة الحد الذي اتخذه جمهور النحاة في تقسيم الجملة الى اسمية وفعلية ، وسوى بين تقديم الفعل وتأخيره في مثل قولك (جاء خالد) و (خالد جاء) بل سبقهم الى ذلك العلامة الأستاذ ساطع الحصري في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب) .

قال الحصري : « ومن المعلوم أن الجملة تنقسم الى قسمين فعلية واسمية ، ولكننا عندما ننظر الى الأمور نظرة منطقية ، يجب أن نفهم من تعبير جملة فعلية : الجملة التي تحتوي على فعل ، وبتعبير آخر الجملة التي تعلمنا ما حدث وما يحدث . كما يجب أن نفهم من تعبير جملة اسمية الجملة التي لا تحتوي على فعل ؛ وبتعبير آخر : الجملة التي تخبرنا عن أوصاف اسم من الاسماء وحالاته » ، وأردف : « غير أن قواعد اللغة العربية لا تلتزم هذه التعريفات والمفاهيم المنطقية ، بل تخالفها كلية ، فانها تعتبر الجملة فعلية عندما تبتدىء بفعل ، واسمية عندما تبتدىء باسم . ومعنى ذلك أنها لا تصنف الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتألف منها ، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدىء بها ، دون أن تلتفت الى بقية كلماتها/ ١٠٧ » .

ويعمى الحصري في شرح مذهبه ونقد مذهب النحاة ، فيقول : « ونظراً لهذه القواعد الرسمية فان عبارة : نام الولد ، يجب أن تعتبر جملة فعلية ، في حين أن عبارة الولد نام ، يجب أن تعتبر جملة اسمية ، مع أن كليهما تتألفان من نفس الكلمتين وتؤديان نفس المعنى/ ١٠٨ » .

□ الرأي في ما جاء به الحصري ومن نحا نحوه ، في التسوية بين تقديم الفعل على فاعله وتأخيره عنه :

نقول في الجواب عما تقدم من كلام الحصري ، ان الذي نراه هو أن قولك (نام الولد) لا يؤدي مؤدئى قولك (الولد نام) عند التحقيق ، ولو أوهم ظاهر الجملتين غير ذلك . فلكل من هاتين الجملتين شأن في التعبير ، وموضع من الأداء ، لا تسد مسد الجملة الأخرى . اذ ليس يكفي أن تتفق العناصر التي تتألف منها كل من الجملتين ، بل ينبغي أن يتفق فيهما موضع كل عنصر من الآخر ، وليست هذه الحقيقة وفقاً على اللغة العربية . ذلك أن قولك (جاء خالد) أو (نام الولد) في الجملة الفعلية ، قد دل على مسند أو خبر لم يطرقت أذن السامع ، ولم يسبق ذكره في سياق الكلام . فاذا ذكر الخبر أي المسند انتظر السامع ذكر الذي أسند اليه ، وهو الفاعل ، واذا ذكر هذا اتصل بفعله فأصبح جزءاً منه .

أما قولك (خالد جاء) أو (الولد نام) في الجملة الاسمية ، فقد دل على مسند اليه قد ذكر في السياق ، ومسند أو خبر معلوم يراد التوثق من اسناده اليه . قال الامام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابه (دلائل الاعجاز) : « لا يؤتى بالاسم مضمراً من العوامل الا للحديث قد نوي اسناده اليه/ ٧٧ » . وقد أسند الخبر الى ما هو موضوع الكلام ، وهو

(خالد أو الولد) وحُمل عليه دون أن يتصل اتصال الفاعل بفعله . وإن ما قدمناه في الموازنة بين دلالتي الجملة الاسمية والفعلية طرف من مذهب لغوي ، متكامل للإمام الجرجاني قد أتى به منذ القرن الحادي عشر من الميلاد ، وجاءت المذاهب الحديثة تنزج مذهبه هذا وتؤيده .

وإننا لنسال كل من قال بالتسوية بين (خالد جاء) و (جاء خالد) ، ألسنت تقول (خالد جاء) فتحدث السامع عن (خالد) ، وقد جاء ذكره بينكما وبيات السامع ينتظر منك أن تحدثه عنه ، فإذا أخبرته بمجيئه أزلت الشك لديه في حقيقة مجيئه ؟ كما تقول (جاء خالد) فتبادر السامع بإخبارك آياه عن مجيئه دون أن يقتضي ذلك تقديم ذكره ، فكيف يستوي القولان في التعبير إذا ؟ ولا تستوي العبارتان في أداء معنى ، ما لم تتفقا في البنية وتتطابقا في موضع كل جزء من أجزائها .

وإذا كان النحاة قد ميزوا قولك (خالد جاء) من قولك (جاء خالد) فاسموا الأول جملة فعلية والثاني جملة اسمية ، ولم يتطرقوا صراحة إلى الكشف عن الفرق بينهما في أداء المعنى ، وانصرفوا إلى الاهتمام بالصناعة اللفظية ، فقد جاء الجرجاني ليكشف عما قصّر النحاة غالباً في إيضاحه والافصاح عنه ، من حيث اختلاف الأداء في كل من الجملةين . ولا يخفى أن (خالد جاء) جملة اسمية مركبة ، تتألف من مبتدأ ومن خبر هو جملة فعلية ، فإذا أردت الجملة الاسمية البسيطة قلت (خالدأت) . أما (جاء خالد) فهو جملة فعلية وحسب .

وانظر إلى ثقب رأي الجرجاني وبمد غوره ، بل أصالة فكره ، في الإشارة إلى المواضع التي يدعو فيها الأداء إلى تقديم الفاعل ليكون مبتدأ . قال الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص/ ٩٩) : « وأهمل أن هذا الذي بان لك في الاستفهام والنفي من المعنى في التقديم ، قائم مثله في الخبر المثبت . فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل ، إلا أن المعنى في هذا القصد ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : جلي لا يشكل ، وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجمله له ، وتزعم أن فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد . ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شغمت في بابي ، تريد أن تدعي الانفراد بذلك . . . وتزيل الاشتباه فيه ، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه ما كتبت . ومن البين في ذلك قولهم في المثل : أتعلمني بضمب أنا فرشته ؟

والقسم الثاني : ألا يكون القصد إلى الفاعل ، على هذا المعنى ، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك ، فانت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه ، لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزويد . ومثاله قولك : هو يعطي الجزيل وهو يحب الثناء ، لا تريد أن تزعم أنه ليس ها هنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيره . . .

ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحسب الشاء دأبه ، وأن تمكن ذلك في نفسه « . » ، ومن شواهد الجرجاني على هذا القسم قول الشاعر :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

قال الجرجاني : « لا شبهة في أنه لم يرد أن يقتصر هذه الصفة عليهما ، ولكن نبه لهما قبل الحديث عنهما » ، وأردف : « وأبين من الجميع قوله تعالى : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون - النحل/ ٢٠ ، فليس المراد أنهم وحدهم هم الذين يخلقون ، كما في المعنى الأول ، ولكن تأكيد ان الفعل ثابت لهم » .

ويشير الجرجاني الى ما يراد بتقديم المحدث عنه فيقول : « فانت قلت فمن أين وجب ان يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل اذ لا نبات ذلك الفعل له ، وان يكون قوله : هما يلبسان المجد ، ابلغ في جعلهما يلبسان ، من ان يقال : يلبسان المجد/ ١٠١ » . وهو يعقل ذلك فيقول : « قلت ذلك من أجل أنه لا يوتى بالاسم معرئى من العوامل الا لعديث قد نوي اسناده اليه ، واذا كان كذلك فاذا قلت : عباد الله فقد اشعرت قلبه بذلك انك قد اردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : قام ، أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له وقد تمت الاعلام فيه ، فدخل على العلب دخول المانوس به ، وقبله قبول المتهم له المطمئن اليه ، وذلك لا محالة اشد لشبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق - ١٠٢/١٠١ » ، وأردف : « وجملة الامر أنه ليس اعلامك الشيء بنته مثل اعلامك له بعد التنبه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الاعلام في التأكيد والأحكام » .

وذكر الجرجاني بعض المواضع التي لا بد فيها من الاخبار عن الاسم بالفعل ، فقال : « ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم الا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم ، قوله تعالى : إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين - الأعراف/ ١٩٥ ، وقوله تعالى : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً - الفرقان/ ٥ ، فانه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جرى في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم ، فقتيل : إن وليي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين ، بحذف هو ، واكتتبها تملى عليه ، بحذف هي ، لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها - ١٠٦/١٠٥ » .

□ مذهب الجرجاني في ضوء علم اللغة الحديث :

وقد عقد الدكتور جعفر دك الباب في كتابه (الموجز في شرح دلائل الاحجاز ، في علم المعاني) فصلاً فريداً في مذهب الامام الجرجاني اللغوي ، في ضوء علم اللغة الحديث ، وأقام الموازنة بين مذهبه ومذاهب هذا العلم ، فخلص من بحثه الى أن من حق مذهب الجرجاني أن يظفر بالمكان اللائق به ، في علم اللغة الحديث ، لا لأن مذهبه هذا يكمل النظرية

البنوية الوظيفية الحديثة ، بل لانه يعتمد الى ذلك على مفهوم البنية العميقة والبنية الظاهرية للجمله ، فهو يمثل بذلك اتجاه متطورا في علم اللغة الحديث ، وادان مذهب الجرجاني يتبنت صحه تمييز علمسالم النحو العربي نوعين للجمله العربيه .

ولا يخفى ان البنوية في الاصل مذهب فكري يتحرى رؤية المجتمعات ، والاصصال الفنية واللغة ، والادب ، من خلال البنى التي تتألف منها هذه المركبات ، والبنية وحدة مستقلة قائمة على عناصر داخلية متسائدة .

فالبنوية تتطلب في الادب ، مثلا ، تحليل النص الى بناء ، وتفكيك البنية الى اجزائها المتنقلة واعداد تركيب هذه الاجزاء ، بحيث تعود منتظمة مترابطة ، تختلف فيها الصورة باختلاف مواقع هذه الاجزاء بعضها من بعض .

وقد كان رائد هذا المذهب في القرن العشرين الفيلسوف الفرنسي رولان بارت ، ومضى في تكويته علماء ككتشوفسكي ومينيه وسوسير وماير ، وبدأ بعد متكاملًا بفضل العالم الفيلسوف الفرنسي كلود ليفي اشتراوس .

أما علم اللغة الحديث ، أو علم اللسان الحديث ، فهو العلم الذي ينظر الى اللسان أداة للإبلاغ وظاهرة فيزيائية ونفسية واجتماعية عامة الوجود .

وقد نحا هذا النحو ، بل سبق الى مواضع منه الامام الجرجاني ، حين ذهب الى ان اللغة انما هي أداة ابلاغ السامع ما يفهمه ، وعمد الى تحليل النص الادبي والانتهاج به الى وحدته ، وهي الجملة ، والكشف عن بنية الجملة الظاهرية الأصلية ، والافصاح عن اختلاف الصور في الجملة باختلاف مواقع اجزائها بالتقديم والتأخير ، وميض ما قُدّم من هذه الاجزاء لفرض تحويل الصورة عما هي عليه ، وما قُدّم وهو على نية التأخير فلم يمل بالصورة عن اطارها . بل كشف عن موقع كل جملة من الأداء بتنقل اجزائها او تغيرها ، فنفى أن تتفق جملتان فيما تعنيان ما لم تتماثلا من كل وجه .

ولا بأس أن نلمّ بطرف من حديث الجرجاني عن (التقديم والتأخير) ، وهو يتصل بما نحن بسبيله من الكلام على الفعل .

قال الجرجاني : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا في - تقديم الشيء - شيئا يجري مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب ، سيبويه ، وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وان كانوا جميعاً يُهمانهم ويمنيانهم . ولم يذكر في ذلك مثالا . وقال النحويون : ان معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فصل ما أن يقع بانسان بعينه ، ولا يباليون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حال الغارجي يخرج فيميت ويفسد ويكثر من الأذى ، أنهم يريدون قتله ، ولا يباليون من كان القتل منه ، ولا يمينهم منه شيء ، فاذا قُتل وأراد مرید الاخبار بذلك ، فانه يقدم ذكر الغارجي ، فيقول : قتل الغارجي زيد ، ولا يقول : قتل زيد الغارجي ، لانه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له ، زيد ، جدوى وفائدة فيعينهم ذكره ويهمهم ويتصل

بمسيرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون اليه : متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وانهم قد كنفوا شره وتخلصوا منه » .

ثم قال : « فان كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أن يقتل رجلاً ، وأراد المخبر أن يخبر بذلك ، فانه يقدم ذكر القاتل فيقول : قتل زيد رجلاً ، ذلك لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته وموضع الندرة فيه ، وبعده كان من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبمبدأ من حيث كان واقعا بالذي وقع به ، ولكن من حيث كان واقعا من الذي وقع منه ، فهذا جيد بالغ » .

وقد خُص الجرجاني من حديثه الى القول : « الا ان الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدام في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير . وقد وضع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : انه قدم للعناية ولأن ذكره اهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولم كان اهم ، ولتخليهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهو نوا الغلط فيه ، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف ، ولم تر فلنا أذرى على صاحبه من هذا وشبهه / ٨٤ و ٨٥ » .

وتدبر نصح الجرجاني في تقديم المفعول من قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن - الأنعام / ١٠٠ » ، إذ قال : « ليس يخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة وماخذاً من القلوب ، أنت لا تجد شيئاً منه ان أنت أخترت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله ، وأنت ترى حالك حال من نقل الصورة المبهجة والنظر الرائق والحسن الباهر ، الى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به الى حاصل » ، وأردف : « والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً ، لا سبيل اليه مع التأخير » .

وقد أوضح ذلك فقال : « وبيانه أنا وان كنتنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن . واذاً آخر فقيل : جعلوا الجن شركاء له ، لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فأما أن يعبد مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه - ٢٢٢ / ٢٢١ » .

★ ★ ★

اقول هذا ما بدا لنا بسط الكلام فيه على (الجملة الفعلية والجملة الاسمية) ، وتأكيد صحة مذهب النحاة في هذه القسمة ، والرد على من أخذ عليهم ذلك من علماء العصر ، وما جاء به الامام الجرجاني في الكشف عن دقائق النظم وأسراره وتعليل بناء وتأييد علم اللغة الحديث لصائب فكره وثاقب نظره في هذا الاتجاه ، وسنعد مقالة لما انتعاه هذا العلم في مناصرة مذهب الجرجاني ، ومن الله العون .

□ مسرد بمصادر البحث :

- ١ - ملني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام الأنصاري .
- ٢ - دلائل الإيجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني .
- ٣ - مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الجملة الفعلية لعلي الجارم (ج - ٢٧ ، عام ١٩٥٣) .
- ٤ - نحو الفعل للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى .
- ٥ - مجلة الفيصل - تكامل العناصر الأساسية في اللغة العربية للدكتور محمد خير العلواني (العدد - ٣٧ ، عام ١٩٨٠) .
- ٦ - الضرائر لأبي الحسن علي بن صفور الأندلسي .
- ٧ - إصلاح الغلل الواقع في الجمل (لنزاجي) لأبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي .
- ٨ - الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر لعمود شكري الألويسي .
- ٩ - في النحو العربي للدكتور مهدي المنزومي .
- ١٠ - الألفية لأبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك .
- ١١ - شرح ألفية ابن مالك لأبي الحسن علي بن محمد الأشعوني .
- ١٢ - حاشية الصبان محمد بن علي المصري على شرح ألفية ابن مالك للأشعوني .
- ١٣ - الكليات لأبي البقاء الحسيني الكلوي .
- ١٤ - التفسير في أنوار التنزيل لعبد الله أبي الخير بن علي البيضاوي .
- ١٥ - أعراب القرآن المسمى (املاء ما من به الرحمن من وجوه الأعراب) لأبي البقاء عبد الله الكفري .
- ١٦ - أعراب الحديث النبوي لأبي البقاء عبد الله الكفري .
- ١٧ - ملهات القرآن لأبي القاسم الراطب الأصفهاني .
- ١٨ - الفعل زمانه وأبنيته للدكتور إبراهيم السامرائي .
- ١٩ - المفصّل لأبي الفتح عثمان بن جلي .
- ٢٠ - المفصل لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري .
- ٢١ - المفصّل لعلي بن سيده الأندلسي .
- ٢٢ - مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها لصالح الدين الزهلاوي .
- ٢٣ - المقرب في النحو لأبي الحسن علي بن صفور الأندلسي .
- ٢٤ - الكتاب لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان .
- ٢٥ - مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي .
- ٢٦ - شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني على مفتاح العلوم للسكاكي .
- ٢٧ - الفلاحة في النحو للشاطبي أبي اسحاق إبراهيم بن موسى .
- ٢٨ - الرسائل لأحمد بن سليمان بن كمال باشا .
- ٢٩ - أحياء النحو لإبراهيم مصطفى .
- ٣٠ - مسالك القول في النقد اللغوي لصالح الدين الزهلاوي .
- ٣١ - عبد القادر الجرجاني للدكتور أحمد بدوي (سلسلة اعلام العرب) .
- ٣٢ - أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني .
- ٣٣ - آراء وأحاديث في اللغة والأدب لساطع الحصري .
- ٣٤ - الموجز في شرح دلائل الإيجاز في علم المعاني للدكتور جعفر دك الباب .

الشاعر القطامي

سكينة الشهابي

هل ترغب أخي القارئ في سماع درس في اللغة من أستاذ بليغ يعرف كيف يستدعي انتباهك، ويشد اهتمامك؟ وهل تريد أيضاً أن تصفي إلى معدتك أديب يسمعك مختارات من أجمل الشعر العربي وأكثره فصاحة وسعراً؟ وهل يهمك أن تنطق بالأسماء العربية سليمة - كما قیدتها كتب المتشابه وحفظتها بعيدة عن التصحيف والتعريف؟ إذا كان ذلك كذلك فاقرا معي ترجمة الشاعر القطامي بقلم الامام الحافظ ابن عساكر في سفر قيد التحقيق من أسفار كتابه الكبير «تاريخ مدينة دمشق»:

عمرو - ويقال: عمير بن شبيم - ويقال: شميم - بن عمرو بن عبادة بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب التغلبي، المعروف بالقطامي (*) شاعر من فحول الشعراء. وكان نصرانياً فأسلم، وقدم دمشق مادحاً للوليد بن عبد الملك - ويقال: لعمر بن عبد العزيز.

أخبرنا أبو القاسم أسماهيل بن أحمد، أنا عبد الوهاب بن علي بن عبد الوهاب، أنا علي بن عبد العزيز قال: قرىء علي أحمد بن جعفر بن محمد بن سلم، أنا الفضل بن الحباب بن محمد، أنا محمد بن سلام الجمعي قال (١):

الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين أربعة - فذكرهم وذكر فيهم القطامي، واسمه عمرو بن شبيم بن عمرو بن عبادة بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب.

أخبرنا أبو القاسم الواسطي، أنا أبو بكر الخطيب قال: كتب الي محمد بن أحمد بن سهل، وحدثني محمد بن فتوح عنه.

وقرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بشران
الرواسطي .

أنا أبو الحسن بن دينار ، أبنا أبو القاسم الأمدي قال : (٢)
القطامي التغلبي اسمه عمير بن شَيْبَم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة
ابن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب الشاعر المشهور .

قرأت على أبي غالب أيضاً ، عن أبي الفتح بن المعاملي ، عن أبي الحسن الدارقطني
قال (٣) :

عمير بن شَيْبَم التغلبي سمي القطامي بقوله (٤) : [من الرجز]

يُحطِّهْنُ جَانِباً فَجَانِباً حَطَّ القَطَامِي قَطَا قَوَارِبَا

والقطامي اسم من أسماء الصقر ، وهو مشتق من القَطَم .

قرأت على أبي محمد بن حمزة ، عن أبي نصر بن هبة الله قال (٥) :

أما شبيب - بكسر الشين (٦) وفتح الياء التي تليها المجمة باثنتين من تحتها وسكون
الأخرى التي تليها - القطامي التغلبي الشاعر ، اسمه عمير بن شبيب بن عمرو بن عباد بن بكر
بن عامر بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

أبنا أبو الفرج حيث بن علي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الله الهاشمي ،
وأبو العباس بن قبيس قال : أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا عتي أبو علي محمد بن القاسم ،
نا علي بن بكر ، عن أحمد بن الخليل ، أنا عمر بن عبيدة قال (٧) :

ويروى أن عبد الرحمن بن حسان جفا قريشاً فقال : [من الكامل]

أحيَاؤُكُمْ عَارَ عَلِي مَوَاتِكُمْ وَالْمَيْتُونَ خِزَايَةَ لِلغَابِرِ (٨)

فأرسل يزيد إلى كعب بن جُمَيْل ، فقال : اهج' الأنصار ، فقال إن لهم عندي بدأ في
الجمالية فلا أجزيهم بهجائهم ، ولكنني أدلك على المُثَدِّف (٩) القناع ، المنقوص السماع
القطامي ، فأمر القطامي ، فقال : أنا أمرؤ مسلم أخاف الله ، وأستحي المسلمين ، ولكنني
أدلك على من لا يخاف الله ، ولا يستحي من الناس ، قال : ومن هو ؟ قال : الغلام المالكى
الأخطل ، فأرسل إليه ، فأمره بذلك .

قرأت في كتاب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني (٩م) قال : قال المدائني :
وقال أبو عمرو :

أول ما حرك من القطامي ، فرفع من ذكره أنه قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك
دمشق ليمدحه ، فقيل له : انه بخيل لا يعطي الشمر ، وقيل : بل قدمها في خلافة عمر بن
عبد العزيز ، فقيل له : ان الشمر لا يتنفق عند هذا ، ولا يعطي عليه شيئاً ، وهذا عبد
الواحد بن سليمان فامدحه ، فمدحه بقصيدته (١٠) : [من البسيط] .

أنا منحيوك فاسلم أيها العطلل وان بليت وان طالت بك العليل (١١)

فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يمطيني ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة ، وأن توفّر لك بزاً وتمراً وثياباً . ثم أمر بدفع ذلك إليه .

أخبرنا أبو المز بن كادش ، أنا أبو يعلى بن الفراء ، أنا أبو القاسم اسماعيل بن سعيد بن اسماعيل المعتدل ، أنا أبو علي الحسين بن القاسم بن جعفر ، أنا محمد بن هجلان قال : قال ابن الأعرابي ، قال الكلابي ، قال عبد الملك بن مروان للأخطل :

من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، ثم المغدق القناع ، القبيح السماع ، الضيق الذراع -
يعني القطامي .

أخبرنا أبو القاسم علي بن ابراهيم ، أبنا أبو الحسن رشأ بن نظيف ، أنا الحسن بن اسماعيل ، أبنا أحمد بن مروان ، أنا ابراهيم بن عبد الله الجزري ، أنا عيسى بن سليمان ، عن ضمرة ، عن ابن شاذب قال :

أوصى مالك بن المنذر بن مالك بنيه ، فقال : يا بني ، الزموا الأنساء ، واهتمموا
الفُرصة تظفروا . ثم أنشد عيسى بن سليمان قول القطامي (١٢) : [من البسيط]

قد يدرك المتثاني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

أخبرنا أبو المز السُلّمي مناولة واذنأوقراً علي اسناده ، أنا محمد بن الحسين ، أنا
المفاني بن زكريا القاضي ، أنا محمد بن الحسن بن دريد ، أنا أبو حاتم ، عن الأصمعي قال :

سأل عمرو بن سعيد القرشي الأخطل : أسرك أن لك شعراً بشمرك ؟ قال : لا والله ،
ما يسرني أن لي بمقولي مقولاً من مقاول العرب ، غير أن رجلاً من قومي قد قال أبياتاً
حسدته عليها ، وإيم الله ، انه لمغدق القناع ، ضيق الذراع ، قليل السماع (١٣) . قال : ومن
هو ؟ قال : القطامي ، قال : وما الأبيات ؟ قال : قوله (١٤) [من البسيط] .

ولا الصدور على الأعجاز تتكل
مجنونة ، أو ترى ما لا ترى الأهل
كاد الملام من الكتان يشتمل
والريح ساكرة (١٨) والظل معتدل
عين ، ولا حال الا سوف ينتقل
فقد يهون على المستنجح العمل (١٩)
ما يشتهي ، ولا المغطى الهبل (٢٠)
وقد يكون مع المستعجل الزلل

يمشين رهوا ، فلا الأعجاز خاذلة
من كل سامية (١٥) العينين تحسبها
حتى وردن ركيّات العوير (١٦) وقد
يمشين معترضات والعصا رمض (١٧)
والعيش ، لا عيش الا ما تقر به
ان تصبغ من أبي عثمان منجحة
والناس من يلق خيراً فائلون له
قد يدرك المتثاني بعض حاجته

قال القاضي : لم يري ان هذه الأبيات لمن رصين الشعر و بليغه ، وكلمة القطامي التي هذه الأبيات منها من أجود شعره ، وأولها :

انا معيشوك فاسلم أيها الطئيل وان بليت وان طالت بك الطول (٢١)

ويروي الطئيل . وقد ذكر بعضهم أن أجود ما أتى من أشعار العرب على هذه العروض وهذا الروي هذه الكلمة وكلمة الأعشى التي أولها (٢٢) : [من البسيط] .

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وقول الأخطل : انه لمغذف القناع ، المغذف : المنطى ، فكانه نسبة ، إلى الخمول ، وقصوره من الشرف وأن يكون بارزاً مبدئاً صفحته مجداً والتخاراً . قال سحيم بن وثيل الرياحي (٢٣) : [من الواقر] .

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

ويقال : أهدفت المرأة قناعها ، كما قال عنتره (٢٤) : [من الكامل] .

ان تغد في دوني القناع فأنسي طيب باخذ الفارس المستلثم (٢٥)

وأما قول القطامي : « يمشين رهوا » ، فانه أراد أنهم يمشين في سكون وتؤدة . وقد قيل في قول الله تعالى : [واترك البحر رهوا] (٢٦) أي ساكناً . وقيل : طريقاً يتبساً . وحكي أن بعض العرب قال في فالج (٢٧) من الأهل : رهوا بين سنامين ، فقال بعض أهل المعرفة : لو كان القطامي قال هذا البيت في صفة النساء لكان قد أحسن . ومن الرهوا قول الشاعر : [من البسيط] .

كانما أهل حجر ينظرون متى يرونني خارجا ، طير يناديسد (٢٨)

طير زات بازيا نضح الدماء به أو أمثة خرجت رهوا إلى عيبد (٢٩)

وقول عمرو بن كلثوم (٣٠) : [من الواقر] .

نصبنا مثل رهوة ذات حد معافظة فكننا السابقينا

قيل : هي الجبل (٣١) . وقوله : والريح ساكرة : يعني ساكنة ، وإذا كانت ساكنة فهي فعل الأشياء المفقودة المدومة . يقال : سكر الشيء إذا سكن . وقيل للسكر الذي هو من سكر الأودية والأنهار سكر لأنه سكر إذا سد وهدمت سورته . ومنه السكر من الشراب وغيره ، قيل فيه ذلك لاحتباس ما كان منطلقاً من السكران وصحة رأيه وصواب منطقه . وقيل : سكر العر إذا سكنت فورته ، وهدأ احتداه وشدته كما قال الراجز (٣٢) :

جاء الشتاء واجشال القنبر واستغفت الأفعى وكانت تظهر

وجعلت عين الحرور تسكر

وقد قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين [لقالوا انما سكرت ابصارنا] (٣٤) ، بمعنى
 سدت ، وصعب النظر باسكانها عن الحركة التي تدرك المبصرات بها . وقرأ جمهور
 القراء : « سكرت » بالتشديد للتكرار اذ كانت الابصار جماعة ، وقرأ بعضهم « سكرت »
 بالتخفيف ، لدلالة هذه القراءة على المعنى . ومثله : [وفتحت ابوابها] و « فتحت » (٣٥)
 في نظائر لهذا كثيرة ، وهي مشروحة فيما تضمنته الكتب في علوم القرآن من كلامنا وكلام
 من تقدمنا . وبالتخفيف قرأ ابن كثير فيمن وافقه من المكيين . وقوله :

ان تصبني من ابي عثمان منجعة فقد يهون علي المستنجح العمل

من الكلام الحسن في الانباء عن أن من أنجح سعيه ، وأدرك ما أمته هان عليه ما كان
 أنصبه وعناؤه وأتمه في قصد مطلوبه . ومثله قول سابق البربري : [من الوافر] .

اذا ما نال ذو طلب نجاحا بامر لم يجد الم الطلاب

ونظائر هذا المعنى كثيرة يصعب احصاؤها ، ويميل استقصاؤها .

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو محمد عبدالوهاب بن علي ، أنا أبو الحسن
 الطاهري قال : قرئ علي أبي بكر الغنطي ، ثنا الفضل بن الحباب ، نا محمد بن سلام
 قال (٣٦) :

وكان القطامي شاعرا فعلا ، رقيق الحواشي ، حلو الشعر . والأخطل أهد منه ذكرا ،
 وأمتن شعرا . وكان زفر بن الحارث أسره في حرب بينهم وبين تغلب ، فمن عليه عليه ،
 وأعطاه مائة من الابل ، ورد عليه ماله (٣٧) ، فقال القطامي في كلمة (٣٨) : [من البسيط] :

من مبلغ زفر القيسي مدحته عن القطامي قولا غير الفناد (٣٩)

فلن أتيك بالنعماء مشتمة ولن أبدل احسانا بالفساد (٤٠)

اني وان كان قومي ليس بينهم وبين قومك الا ضربة الهادي (٤١)

مثن عليك بما أسلفت من حسن وقد تعرض مني مقتل بادي

فان هجوتك ما تمت محافظتي وان مدحت لقد احسنت اصفادي (٤٢)

اذ يعتريك رجال يسالون دمي ولو تطيمهم ابكيت عوادي (٤٣)

واذ يقولون : ارضيت العداة بنا لا بل قدحت بزند غير صلاح (٤٤)

ولا كردك مالي بعد ما كربت (٤٥) تبدي الشماتة اعدائي وحسادي

فان قدرت علي يوم جزيت به والله يجعل اقواما بمرصاد

لما بلغ زفر قوله قال : لا قدرت علي ذلك اليوم .

وقال يمدحه في أخرى (٤٦) : [من الوالمر] .

ومن يكن استلامَ السّي ثويء
أكفر بعد دفع الموت عني
فلم أر منعمين أقل مثلاً
من البيض الوجوه بني نفيل (٤٧)
بني القرم الذي علمت معد
وهو يقول في كلمة أخرى (٥١) :

انا معيوك فاسلم أيها الطلل
والناس : من يلق خيراً قائلون له :
قد يدرك المتاني بعض حاجته
اما فريش (٥٢) فلن تلقاهم أبداً
قوم هم أمراء المؤمنين وهم
وفيها يقول :

وما هداي لتسليم على دمن
فهن كالخلل الموشي ظاهرها
كانت منازل منا ما تجهننا
والعيش لا عيش الا ما تقر به
بالممر غيرهن الا عصر الاول (٥٣)
أو كالكتاب الذي قد مسه بلل (٥٤)
حتى تحلل دهر مغبل خبل (٥٥)
عين ولا حال الا سوف تنتقل (٥٦)

أبنا أبو الحسن علي بن محمد الملاف وأخبرني أبو الممر الأنصاري عنه
ح وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو علي بن أبي جعفر، وأبو الحسن بن الملاف
قالا: أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران ، أنا أحمد بن ابراهيم الكندي ، أنا محمد
ابن جعفر الخرائطي ، نا أبو الفضل العباس بن الفضل الربيعي ، نا محمد بن هبيد الله
المتبي قال (٥٨) :

خرجت الى المربد (٥٩) فاذا بأعرابي هزل، فملت اليه ، فذكرت عنده النساء ، فتنفس
ثم قال : يا بن أخي ، وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء ، فيشفي من الظمأ ، فقلت :
يا أعرابي ، صف لي نساءكم ، فقال : نساء العمي تريد ؟ قلت : نعم ، فأنشأ يقول :
[من الكامل] :

رُجِعْ (٦٠) وليس من اللواتي بالضحى
واذا خرجن يردن أهل مصيبة
يا نسن عند بعولهن اذا خلوا
لذيولهن على الطريق خبار
كان الغطا لسراعها الأشبار
واذا هم خرجوا فهن خفار

قال المتبي : فرجعت الى أبي ، فذكرت ذلك ، فقال : أتدري من أين أخذ الأعرابي قوله : وان من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ ؟ قال : من قول القطامي (٦١) :

يقتلننا بحديث ليس يعلمه من يتقينَ ولا مكنونه باءٍ
ههن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

أخبرنا أبو الحسن بن قبيس ، أنا أبو الحسن بن أبي الحديد ، أنا جدي أبو بكر ، أنا أبو محمد بن زهر ، أنا إبراهيم بن عبد الرحمن الأيلي ، أنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، أنا عبد الملك بن قريب الأصمعي قال :

قال بلال بن أبي بردة لجلسائه ذات ليلة : خبروني بسابق الشعراء ، والمصلي ، والثالث ، والرابع ، فسكتوا ، ثم قالوا له : إن رأى الأمير - أصلحه الله - أن يخبرنا بذلك فعل . قال سابق الشعراء قول المرقش (٦٢) : [من الطويل] .

من يلقى خيراً يحمد الناس أمره ومن يفور لا يعدم على الفئ لانما
والمصلي قول طرفة (٦٣) : [من الطويل]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
والثالث قول النابغة (٦٤) : [من الطويل] .

ولست بمستبق أحداً لا تملكه على شعث ، أي الرجال المهذب
والرابع قول القطامي : [من البسيط] .

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

□ العواشي :

- * طبقات ابن سلام ٥٣٤/٢ ، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ ، والاشتقاق ١٩١ ، والمؤتلف والمختلف للامدي ١٦٦ ، والشعر والشعراء ٧٢٣/٢ ، والأغانى ١٧٥/٢٣ (ط ، دار الثقافة) ، وجمهرة أنساب العرب ٣٠٥ ، والاكمال ٤٠/٥ ، ومعجم الشعراء ٢٤٤ ، والغزاة ٣٧٠/٢ ، والانساب ١٨٣/١٠ ، واللباب ٤٤/٣ .
- ١ - طبقات فعول الشعراء ٥٣٤/١ باختصار في نسبه .
 - ٢ - المؤتلف والمختلف للامدي ١٦٦ .
 - ٣ - المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٤٣١/٣ .
 - ٤ - ليس البيت في ديوانه . ورواه السمعاني في الانساب ١٨٣/١٠ ، وابن الأثير في اللباب ٤٤/٣ .
 - ٥ - الاكمال ٤٠/٥ .
 - ٦ - زاد محقق الاكمال في هذا الموضع : « ويقال : بضمها » .
 - ٧ - رواه اتم من هذا ابن سناكر في ترجمة عبد الرحمن بن حسان م ٢٥٢/٤٠ - ٢٥٤ . وقد ضبط اسم الراوي في الاصل ، وفي ترجمة عبد الرحمن بن حسان : « قال أبو عبيدة » .
 - ٨ - د : « للعائر » ، وفي ترجمة عبد الرحمن : « للعائر » . الفاهر هنا : الباهي .
 - ٩ - الهدى فتاحه : أرسله على وجهه .
 - ٩ م - الاغانى ١٧٨/٢٣ .

- ١٠ - ديوان القطامي ٧٣ • وهذا البيت من شواهد حسن الابتداء ، وقد ذكره القزويني في الإيضاح ٣٠٥ •
- ١١ - الطيل جمع طيلة • أطال الله طيلته أي عمره ، والبيت من شواهد اللسان : « طول » وفيه : « الطول » •
- ١٢ - هذا البيت من القصيدة المتقدم مطلعها •
- ١٣ - أراد أنه لم يكن معروفا ، ولا واسع الشهرة ، وكذلك ليس طويل الباع في نظم الشعر •
- ١٤ - ديوانه ٢٦ من القصيدة المتقدم مطلعها ، والبيت الأول من شواهد اللسان : « رها » •
- ١٥ - في الديوان : « يتهم سامية » •
- ١٦ - في الأصل : « الفوير » ، والأشبه رواية الديوان : « الموير » ، وقد ضبطت العين فيه بالضم ، وصوابها الفتح •
أورد البكري بيت القطامي هذا في مادة الموير - بفتح العين وكسر الواو وآخره راء - على وزن فاعيل • موضح بالشام • مجهم ما استعجم ١٩٨١ وقال ياقوت : موير - بفتح أوله وكسر ثانيه - من لرى الشام ، أو ماء بين حلب وتلمر • مجهم البلدان ١٨٠/٤ •
- ١٧ - رمض : حار ، ورواية الديوان : « فهن معترضات » •
- ١٨ - في الديوان : « ساكنة » ، وهما بمعنى ، الساكن : الساكن • وسكرت الريح : سنت بمعد الهبوب ، وليلة ساكرة : ساكنة لا ريح فيها •
- ١٩ - في الديوان : « أن ترجعي » ، ومثله في الأساس (نجع) ، رجل منجع : ذو نجع ، وفي الأساس : « مع المستنجع » •
- ٢٠ - لأمه هيل : أي تكل • هيلته أمه هيل : تكلته •
- ٢١ - تقدم : « الطيل » •
- ٢٢ - البيت مطلع معلقة الأحمسي ، انظر ديوانه ٤١ (ط • أدلف هلل هوسن) •
- ٢٣ - البيت من الأصمعية الأولى ، وهو بيت سائر معروف ، وسجيم شاعر معظم مشهور الذكر في الجاهلية والاسلام ، هذه ابن سلام في الطبقة الثالثة من الإسلاميين ، يقال : هاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة •
- ٢٤ - البيت من معلقته • انظر ديوانه ١٢٥ (ط • مصر بختاية أمين سعيد) •
- ٢٥ - البيت من شواهد اللسان : « لأم » ، وفيه : اللامة : السلاح • وقد استلام الرجل : إذا لبس ما عنده من عدة •
- ٢٦ - سورة المطان ٤٤ آية ٢٤ •
- ٢٧ - الفالج : الجمل الضخم ذو السنابين •
- ٢٨ - البيت من شواهد اللسان « نده » من طير جزو ، وقال : « طير يشايد وانايد متفرقة » •
- ٢٩ - يلاحظ الاقواء في هذا البيت •
- ٣٠ - البيت من معلقته ، انظر شرح القصائد العشر للتبريري ٢٦٩ •
- ٣١ - كذا في الأصل • وفي شرح المعلقات • « رهوة : جبل ، ويقال : رهوة أعلى الجبل • وقوله : ذات حد : أي كتيبة ذات شوكة كأنه قال : نصبنا كتيبة ذات حد ، وليل المعنى : نصبنا حربيا ذات حد مثل رهوة » ، وقد تعطل البكري بهذا البيت في مجهم ما استعجم ٦٨٠/١ ، وقال : « رهوة - بفتح أوله واسكان ثانيه - جبل » • وقال : ياقوت : « رهوة - بفتح أوله وسكون ثانيه - قال أبو عبيد : الرهوة : الارتفاع والانحدار ، قال أبو العباس النعماني : دليت رجلي في رهوة ، فهذا انحدار - وروي بيت عمرو بن كلثوم ، وقال : - فهذا ارتفاع • • مجهم البلدان ١٠٨/٣ •
- ٣٢ - البيت الأول والثالث من شواهد اللسان « سكر » وهما بزيادة ثالث في اللسان « جتل » • وفيه : « اجنثال » اجتمع وتقبض والجنثال : القبر ، و« اجنثال » : التفشت لفرخته ، وتسكو : أي يذهب حرها •
- ٣٣ - في اللسان : « القبر » • القبر والقبرة والقنبر والقنبرة : ضرب من الطير •
- ٣٤ - سورة الحجر ١٥ آية ١٥ ، وتام الآية [قالوا : انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون] •
- ٣٥ - سورة الزمر ٣٩ من الآية ٧٣ •
- ٣٦ - طبقات الشعراء ٥٣٥/٢ •
- ٣٧ - انظر خبر هذه الحرب وأسر القطامي في الأغانى ٢٠٣/٢٣ « دار الثقافة » •

٣٨ - النظر ديوانه ٨٤ - ٨٧ .

٣٩ - أفند الرجل أفنادا : كذب في قوله . والفند : الكذب والخطأ .

٤٠ - حق هذا البيت أن يكون ترتيبه الرابع ، فهو أكثر مناسبة للمعنى .

٤١ - الهادي : العنق ، والجمع هواد ، وذلك لتقدمه .

٤٢ - العافضة : حفظ العهد ، ومكارم الأخلاق . أصفده أصفادا : أعطاه ووصله . والصفد - يفتحون - : العطية .

٤٣ - اعتراه : شبيه طالبا معروفا أو حاجة . المواد : جمع عائد ، وهو الزائر عند المرض . يريد أهل مودته الذين يألون له ويزورونه .

٤٤ - فدح بالزند : ضرب به ليوري النار . وزند صلدو وصالد وصلود وصلاد : هو الذي يصوت عند الضرب ولا تلفدح منه النار ، وضرب ذلك مثلا ، يقول : كنت كريما نبيلًا إذا امتعن كرمك أهديت عن عتق أصلك ، ونبل أخلاقك .

٤٥ - كريت : فريت وندت .

٤٦ - طبقات هوم الشعراء ٥٣٧/٢ . وتخريج الأبيات فيه ، وانظر ديوانه ٣٧ .

٤٧ - في الديوان : « أكرمت يا زفر » . استلام الي فلان : أتى ما يلومه عليه . والشوي : الضيف المقيم . متمه بالشيء وامتمه به : أعطاه ما ينتفع به ، ويسر بمكانه . والمتاح هنا مصدر كالتستيعح والامتاح .

٤٨ - الرناع : الأبل ترتع في المرعى الفصب تذهب وتجيء ، واحدها رناع .

٤٩ - هو نفيل بن عمرو بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وهو جد زفر الأحملي .

٥٠ - القرم : السيد العظيم المقدم في المعرفة وتجارب الأمور . وفي أصل التاريخ واحد أصول الطبقات : « بفضل » ، ولا يصح .

٥١ - الأبيات من قصيدة في ديوانه ٢٣ - ٣٠ ، وقد تقسم أبيات منها من طريق المعاني والقصيدة في جمهرة أشعار العرب ٢٨٨ « ط . دار صادر » .

٥٢ - في نسخ التاريخ : « فريشا » .

٥٣ - رواية الديوان والجمهرة : « قوم هم ثبتوا الإسلام وامتنعوا قوم الرسول الذي ما بعده رسل » .

٥٤ - في الجمهرة : « أنثى اهتديت لتسليم علي من » وفي الديوان : « أني اهتديت » وتعت « بالفخر » في أصل التاريخ ، بالقول « رواية ثانية . الدامن : مفردا دمنة ، وهي آثار منازل القوم . والفخر : موضع .

٥٥ - في الجمهرة : « كالحلل » ، والقافية في الديوان : « البذل » . الغلة : بطانة يفضي بها جفن السيف ، تنقش بالذهب وفقره ، والجمع خلل وخلال . قال ذو الرمة : « ثية موحشا ظلل يلوح كأنه خلل » .

٥٦ - في الجمهرة والديوان : « كانت منازل منا قد نعل بها حتى تغر دهر خائن خيل » ، تجهمه وتجهم له كجهمه ، إذا استقبله بوجه كربه ، قال الرازي : « وبلدة تجهم الجهوما » أي تستقبله بما يكره ، الجهوم : المعاجز الضيف ، ودهر خيل : ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا ، وقد خبله الدهر . أما اللففتان : الثانية من الشطر وقيل

الأضعة فلم تجعما في الأصل ، واضطرب اجسام الشطر كله في النسخة الأخرى .

٥٧ - في الديوان والجمهرة « ولا حالة الا استنقل » .

٥٨ - الغبر في روضة المعين ٣٤٢ .

٥٩ - المرید : موضع في البصرة به كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء . معجم البلدان ٩٨/٥ .

٦٠ - رجح : مفردا رجاح ، وهي المرأة الثقيلة المعجزة ، وكانت تمدح المرأة بذلك .

٦١ - البيتان من قصيدته في مدح زفر بن العارث والتي تقدم بعض أبياتها ، وانظر ديوانه ٨١ ، وفي الأغانى : « عن الشيمي قال : قال عبد الملك بن مروان وأنا حاضر للأخطل : يا أخطل ، اتعب إن لك بشعرك شعر شاعر من العرب ؟ قال : اللهم لا ، إلا شاعر منا مفدق القناع ، خامل الذكسر ، حديث السن . ولوددت أني سبقتك السى

قوله » ، ثم ذكر البيتين .

٦٢ - هو البيت ٢٢ من المفضلية ٥٦ ، والقصيدة مع مناسبتها في الأغانى ١٣٩ ، ٦ (ط ، دار الكتب) ، والبيت ٧ أبيات من القصيدة في الشعر والشعراء ٢١٤ - ٢١٥ ، وهو من شواهد اللسان . ، هو ، وبالبيت مفرد بهذه الرواية .

٦٣ - ديوانه ٤٨ .

٦٤ - ديوانه ٧٨ .

ثابت بن قرة أبو الحسن

٢١١ هـ = ٨٢٦ م - ٢٨٨ هـ = ٩٠٠ م

منجزاته ، آثاره ، مصادر ترجمته

زهري محمدان

ثابت بن قرة بن مروان (في رواية : ابن هارون ويقال ابن زهرون)
ابن ثابت بن كرايا بن ابراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سلاميوس (في رواية :
ابن سلامانس وفي أخرى ابن سلايونوس) العراقي الصابي (١) رياضي طبيب
حكيم فلكي منطقي فيلسوف .

ولد بخران (٢) عام ٢١١ هـ في رواية ابن أبي اصيبعة ، وفي رواية طوقان سنة ٢٢١ هـ =
٨٣٥ م ، وفي رواية فروخ ٢١٩ هـ = ٨٣٤ م . اشتغل في الصيرفة في مستهل حياته ، ثم
انتقل الى بغداد وانصرف الى العلم ، وقرأ على محمد بن موسى فوصله بالمتضد (٣)
وأدخله في جملة المنجمين ، وحظي عنده وكنشاه تعجباً (بابي الحسن) . يروى عن المتضد قوله
لثابت بينما كانا يتنزهاان في بستان الخليفة الفردوس (وقد اتكا على يد ثابت ، اذ نثر
الخليفة يده من يد ثابت بشدة ففزع ثابت فان الخليفة كان مهيباً جداً ، فلما نثر يده من
يد ثابت قال له : يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستدتت عليها وليس هكذا
يجب أن يكون ، فان الملمساء يمتلون ولا يمتلون) .

كان ثابت يجيد السريانية واليونانية ناهيك عن العربية التي كان يحسن النقل
والترجمة اليها . وقد عدّه سارتون من أجود المترجمين ، وكثيراً ما كان ينقل الى أبناء
موسى بن شاكر كتب علماء اليونان وبخاصة الى محمد الذي قيل انه استصحب ثابتاً معه
الى بلاد الروم سعياً وراء الكتب الملمية لنقلها الى العربية .

تولي ثابت في بغداد عام ٢٨٨ هـ (ولا خلاف على سنة وفاته بين المؤرخين كسنة
ولادته) .

□ منجزاته وإبداعاته :

- من الأوائل العرب الذين مهدوا لإبداع علم (التكامل والتفاضل) .
- أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره .
- حل بعض المعادلات التكميبيية بطرق هندسية استعان بها بعض علماء الغرب .
- استخراج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان . فكان ما وصل إليه يزيد على طول السنة الحقيقي بمقدار هو أقل من نصف ثانية . (فروخ ص ٢٩٧) .
- له في الهندسة التحليلية ابتكارات لم يسبقه إليها أحد قبله (فقد وضع كتاباً في الجبر بيّن فيه علاقة الجبر بالهندسة ، فكيفية الجمع بينهما) .
- وضع قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابية .
- أول شرقي بعد الصينيين بحث في المربعات السحرية .
- يقال انه قسم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، بطريقة تفاسير الطروق التي كانت معروفة عند اليونان .
- استعمل الجيب والخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة (شكل المبنى) أو دعوى الجيب (أي نسب جيوب أضلاع المثلثات العادية من تقاطع القسيّ العظام في سطح الكرة كنسب جيوب الزوايا المتوترة بها) .

□ الكتب التي أصلها ثابت ونقلها الى العربية في الفلك (والرياضيات) :

- كتاب تحرير كتاب المفروضات : نسخه الخطية : في ايران - جامعة طهران برقم (٢٤٣٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٢٠/مجموع) وفي مكتبة أياصوفيا (٢٧٦٠/ف/٧٦١) من عام ٨٤٥ هـ . وهو ٣٦٠ شكلاً وفي بعض النسخ ٣٤ شكلاً .
- وفي جامعة كولومبية - نيويورك ضمن مجموعة برقم (٣٠٦/شرقي / MS) وقد نشرته دائرة المعارف ببيدر أباد سنة ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م ضمن رسائل لبني موسى والطوسي .
- تحرير كتاب مأخوذات (المسلمات أو المصادر) أرشميدس : ترجمة ثابت بن قرة في جامعة طهران برقم (٢٤٣٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٢٠/مجموع) وفي أيا صوفيا برقم (٢٧٦٠/ف/٧٦١) من عام ٨٤٥ هـ .
- ترجمة كتاب المدخل الى علم المدد (لنيقوماض الجاراسيني أو الجرشي ت . نحو عام ١٣٥ م) . اعنتى بتصحيحه ونشره الأب (وليهم كوتش اليسوعي) عام ١٩٥٩ م وصدر عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت تحت عنوان (بحوث ودراسات) بإدارة معهد الآداب الشرقية في بيروت .

- رسالتان لأرشميدس في الدوائر المتماثلة : (يظن أن الناقل هو ثابت بن قرة) في خدابخش
- بثنه برقم (٢٥١٩/ف/٣١٢٦) من عام ٦٣٢ هـ . تحتويان على عشرين شكلاً هندسياً .
نشرتتهما في حيدرآباد – دائرة المعارف الإسلامية عام ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م .
- تحرير كتاب المخطيات لأقليدس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قرة وهو
٩٥ شكلاً . نسخه الخطية : من أياصوفيا برقم (٢٧٥٨/ف/٧٥٧) من القرن ٦ هـ .
وفي أحمد الثالث – استنبول برقم (٣٤٥٣/ف/١١٧٩) في عام ٦٧٢ هـ . وفي سليم آغا –
استنبول برقم (٧٤٣/ف/٨٨٦) من عام ٦٧٢ هـ .
- تحرير كتاب المناظر لأقليدس : ترجمة اسحاق بن حنين واصلاح ثابت بن قرة وهو
٦٤ شكلاً . نسخه الخطية : في سليم آغا برقم (٧٤٣/ف/٨٢٦) في عام ٦٧١ هـ . وفي
أياصوفيا برقم (٧٦٠/ف/٧٦١) .
- مقالة في برهان المصادر المشهورة من اقليدس: يبحث في الزوايا من قطع مستقيم لمستقيمين
لا يقتربان ولا يبعدان (ستوازيان) . في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها
عام ١٣٠٥ هـ .
- رسالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية : في أياصوفيا برقم (٢٤٥٧/ف/
٧٥٨) تم نسخها عام ٨٦٠ هـ .
- اصلاح كتاب أوطولوقس في الطلوع والغروب : في جامعة كولومبية – نيويورك ضمن
مجموعة برقم (٣٠٦/شرقي) .
- الكرة المتحركة (لاوطولوقس) : في أوقاف بغداد برقم (١/٥٤٨٨/مجاميع) كتبها محمد
باقر مرتضى عام ١١٠٢ هـ . وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ .
ونسخة بعنوان (تحرير كتاب الكرة المتحركة لاوطولوقس) اصلاح ثابت بن قرة . في
جامعة كولومبية برقم (٥٢/شرقي/MS)
- رسالة في العجة المنسوبة الى سقراط في المربع وقطره : في الظاهرية برقم
(٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ . وفي أياصوفيا ضمن مجموعة برقم
(٤٨٣٢/٥) من ص (١٤٠ – ١٤٢) .
- المقالة الخامسة من كتاب ابلونيوس في المخروطات : نقلها ثابت واصلحها بنو موسى .
طبعت مع مقدمة بالألمانية للمستشرق (تيكسن) في ليبسك عام ١٨٨٩ م .
- رسالة في كيف ينبغي أن يُسلك الى نيل المطلوب من المعاني الهندسية : في الظاهرية
برقم (٥٦٤٨/عام/مجموع) تم نسخها عام ١٣٠٥ هـ . وفي أياصوفيا ضمن مجموعة برقم
(٤٨٣٢) من ص (١ ب – ١٤) .
- اصلاح المقالة الأولى من كتاب ابلونيوس في قطع النسب المحدودة ، ولم يصلح المقالة
الثانية لأنها غير مفهومة .

□ اشاره في الرياضيات :

- مختصر في علم الهندسة .
- رسائل في الاصول الهندسية (المبادئ) . نشرتها دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد عام ١٣٦٦ هـ = ١٩٥٣ م .
- رسالة في الدوائر المماسه لأرشميدس: نشرتها وزارة المعارف - حيدر آباد - عام ١٣٦٦ هـ .
- كتاب في المثلث القائم الزاوية .
- كتاب في قطع الأسطوانة : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (١٤ - ٢٦) .
- كتاب في أعمال ومسائل اذا وقع خط مستقيم على خطين .
- كتاب في أن الخطين المستقيمين اذا خرجا على أقل من زاويتين قائمتين التقيا في جهة خروجهما .
- في الشكل الملقب بالقطاع : في دار الكتب المصرية برقم (٤٠) وفي الجزائر برقم (١٤٤٦) وفي الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) من عام ١٣٠٥ هـ . وفي أياصوفيا برقم (٤٨٣٢/٧) وفي سراي احمد الثالث برقم (٣٤٦٤/١٣) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٣٧) وفي برلين برقم (٥٩٤٠) وفي الأوسكوريال برقم (٩٢٧/٢) منسوخة بمعهد التراث بحلب برقم (١٣٧٩/مجموع) . ترجم الكتاب الى اللاتينية (جيرارد الكريموني) .
- كتاب في قسمة الأرض . مركز تحقيقا كميتر علوم راسمي
- كتاب في مقدمات اقليدس .
- كتاب في أشكال اقليدس .
- كتاب في استخراج المسائل الهندسية .
- المدخل الى كتاب اقليدس : ويمد من أهم كتبه واجودها .
- كتاب في المربع وقطره .
- كتاب في الأشكال المسطحة وسائر البسط والاشكال .
- كتاب في قطع المخروط المكافئ : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (٢٦ ب - ٣٦ ب) . وفي مشهد رضوي برقم (٥٥٩٣) وفي باريس برقم (٢٤٥٧/٢٥) .
- كتاب في مساحة الأجسام المكافئة : في باريس برقم (٢٤٥٧/٢٤) .
- كتاب في مساحة قطع المخروط المسمى بالمكافئ : في الظاهرية برقم (٥٦٤٨/عام) في عام ١٣٠٥ هـ .

- مقالة في عمل شكل مجسم ذي أربع عشرة قاعدة تحيط بها كرة مينة : في الظاهرية برقم (٥٤٥٧) نقلها مصطفى فوزي عام (١٠٩٠ هـ) عن نسخة كتبها ابراهيم بن هلال ابن ابراهيم بن زهرون الصابي العراقي في ذي الحجة عام ٣٧٠ هـ من دستور أبي الحسن ثابت . وفي كوبرللي برقم (٩٤٨/٣) كتبها ابراهيم بن زهرون من نسخة بخط ثابت بن قره عام ٣٧٠ هـ .

- مقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية . في اياصوفيا برقم (٢٤٥٧) . وفي احمد الثالث ضمن مجموعة برقم (٣٠٤١) من ص (١٢٤٥ - ٢٤٦ ب) تم نسخها نحو عام ٧٠٠ هـ .

- مقالة في الهندسة ألفتها لاسماعيل بن بلبل .
- جوامع كتاب نيقوماخس (الجرشيني) في الارثماتيقي (الحساب) .

- رسالة في العدد الوفق : (أي الأعداد المتوافقة) وهي التي بينها عامل مشترك) .
- رسالة في الأعداد المتعابة : في اياصوفيا برقم (٧٦٥/ف/٤٨٣٠) كتبت بدمشق عام ٦٦٦ هـ . مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٦/١٣٩) نشرها د. أحمد سليم سميدان بدم من الجامعة الأردنية - عمان عام ١٩٧٧ م .

- في مساحة الأشكال المسطحة والمقسمة : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (١٤٢ - ١٤٥) .

- مقالة في صفة الأشكال التي تحدث بمد طرف ظل القياس في الأفق في كل يوم وفي كل بلدة: في الاسكوريال برقم (٩٦٠/١٥٤/٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٣٨٠/مجموع) وأخرى ضمن مجموعة برقم (٩٦٠/٤) تم الفراغ من نسخها في ١١ رمضان عام ٧٤٢ هـ = ١٨ شباط ١٣٤٢ م . وفي غزيري برقم (٩٥٥) .

- رسالة في التحليل والتركيب : نشرها مع رسائل ابراهيم بن سنان بن ثابت بن قره د. أحمد سليم سميدان في الكويت عام ١٩٨٣ م .

□ في الفلك :

- كتاب في سنة الشمس بالأرصاد : في المكتب الهندي العربي برقم (٧٣٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٣٦/مجموع) . وأخرى ضمن مجموعة برقم (١٢٧٠/١) من ص (١ - ٩) .

- كتاب تسهيل قراءة المجسطي : في مجلس شوراي - طهران برقم (٤٦٤٢/٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٣٣) .

- المدخل الى المجسطي : لم يتم وينعد من أهم كتبه وأجودها .

- كتاب في أشكال المجسطي .

- كتاب في حالة الفلك .

- كتاب في رؤية الأهلة في الجنوب .

- كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها وتوسطها بحسب الموضع الذي يكون فيه الفلك الخارج من المركز . في باريس ضمن مجموعة برقم (٢٤٥٧) من ص (٥٦-٥٩) .
- كتاب في علم ما في التقويم بالمتحن .
- مختصر في علم النجوم .
- كتاب في محنة حساب النجوم .
- مقالة في حساب خسوف الشمس والقمر .
- مقالة فيما يظهر من القمر في آثار الكسوف وعلاماته .
- مقالة في علة كسوف الشمس والقمر : توفي ثابت قبل اتمامه .
- كتاب فيما أغفله ثاون في حساب كسوف الشمس والقمر .
- كتاب في طبائع الكواكب وتأثيراتها .
- جوابان عن كتابي محمد بن موسى بن شاكر اليه (أي الي ثابت) في أمر الزمان .
- رسالة في كيف ينبغي أن يسلك الي نيل المطلوب من المعاني الهندسية : وفيها ذكر آثار ظهرت في الجو ، وأحوال كانت في الهواء مما رصد بنو موسى وأبو الحسن ثابت بن قره .
- في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢) من ص (١ ب - ٤ أ) .
- في حركات النيرين : في اكسفورد - بودليان ضمن مجموعة برقم (٣ / Thurst) من ص (١٠٢ أ - ١٠٣ ب) .
- في حركة الافلاك : في الظاهرية برقم (٤٤٨٩) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٣/٤٤٨) .
- كتاب في ذكر الافلاك وحلقها وأدوات حركاتها ومقدارها وسيرها : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٨) من ص (١٥٠ - ١٥١ أ) . وفي القاهرة :
- طلعت ضمن مجموعة برقم (٣٧٧) من ص (١٦٧ أ - ٦٨ ب) .
- في حساب رؤية الهلال : في المكتبة البريطانية ضمن مجموعة برقم (Rich/١٣/٧٤٧٣ / Add) من ص (١٠٨ - ١١٣) .
- من كلام ثابت بن قره في الهيئة : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٤٨٣٢/٢) من ص (٥٣ ب - ١٥٤ أ) .
- كتاب في آلات الساعات التي تسمى رخامات : في دار الكتب المصرية برقم (١٠٤٧/ميقات) في آخرها بعض الجداول والرسوم . منسوخة عن نسخة لأبي الحسن ثابت بن قره رحمه الله ، لم تكن بنخله عام ٧٧٠ هـ .
- العمل بالاسطرلاب : في القاهرة - طلعت ضمن مجموعة برقم (١٥٥/ميقات) من ص (١ ب - ١٢ أ) .

- كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس أن به استخراج من تقدمه مسيرات القمر الدورية . وهي المستوية : في كوبرلي - استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٤٨/٢) من ص (٩١-١٠٧) نسخها ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي العراقي عام ٣٧٠ هـ .
- كتاب في أشكال الخطوط التي يمر عليها ظل المقياس .
- كتاب في המתحن وترجمة ما استدركه على حبش في המתحن (حبش بن عبدالله المروزي) .
- جواب عن سبب الخلاف بين زيچ بطليموس وبين زيچ המתحن .
- كتب عدة في الأرصاد : باللغة العربية والسريانية .

□ في الطب :

- كناش في الطب (الذخيرة) : يقول ابن أبي اصيبعة أنه أئفاه أو جمعه لانه سنان بن ثابت . بينما ينفي القفطي في أخبار العلماء ص ٨٤ أن يكون لثابت بن قرة . ويرجع د. سامي حمارنة في تاريخ تراث العلوم الطبية ص ١٧٨ ان (الذخيرة في علم الطب) منتحل لثابت ويقول : انه من تصنيف احد تلامذته او أتباعه . ويسوق حجته قائلا : (انه وردت اشارة فيه - أي في كتاب الذخيرة - الى كتاب (الملكي) للمجوسي الاهوازي الذي أئفه للملك عضد الدولة (٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م - ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م) وهذا الكتاب الملكي قد تم تأليفه بعد موت ثابت بن قرة بأكثر من نصف قرن . فلا يحقل ان يكون كتاب الذخيرة له .) وهناك دراسة للأستاذ حبيد (١٩٦٦) ترجع أنه لثابت ابن قرة . ويشتمل على ما يحتاج اليه في علم الطب ويتألف من ٣١ مقالة .

نسخه الخطية : في الظاهرية برقم (٧/ط - رقم قديم/٦٧٦٨) نسخت في رجب عام ١١٤٠ هـ . مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧/٣٢٦) ونسخة ناقصة في مكتبة د. حداد - بيروت برقم (٩) ونسخة في مكتبة علي حسن - بالموصل . وفي أحمد الثالث برقم (٢٠٩٨/ف/١١٥٥) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٩٥٠) كتبها أساميل بن يوسف عام ٦٢١ هـ . وأخرى ناقصة في آخرها برقم (١/٢٠٧٣/ف/١١٥٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٩٥١) وفي بورصة تركية برقم (١١١٧) . وفي شهيد علي - إيران برقم (٢٠٢٨) وفي داتشكده - طهران برقم (٧٩٣٠) . وفي مجلس شوراي برقم (٥٠٢) وأخرى بدون رقم مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٧٥٢) . وفي رامبور برقم (١/٤٦٧) . وفي جستر بيتي - دبلن برقم (٤١٢٨) . وفي الاسكوريال ضمن مجموعة برقم (٨٧١) من ص (١ - ١١٢) . وفي جامعة بيل - نيوهاغن - أمريكا ضمن مجموعة كتبت في القرن الثامن عشر الميلادي .

حقق كتاب الذخيرة د. جورج صبحي المصري - القاهرة عام ١٩٢٨ م . وصدر في بيروت عام ١٩٢٨ عن دار المدينة .

- الكناش : في أياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧١٦) .
- الروضة في الطب : في أكسفورد - بودليان ضمن مجموعة برقم (١/١٣٤) من ص (١ - ٦٥) .
- معرفة النبض : في طهران برقم (٤٦/٣١٩٠) .

- رسالة في تولد العصى : في برلين ضمن مجموعة برقم (٩٣٥٨) من ص (٣٩-٤١) .
- في البياض الذي يظهر في البدن : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٧٤٢) من ص (١٤٧ ب - ١٥٢ ب) .
- كتاب في البيطرة في كوبرللي - استنبول ضمن مجموعة برقم (٩٥٩/٢) من ص (٥٠ ب - ٨٦ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في قوى الادوية المسهلة : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٢٢٧ ا - ٢٣٣ ب) .
- جوامع كتاب سوم المزاج المختلف لجالينوس : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (١٣٤ ا - ١٣٨ ا) .
- جوامع كتاب جالينوس في الذبول : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٣٨ ب - ٤٥ ب) وفي اكسفورد - بودليان برقم (٢١٥/٣) .
- جوامع كتاب تدبير الامراض العادة على رأي بقراط : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٤٥ ب - ٥٥ ا) .
- جوامع كتاب جالينوس في تشريح الرحم : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٥ ا - ٥٨ ب) .
- جوامع كتاب جالينوس في المولودين لسببها أشهر : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٥٨ ب - ٦٢ ا) .
- جوامع كتاب جالينوس في أصناف الأمراض : في اياصوفيا ضمن مجموعة برقم (٣٦٣١) من ص (٦٢ ا - ٦٥ ا) .
- مسائل طبية .
- جوامع تفسير جالينوس لكتاب ابقراط في الأهوية والمياه والبلدان .
- جوامع كتاب الادوية المنقية لجالينوس .
- جوامع كتاب المرة السوداء لجالينوس .
- كتاب الأعضاء اللمسة لجالينوس .
- جوامع كتاب الفصد لجالينوس .
- جوامع كتاب الامراض العادة لجالينوس .
- جوامع كتاب الكثرة لجالينوس .
- جوامع ما قاله جالينوس في كتابه في تشريف صناعة الطب .
- اختصار كتاب النبض الصغير لجالينوس .
- اختصار كتاب أيام البحران لجالينوس .
- كتاب وضع المفاصل والنقرس .

- كتاب في الوقفات التي في السكون الذي بين حركتي الشريان المتضادتين : كتبه بالسريانية ورد فيه على الكندي . نقله الى العربية عيسى بن أسيد النصراني . وأصلحه هروبيثا ثابت العربي - أي ابن سنان - وقد رده على ثابت بعد موته اسحاق بن كرنيب .
- كتاب في مسألة الطبيب للمريض .
- كتاب في الصفرة العارضة للبدن وعدد أصنافها وأسبابها وعلاجها .
- رسالة في العصبية والجدرى .
- كتاب البصر والبصيرة في علم العين ومداواتها : في المكتبة البريطانية برقم (١١٧٧٢/ شرقي) .
- كتاب تدبير الصحة .
- كتاب الى ابنه سنان في العث على تعلم الطب والحكمة .
- كتاب الخاصة في تشريف صناعة الطب وترتيب أهلها وتعزيز المنقوصين منهم بالنفوس والاختبار أن صناعة الطب أجل الصناعات: قدمه للوزير أبي القاسم عبيدالله بن سليمان .
- كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية : بالسريانية :
- كتاب في تشريح بعض الطيور : ربما (لمالك الحزين) من الطيور .
- مقالة في صفة كون الجنين .
- رسالة في اختيار وقت لسقوط النطفة .
- في علوم أخرى :
- كتاب في مراتب العلوم .
- مسائل مشوقة في العلوم .
- كتاب في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك .
- كتاب في القرسطون (ميزان الذهب) .
- أشكال في المعيل .
- كتاب في أن سبيل الأثقال التي تعلق على عمود واحد منفصلة هي سبيلها اذا جعلت ثقلاً واحداً مشبوتاً في جميع العمود على تساوي .
- كتاب في سبب كون الجبال .
- كتاب في الأنواع .
- رسالة في توليد النار بين حجرين .
- كتاب في السبب الذي من أجله جعلت مياه البحر مالحة : في أحمد الثالث - استنبول - برقم (٣٣٤٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٢/مجموع) وأخرى برقم (١٤٤٩/مجموع) .



- كتاب في آلة الزمر .
 - كتاب في الموسيقى .
 - رسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى .
 - رسالة الى علي بن يحيى المنجم ، فيما أمر بأثباته من أبواب علم الموسيقى .
- في المنطق والفلسفة والدين والأخلاق :

- اختصار المنطق .
- جوامع كتاب أثالوطيقا الأولى .
- كتاب أغاليط السفسطائيين .
- اختصار كتاب ما بعد الطبيعة .
- رسالة في مذهب الصابئين ودياناتهم .
- رسالة في الطهارة والنجاسة .
- رسالة فيما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح .
- كتاب في الأخلاق .
- مختصر في الأصول من علم الأخلاق .



□ العواشي :

الصابئة SABIA : | صابئون : [Sabaeans] :

١ - في اللغة : يقال صبا بمعنى برز وطلع ، وكذلك صبا بمعنى مال وزاغ ، كما يقال صبا الرجل اذا ترك دينه ودان بأخر ، فهو صابئ . وهم صابئون ، وفي الإصلاح الشائع (الصابئة) قوم يعبدون الكواكب ، أو يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنهم على ملثة نوح ، كما قيل هم قوم ليسوا بيهود أو نصارى ولا دين لهم ، وفي قول آخر : الصابئون يقولون لا اله الا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف أن القرآن أشار إلى الصابئة وقرنهم بأصحاب الكتب السماوية . وقد عاشت الصابئة بعد قيام الدولة الإسلامية في حران شمال سورية وبغداد من أنحاء العراق ، ومنهم من احتفلت بمقيدته حتى اليوم واحاطها بتوع من السرية يدعو أن نشر تعاليمها يجعلها عرضة للتعوير والتغيير والازوال على مر الأيام ، لهذا فالتعريف بالصابئة يستلزم التفريق بين الصابئة كما ورد في اللفظ نصاً في القرآن الكريم وبين عقيدة الصابئة التي عاشت وما زالت في ظل الدولة الإسلامية .

إن الصابئة الذين يعنهم القرآن هم حشاه موحدون ، وانهم سبقوا اليهود الذين سبقوا النصارى الذين دانوا بالانجيل قبل تبديله .

والصابئة في الإصلاح التاريخي هم طائفة دينية. كانت وما زالت تعيش في العراق لا سيما في حران ، ومنها انتقلت الى بغداد وغيرها منذ العصر العباسي الاول ، ومن هؤلاء الصابئة من دخل في الاسلام ، ومنهم احتفلت بمقيدته .

انتقل بعض الصابئة التابعين الى بغداد وقاموا بنقل التراث اليوناني والسرياني الى اللغة العربية .
أصدر الخليفة الطائع سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م تحت تأثر كاتبه ابي اسحق بن هلال الصابئ . عهداً يبيح للصابئة مباشرة مقيدتهم في حرية تامة .

من : (القاموس الاسلامي) يتصرف

٢٢٢ / ٤

- ٢ - حران : مدينة قديمة قاعدة بلاد مضر شمالي سورية فتحها عياض بن غلم زمن عمر بن الخطاب : انظر ياقوت .
- ٣ - المعتضد : الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م - ٢٨٩ هـ = ٩٠١ م) .

□ مصادر ترجمته :

- فهرست ابن النديم ٢٧٢ • ابن أبي أصيبعة : حيون الألباء
 ٢٩٥ - ٣٠٠ •
 - ابن خلكان : وفيات الأيمان ١٢٤/١ - ١٢٦ •
 - ابن كثير : البداية ٨٥/١١ •
 - البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ٢٠ - ٢١ •
 - ابن العربي : تاريخ مختصر الملوك ٢٦٥ - ٢٦٦ •
 - القفطي : أخبار العلماء ١١٥ - ١٢٢ •
 - ابن جليل : طبقات الأطباء ٢٥ •
 - اليافعي : مرآة الجنان ٢ / ٢١٥ - ٢١٧ •
 - ابن العماد : شذرات ٢ / ١٩٦ - ١٩٨ •
 - العظم : عقود الجواهر ١١٢ - ١١٨ •
 - الغوانساري : روشتات الجنات ١٤١ - ١٤٢ •
 - صاعد : طبقات الأمم ٥٧ •
 - حاجي خليفة : كشف ٢١٨ ، ٢٩٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٥ ، ١٥١٣ •
 - البغدادي : إيضاح ٩١/١ •
 - المسعودي : التلخيص والأشرف ٧٢ - ٧٣ ، ٢٢٢ •
 - كعانة : معجم المؤلفين ١٠٢/٣ •
 - الزركلي : الأعلام ٨١/٢ - ٨٢ •
 - هـ هيسي : معجم الأطباء ١٥٥ •
 - طوقان : تراث العرب ١٦٥ - ١٧٥ وصفحات متعددة
 والمائلون العرب ٥٧ - ٦٢ •
 - فروخ : تاريخ العلوم ٢٩٦ - ٣٠٠ ، وتاريخ الفكر ٢٥٧ -
 ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ - ٢٨١ •
 - هـ بدوي : موسوعة المستشرقين ٢٩٤ ، ٣٠١ •
 - هـ سامي حمارة : تاريخ تراث العلوم الطبية ١٧٨ - ١٨١ •
 - سركيس : معجم المخطوطات ١/٦٥٣ - ٦٥٤ •
 - هـ هيسي : تاريخ النبات ٤٧ - ٤٨ - رياضيات بهاء العاملي
 وكتابه خلاصة الحساب : ٦٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ،
 ٢٠٢ • حقه وملق عليه هـ جلال شوقي - منشورات معهد
 التراث بطلب - ١٩٧٦ •
 - هـ سعيدان : قاموس مصطلحات الرياضيات الابتدائية ٨ •
 - هـ طويل : من تراثنا العربي ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ •
 - منصور جرداق : مآثر العرب في الرياضيات والفلك ١٨ •
 - بروكلمن : ١/٢٤٢ (٢١٧) ، ٥١١ ملحق ١/٣٨٦ - ٣٨٤ •
 - فانديك : اكتشاف الفروع ١٧٨ - ١٧٩ •
- هوتكه : العقيدة والمعرفة ١١٩ - ١٢٠ •
 - لوكليرك : تاريخ الطب ١/١٦٨ - ١٧٢ ، ٢/٤١١ •
 - مقدمة سارتون : ١/٥٩٩ - ٦٠٠ ، سوتر ٣٤ - ٣٨ •
 - سمث : تاريخ الرياضيات ٢/٤٥٥ ، ٦٨٥ •
 - كاجوري : تاريخ الرياضيات ١٠٤ •
 - بول : مختصر تاريخ الرياضيات ١٥٩ •
 - نللينو : علم الفلك ١٣٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٥ •
 - فيمنن : ثابت بن قرة : حياته ومؤلفاته - سلسلة مقالات
 عن تاريخ العلوم عند العرب - المجلد الثاني - المانية ١٩٧٠ •
 - ماكس مايرهوف : تراث الإسلام - العلوم والطب ٤٥٨ ،
 ٥١٠ ترجمة فتح الله •
 - كاردي فو : تراث الإسلام - الفلك والرياضيات ٥٦٤
 وحاشية (٤) ، ٥٦٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ترجمة فتح الله جرجس •
 - فارمر : تراث الإسلام - الموسيقى ٥٣٣ ، ٥٣٤ ترجمة جرجس
 فتح الله •
 - فارمر : تاريخ الموسيقى العربية : ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ •
 - فيبكه : بحث في نظرية أضافها ثابت بن قرة الى الحساب
 النظري هند اليونان - نشره عام ١٨٥٢ م •
 - روسكا : الموسوعة الإسلامية - مجلد ٤ ص ٧٧٠ - ٧٧١ •
 - اهلورد : ٥/٣١٩ •
 - دولان : فهرس المخطوطات العربية ٤٣١ - ٤٣٢ •
 - شيوخ : فهرس المخطوطات المصورة - القاهرة - طب ٢/٣ •
 ٨٨ - ٨٩ ، كونتش ٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ - سيد -
 الرياضيات ١٣/٣/١٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ •
 - العائدي : فهرس مخطوطات القاهرة - رياضيات ، ٢٦ -
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ - ١١٥ - ١١٦ •
 - خوري - فلك ١٣ ، ٣١ •
 - هـ حمارة : طب : ٢٣٠ - ٢٣٥ •
 - صوافي - العلوم ٢١٤ - ٢١٧ •
 - هـ حداد وبيتر فيلد : فهرس مكتبة هـ سامي حداد ٤٠ - ٤١ •
 - كوركييس مواد : جولة في دور الكتب الأمريكية ٨٣ ، ٩١ ، ٩٤ •
 - الجبوري : فهرس مخطوطات أوقاف بغداد ١/١٥٥ •
 - هـ ششن : نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركية
 ٣٩٥/١ •

□ المجلات والمؤتمرات :

- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٨٦ - ٨٧ منصور جرداتي .
- الثقافة : استقانس الكرملني صفحات متعددة .
- العلوم : ايلول ١٩٦٤ من ص ٣٧ - ٤١ فكتور الكك : بناء العضارة العربية - ثابت بن قررة الهراثي .
- العربي : الكويت عام ١٩٨٤ م عدد ٣٠٩ د سالم الانصاري : حقائق من علم الفلك عند العرب ص ١٥١ - ١٥٥ .
- المورد : مجلد ٦ عدد ٤ ص ١٧٩ ، ٢٦٤ .
- ايزيس : مايرهوف : عام ١٩٢٢ م عدد ١٤ ص ٥٥ - ٧٦ .
- ابحاث المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب - حلب ١٩٨٣ م . د محمد سوسي : الترجيح اللساني في النقل الاول للغة الرياضيات الى العربية ص ٨٩ - ٩٦ .
- F. SEZGIN : Geschichte des Arabischen Schrifttums, Bana III. 260-263, 377-390, V. III. 264-272, VI. III. 163-170.
- The Astronomical Works of Thabit B. Qurra (tr. By Francis J. Carmody) Berkely - University (U.S.A.) Press 1980.
- المجمع العلمي بدمشق : مجلد ١٧ ص ٧٨ - ٨١ د مرشد خاطر .
- التراث العربي - دمشق ، عام ١٩٨٣ عدد ١٠ ص ١٩٧ - ٢٠٣ د صلاح محمود هانم : الذخيرة .
- التراث العربي - دمشق : عام ١٩٨٣ عدد ١١ - ١٢ - امراض الملثمة عند العرب : د مؤنس محمود هانم و د صلاح محمود هانم .
- التراث العربي - دمشق : عام ١٩٨٥ عدد ٢١ ص ٤٧ - ٦٢ علماء العقائل النباتية : د عبد الكريم اليبالي .
- معهد المخطوطات : احمد اتش : عدد ٤ ص ٤٢ - المنجد : عدد ٥ ص ٢٨٦ .
- العروة : عدد تموز ١٩٣٦ ص ٤١ - ٤٢ د سامي حذاد .

★ ★ ★

الشعر الشعبي الغنائي

في الفراتين والبادية

دراسة: عبد الفتاح قلعه جي

شواطئ دجلة والفرات نشأت حضارات حريقة ، تأسست مدن ووثرت أخرى ، وما زال الفراتان عبر التاريخ مصدر الوحي والالهام لغالبية الشعراء الذين عاشوا على ضفافهما أو قدموا اليهما من البادية .



والصلة وثيقة ما بين البادية والفراتين ، فهما المورد والسوق ومحط القوافل الضاربة والطريق القديمة التي تسير عليها القوافل ما بين الخليج العربي وشواطئ المتوسط . ومن الفراتين قدمت الينا ألوان عديدة من الشعر الشعبي الغنائي كالموال والمعابا والكان كان والقوما والدوبيت ، وعلى المدى الطويل تكونت للسكان القاطنين على ضفاف هذا الشريط المائي شخصية موحدة يشكل الشعر الشعبي الغنائي واحداً من أهم مكوناتها .

من العمارة والكوت والرمادي الي البوكمال ودير الزور والرقبة تلمس في السكان وحدة اللهجة والسلوك والعادات والتقاليد ، كان ظروف الميش على ضفاف هذا المجال الحيوي قد طبعتهم بميسم واحد منذ أن كانت مملكة ماري تمتد على هذه الضفاف ومن قبلها أكاد وسومر وحتى الآن .

الاحساس بالوحدة والتكامل الحضاري : الثقافي والاجتماعي والاقتصادي هو الذي حثت اتجاهات الغزو والترحال على هذا الشريط منذ عهد سرجون الأول ونارام سين والعلاقات الاقتصادية والسياسية الواسعة بين مضايف ماري وبابل الي آخر محاولات الوحدة بين القطرين سورية والعراق .

انتقال الاغاني الشعبية من العراق الي سورية على هذا الشريط الحيوي مستمر منذ القديم ، وبالرغم من وجود كيانات سياسية متعددة ومجموعات حضارية مستقلة فان الايمان والأشعار الشعبية الغنائية كانت في حركة متصلة توحد بين شعوب هذه المنطقة وترتبط

بين ماضيها وحاضرها ، وكانت هي المبرر عن القيم الروحية والجمالية لها وعن مواقفها المشتركة من الحياة والناس والأحداث التاريخية ، وما تزال الى الآن بعض هذه الأغاني تحمل في كلماتها رموزاً غامضة تعود الى عهد موغلة في القدم ، وبعض الألحان تبدو متناسخة عن تراثيل قديمة .

شعر الفراتين الغنائي تنوع وثراء :

على الرغم من أن البحث في الأدب الشعبي حديث المهد الا أن شعر الفراتين الغنائي كان اوفر حظاً ، ولقي من الدارسين الاهتمام المبكر جمعاً وتوثيقاً ودراسة ، وظهرت فيه عدة مؤلفات تشكل للباحث مصادر أولية يكملها البحث الميداني والتاريخي ، كما أن عبور هذه الأشعار والألحان وحركتها على امتداد المكان والزمان وما يصيبها من تناسخ وتطور وتغير يجعل من الدراسات المقارنة أمراً ضرورياً .

هذه الأشعار الغنائية كانت تخضع في شكلها اللغوي واللحني وفي مضمونها ، من حيث البناء الأولي والتطور ، للبيئات التي نشأت فيها أو التي هاجرت اليها . ان أداء النوع الواحد منها يختلف من قبيلة لأخرى ومن منطقة لأخرى ، وعندما تنتقل أغنية مثل الشوملي الى مراكز الحضارة المدنية الواقعة ما بين الفرات والساحل كعلب وحمص ودمشق فانها كانت تخضع الى مؤثرات بيئية تكون وراء ما يمتورها من تغير في اللهجة واللفظ واللحن لتكون مناسبة للأذواق والمناسبات الجديدة .

الدراسة التاريخية المقارنة تشير الى أن بعض هذه الأغاني انحدر من جهود وحضارات قديمة شهدت المنطقة ، فمندما يتعرض الدارس الى أغاني الميسر الفراتية العالية لا بد أن يشير الى ميامر مار أرام الشاعر السرياني الكبير ، ولفظة ميسر في الأصل سريانية ، وعندما نتحدث عن أغنية سكابا يا دموع العين ، هذه الأغنية الأكثر شيوعاً في العراق والشام ومصر والتي يغلب عليها طابع الحزن وصور الموت والنداء من أصمق العالم السفلي ، لا بد أن نشير الى ترتيلة كنسية سريانية قديمة بذات اللحن والجو المأساوي ، ومن يدري فربما تعود هذه الأغنية الى جهود أهد موغلة في القدم ، فلعلها بقايا من طقوس الحزن الدينية على الاله الميت ديموزي السومري وتجسداته فيما بعد : بعل وحدد وأدونيس وأوزوريس ، لأن هجرة الأسطورة وانتقالها من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان وما يعتريها من اضافة وحذف وتغيير لم يكن مقتصرأ على القصة فحسب وانما كان يشمل أيضاً التراتيل الغنائية المصاحبة لها والتي كان بوساطتها يروى الحدث . مهما يكن فان هذا الامر يحتاج الى المزيد من البحث المقارن والتمحيص ، والى أن تتضافر من أجله جهود ذات اختصاصات متعددة لا تقتصر على البحث القولكلسوري وانما تستعين بالدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجية ربما يمكن أن يلقى ضوءاً في هذا الطريق .

تتصف أهاني الفراتين بالتنوع والثراء ، ومن الصعب الاتفاق على عدد هذه الأنواع الشعرية الشعبية الغنائية فهناك أنواع تصنف على أنها مستقلة وهي في الحقيقة مجرد ألوان

من أنواع رئيسية، كما أنه لم يتم حصر نهائي لها وذلك يستدعي مسحاً جغرافياً لها ودراسات ميدانية واسعة ، وسنحاول التعريف بأهم هذه الأنواع وأكثرها انتشاراً ، ثم نأتي على ذكر الأنواع المنتشرة في البادية .

١ - الأبوذية :

من أكثر الأنواع انتشاراً وشهرة ، وهي رباعيات تنظم على البحر الوافر ، مؤلفة من أربعة أشطر ، الثلاثة الأولى منها ذات قواف مجنسة جناساً كاملاً ، والرابع ينتهي بباء مشددة وهاء مهملة ، يرجح أنها نشأت في جنوبي العراق وسادت في بلدة الحبي وهي واسط ، ثم امتد انتشارها على مجرى الفرات إلى دير الزور .

هذا اللون هو المحبب في الغناء ، يتجاربى في نظمه وغنائه الشعراء ، ويؤدى في الأعراس والأفراح بطرق وأنغام متعددة ، وهي كالمنايا انعدرت كما يرى د. مصطفى جواد من الدوييت المعروف بالأعرج ، ويقول عنها المرادي في سلك الدرر أنها نوع من الشعر البغدادي الأصل أصابها التنوع والتفرع .

ومثلما اختلف في نشأتها وتاريخها اختلف في سبب تسميتها ، ويميل أغلب الدارسين إلى اعتبارها مأخوذة من كلمة الأذية ، أي الذي أذاه الدعر ، فهي كالمنايا تغلب عليها العاطفة الحزينة ، ولي الهند جبل يدمى جبل بوذ ، فهل هناك علاقة بين الاسمين ؟

تنظم الأبوذية في عدة أفراس كالغزل والنسيب والشكوى والزمام والهجاء والأخوانيات ، على أن أهم ما تتناوله هو موضوعات الحب من وصف ملاحه الحبيب ، ومجاناة الماشق ووصف حاله من وجد وسهر وقلق وضنى وما يقاسيه من جفاء المحبوب .

سكنت هرب لاجئك وانت بهلك « مع أهلك »

أون- وثمة المسجن وانت بهلك « وأنت الهالك »

أخط في النوم ساعة وانتبهلك

عجب ما ينكسر قلبك عليه

وشعراء المواصل هم شعراء الأبوذية ، ولكل منطقة شاعرها ، وهي في شكلها الفني وأسلوبها ومعانيها قريبة من المنايا ، وقد لا نجد في معاني هذه المنظومات الفئائية ما هو جديد ولكنها تقدم لنا نموذجات عاطفية شعبية ، ويستفيد شعراؤها من الرموز المشهورة في التراث العربي ومن قصص المشق والأحزان .

خل عيني بهواها تسيل ما دم « ماء ودم »

حزينة واللي يسرها أوياني ما دام

ما الغنسا بونيني عليك ما دم « آدم »

على حواء ولا أبو عامرية

وقد انفردت الأبوذية عن المتأبى بالاتكاء على شعر الفصحى بالمعارضة والتضمين
كقول أحدهم مستفيداً من قول أبي تمام :

نقتل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحييب الأول

هذا المعنى يستنسخه شاعر الأبوذية من غير أن يضيف إليه شيئاً فيقول :

أنا لأجلك لعند أعدائي ماشيت

ولا بكلمة لسانى عليك ماشيت

فؤادك نقله بالهوى ماشيت

النفس لأول حبيب تميل هيته

يوزم الشعراء الشمبيون بتجنيس القوالي تجنيساً كاملاً ، ويبدو أن هذا لا يعود إلى
إظهار المقدرة في اللغة والتصنيع فحسب وإنما يرجع إلى أن هذا التجنيس يحقق عند الغناء
ثلاثة أمور توفر للمنظومة الغنائية نوعاً من التكمال الفني وهي :

١ - المفاجأة والادهاش مع شيء من الفموض الفني .

٢ - موسيقى لفظية تتركز في مصب البيت .

٣ - موسيقى المعنى .

وكل منطلقاً طريقتها في غناء الأبوذية حسب النغمات المعروفة : البيات أو الحجاز
أو المزمج أو الصبا أو الجهاركاه ، وبذلك تتمدد ألوان الأبوذية لمنها اللامي نسبة إلى
عشيرة بني لام والعصبي نسبة إلى الصابئة والمنيسي والمشموم .

وقد غنى الصابئة الأبوذية بلحن حزين جداً ، وهم قوم صنعتهم الحب والشمر ، وقد
عرف من شعرائهم سوادى وأجد وسباهي شبيب وعودة منصور ، ومن جميل قولهم :

حدا حادي الأوبة بليل وامضه « ومضى »

بجفاهم صوبوني سهام وامضه « ماضية »

كثبت خطي لعند الزين وامضه « امضائي »

ويا وسفه جوابه أبطى عليه

٢ - الميمر :

رباعيات تنظم على البحر السريع ، وتتألف من أربعة أشطر ، الثلاثة الأولى قوافيها
منجسة جناساً كاملاً ، والرابع رويه الرام الساكنة ، وعادة ما يستعمل الغناء بهذا المطلع :

عالمير عالمير عالمير

ظعن الولف لشبيجة شال وحدر

ويعتور التغيير الشطر الثاني من المطلع شأن أغلب الأغاني الشعبية ، أما شبيجة فهو نهر في حويجة المبيد بالعراق .

ويرى بعضهم أن كلمة الميمر معرفة عن « الليمر » أي الذي مر ، أو « الماسر » أي الذي لم يمر ، وثمة قصة شعبية تروى في نشوء هذا اللون معروفة لدى أهالي جنوبي العراق وهي أن شاباً اسمه حسين أحب فتاة صابئية ورفض أبوها أن يزوجه أباهما ، فدفن بها ومرض وراح ينشد هذه الأشعار وهو على فراش الموت وأبوه يواسيه بمثلها حتى فارق الحياة ، وحفظ الناس هذه القصة وراحوا يروونها ، وأصبح من تمام الرواية أن تفتى معها الأشعار . والتعبير عن الأشواق وانتظار مرور الحبيب والمكابدة في العشق وأحوال العاشق هي الموضوعات الأساسية للميمر ، قديمطي ذلك تفسيراً لكلمة الميمر غير أن هذه الموضوعات هي عامة في الشعر الشعبي الفنائي كالموال والعتابا والأبودية وغيرها ، والحقيقة أن كلمة ميمر سريانية ، ومعناها أفنية ، ويميرو قصيدة مفناة ، وقد اشتهر الشاعر السرياني الكبير مار أفرام بنظم المياسر .

وقد تناول الميمر أهراساً شقى كالغزل والفخر والحماسة والتوجع والفراق والرتام ، وقد أبدع شعراؤه في وصف المحبوب كقول أحدهم :

رمضان خذك يا ترفى بس حبته

ودموع عيني كالمطر بس حبته

أفديه لعيونك يا ترفى بس حبته

من هالغنود الكنتها ورد أحمر

٣ - نظم البنات :

من أكثر الألوان الشعرية شيوعاً وأحبها إلى القلوب لرقة أبياته وخفتها وعفويتها وعدوبة نغمها ، ويختلف اسمه باختلاف المناطق فيدعى بالدرامي والغناء والتوشيح والنثر الشعبي ، وهي بنظم البنات لأن النساء يكثرن النظم فيه .

وتتألف المنظومة الفنائية من أبيات من مجزوم البسيط ، كل بيتين ينتهيان بقافية موحدة ، وفيه يتناول الشعراء قضايا الحب والوقائع والحوادث اليومية الهامة وموضوعات شتى ، وهو مادة للحوار ، فيه يتسامر ويتحاور ويتناقض السامرون ، ويتميز نظمه وهنأؤه ببساطة التعبير وصدق المشاعر وسهولة الأداء وخفة الموسيقى والرقعة العاطفية ، ويصبح أكثر تشويقاً عندما يأخذ طابع الحوار الفنائي حيث تمتد السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل .

لا يا حكيم الجاي لا تلمس لا يسلي

ماش نبضي ينيك روعي بوريلي

★ ★ ★

خليتني بهواي للنجم راعي
عينك تبوكل نوم لومتلي واعي

* * *

يا اخلت روحي ويتاك ردي روحي ليته
خوفي من النشام يشممت بيته

٤ - الهوسنة :

الهوس : الدق والكسر ، وهاس على المسكر : حمل عليهم فداهم وهاسهم ، ومنه كان اسم الهوسة هذا اللون من الشعر الشمبي الفنائي الكثير الشيوخ بين القبائل التي الفت الغزو ، فهو يقوي عزائمهم على القتال ، وكان له دور فعال في حركات التحرر الوطني ، وقد حضرت مهرجاناً شعرياً في مدينة قم بالمربية ، كان أحد الشعراء الشمبيين من الحضور وهو من منطقة عربستان اذا اشتد به الاعجاب والحماس راح يقطع الشعراء بأبيات من الهوسة فيلقى استحساناً كبيراً من الجمهور .

وأصل هذا اللون شطر واحد يرتجل بين الجمع ، ثم زيدت عليه ثلاثة اشطر ففدا من الرباعيات ، الاشطر الثلاثة الأولى متحدة القافية والرابع مختلف ، من ذلك قولهم :

جميع الناس مني وانا بيها

ومواكب سدت كده وانا بيها

وطيور أم الصلا ترف وانا بيها

تندار للدينيا ودهتانه

٥ - المتربع :

قصيدة غنائية طويلة تتالف من وحدات رباعية ، الاشطر الثلاثة الأولى منها متحدة القافية والرابع يقضى بقافية المطلع ، وقد نظم المتربع على أبحر مختلفة ولي الأراض شقي أهمها الوجدانيات كالغزل والشكوى الرثاء والحنين ، وكان له دور في مؤازرة الحركات الوطنية . وقد قلل النظم والغناء فيه حالياً ، ويذكر صاحب كتاب الطرب عند العرب أن منه نوعاً يدهم كلمة ونصف يبنى على البيات ، وطريقة غنائه أن يجلس الرجال على الأرض في شبه دائرة ، ويمسك كل منهم ساقه اليمنى يضربون بها الأرض معاً لضبط الوزن (وهذه الطريقة يستعملها الحلبيون في غناء القدود والموشحات والأدوار) وهم يرددون المطلع : « قلبي ينوح ما لومه » بينما يقف المطرب بينهم وهو يغني هذه الرباعيات .

ومن هذه المنظومات الغنائية نوع أشبه بالعماء تأخذ وحداته الرباعية بعضها بمناق بعض برابط لفظي ومعنوي كقولهم :

غَيَّرَ أَحْوَالِي الْأَوْدَةَ
مَنْ رَمَانِي بِسَهْمِ صَدَاهُ
لَيْشَ عَنِّي بِعَجْبِ بَعْدَهُ
أَوْ مَارَعَ وَيَسَائِي اللَّفَامُ
مَا رَاعَ وَلَا خَافَ رَبَّهُ
بِلا ذَنْبِ حَطَنِي مَسْبُتُهُ
جَا قَلَّتْ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ
حَرَمَ عَلَيَّ الْكَلَامُ
حَرَمَ وَعَنِّي تَعَدُّهُ
وَيَحْلِفُ بِمَاءِ صَدَاهُ
مَا تَمَسَّ النَّارَ جِلْدُهُ
كُلَّ مَنْ يَمُوتُ بِغَرَامُ

مِنْ وَنِيئِي كَامَ جَارِي
أَوْ بَعْدَ مَا يَلْفِي الدَّارِي
بَكَتْ عَيْنِي بِدَمْعِ جَارِي
يَشْبَهُ لَكْتَ الْفَمَامُ
بَكَتْ فَوْقَ الْوَجْنِ دَمْعِي
وَيَعْنُ لِفِرْقَاكَ ضَلَمِي
صَرْتُ بِسِ أَوْمِي بِأَصْبَمِي
أَوْ بَعْدَمَا أَوْمَى الْكَلَامُ
بَعْدَمَا أَوْصَى وَنَاوَعُ
وَلَمَّيْتِي الْقَدْرَ مَانَعُ
أَنُو تَبَدَّلِي الْوَصْلَ رَاضِعُ
غَيَّرَ أَحْوَالِي الْفَعْلَامُ

٦ - الناييل والسويجلي :

الناييل ضرب من الشعر الشعبي الفنائي المثنوي ، شطراء متحدثان في الغابية ، وينظم على بحر البسيط ، وهو كالميجانا يوضح به المغني أبيات المتأبنا للتخفيف من وقعها المؤسي لذا فإن موضوعه الأول هو المشق .

لازراع شكارة لعشيري واسقيها مي العين
واحصد هروش القلب لا مايجي الزين
لازراع شكارة لعشيري من تتن بو وريدة
يا يوم صايح خطا على الناييم وحيدة

يروي أن التي ابتكت الناييل لثاة من عشيرة العبيد كانت تحب في اسمه ناييل وقد قالت فيه :

ناييل قتلني وناييل غير الواني
وناييل بشوقه سقيم الروح خلايني

ولربما سمي الناييل بنوال المنى ، كأنهم ينون مغني العتابا الذي أثقله الحزن والفراق
بنيل المنى ، ومن أنواعه الغرباوي نسبة إلى غربي العراق ، والمراقي نسبة إلى العراق .
والسويحلي ضرب من الناييل يغنى بنغم البيات أكثر خفة ورشاقة ورقة :

بالقلب رسمك خلثك بعيد بلاد

بالقلب رسمك

كل من على اسمك القلب له يفتاح

كل من على اسمك

يا ريته بالعطب قلب سلا الفالي

يا ريته بالعطب

انتقل الناييل والسويحلي من عشائر فرات العراق إلى سورية وكثر شيوعهما في مناطق
دير الزور ، وأصبعا من الألوان المحببة في الفناء يغنيهما الرجال والنساء أثناء العمل
في القطاف أو على مراقي البناء .

٧ - أنواع أخرى من الأغاني الشعبية :

١ - البسة :

هكذا يسميه البغدادية ، وفي الفرات الأوسط يدعى بالموشح ، وفي الجنوب يدعى النشر ،
وهو لون من الأغاني الشعبية الخفيفة تقابل القدود تغنيها المجموعة بعد أن ينتهي المغني من
المقام ويستمد لأداء المقام التالي ، فهي الرابطة النفسي بين مقامين ومحطة في الفناء فيها حركة
وخفة وامتاع .

ب - الندب : النعي والمعادة :

الندب في الماتم قديم يجري في طقوس خاصة ، وهو لون من الشعر الرثائي يخلب عليه
مدح الميت وإظهار التحسر والألم واللوعة ، تغالطه أحيانا الحكمة والموعظة ، وهو
استمرار لطقوس الحزن على الآله الميت في ميثولوجيا وادي الرافدين وحتى طقوس التعزية
الحسينية ، ولا يغالي إذا قلنا ان العشق والحزن اللذين يقابلان الحياة والموت هما
المتبعان الرئيسيان لكل الإبداعات في الشعر الشعبي ، ومع تأصل المدنية في الحواضر الكبرى
وهياب علاقات القبيلة ومشاهرها الجماعية وأخذ الأسرة الصغيرة دورها المستقل في مجتمع
المدينة اختفت تلك الطقوس المنيفة في إظهار الحزن وتم الاستعاضة عنها بطقوس دينية
هادئة تتيح للمفجوع السلوان والتفكير والرضى بحكم القدر ، هذه الطقوس تتمثل بقراءة
القرآن في الليالي الثلاث للوفاة وتدعى « المقرية » وقراءة دعاء خاص صباح اليوم

الثالث حول القبر مع قراءة القرآن ويدعى هذا الطقس بـ « التليث » أي الثالث . ومنذ العصر الجاهلي كان البكاء على الميت في المجتمعات القبلية يأخذ طابع الحرفة لتعميق مظاهر المشاركة الجماعية، فهناك نساء ندابات يحترفن هذه الصنعة ، وكلما كان الميت كبيراً في قومه كانت احتفالات الندب أكبر .

والنمي أشعار حزينة تغنيها النساء في الماتم في بيت المتوفى وحول قبره ، أما المعادة فتختص بها المعادة وتسمى القاصودة أي التي تنشد القصائد في رثاء الميت حيث تجتمع النساء حولها في حلقة وهمن واقفات يضربن صدورهن الوعة وحزناً ، أو هكذا يمثلن ، والطبل يقرع ، وفي داخل الحلقة رجل وامرأة يتقابلان بسيفيهما ويتحركان على ايقاعات الطبل والغناء . وقد ذكر عبدالقادر عياش في صوت الغرات أن هذا اللون كان شائماً في مناطق دير الزور .

ج - التجليبية :

لون هنائي محبوب ينظم على بحر الهزج يتألف من شطرين بروي واحدهما المطلع ، ثم تتلوه الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى من كل رباعية متحدة القافية ، والأشطر الرابع على قافية المطلع ، وقد سمي هذا الغناء بالتجليبية لورود كلمة لأجلبتك في المقامع والرباعيات ، وهي لغة من جلب المرم : جاء به ، أو من الجلاب : المسبل والسكر المقفود بماء الورد ، كأنه يمسح محبوبته بالشعر والغناء :

لأجلبتك يا ليلي ألف تجليبية تنام أهل الهوى وتقول ما درى به
لأجلبتك يا ليلي وأصبح أني أنداس وذل خشمي عقب ما كنت عالي الرأس
كل يوم الدهر ويأي يلعب ساس حربة أويأي حرب أمطير وأعبته

د - الموليئة :

وهو من الغناء الذي انتقل الى المدن وشاع في أعراسها ، وينظم على بحر البسيط ، ويتألف من المطلع ثم الرباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى منها متحدة القافية ، والرابع على قافية المطلع :

يا عين موليئين يا عين موليئة درب الأحبة قطب عمل برجليئة

وقد شاع في حلب المطلعان :

يا حباب لا ترحلوا فلتوا حوايئة
وجسر العيب انكسر من دوس رجليئه

وفي رباعيات الموليئة نجد المواطف الرقيقة والصور اللطيفة كقولهم ، وهو من المقاطع المعروفة في حلب أيضاً :

من هون لعندنا ، ومن هون لعننا
 بتسوى من خيل العرب ، ومن فواكي الجنشا
 ايما بعود الزمان ، وبتيجي لعننا
 لفرش فراش الهنا ، وخطيك بايديه
 لاطلع عا راس الجبل واشرف على الوادي
 وقول يا مرحبا نسّم هوا بلادي
 يا رب يطوف النهر ، ويفرق الوادي
 لاعمل زنوبي جسر وقطعك ليته

ومولية هي نداء يا مواليا - يا موالية .. وبه سمي الموال ، وكانت الجوارى في رثائها
 البرامكة تختم غناها بهذا النداء :

ه - الهلابية :

ومعناه الترحيب « اهلا بك » وسمي به لتكرار هذه الكلمة في مطلع رباعياته ، يفتى
 على المجوز وينظم على الواو، الأشطر الثلاثة الأولى من رباعياته متحدة القافية ، والرابع
 على قافية المطلع ، وعندما ينهي المغني كل رباعية من منظومة الهلابية تردد المجموعة المطلع :

هلا يا الواردة يما هلابيه شبر وذراع قرمول العصابة

و - الشوملي :

وهو من الغناء الذي انتقل الى المدن تحت اسم الهويدلي ، وينظم على مجزوء الرجز ،
 يتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متحدة القافية والرابع على قافية
 المطلع ، ومطلعه كالمطلع الشائع في المدن عدا كلمة الشوملي التي تحل محل « هويدلي » ،
 ونغمة السيكاه :

عاشوملي عاشوملي نارك ولاجنة هلي

وسمي هذا الغناء بالشوملي نسبة الى الشومل وهي الريح الشمالية .

ز - البكرة :

وبه تتفنى النساء بكرة في مواسم الحصاد وهن يذهبن الى الحقول أو يعملن فيها
 للتخفيف من مشقة العمل ويتألف من مطلع ورباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متحدة

القافية والرابع على قافية المطلع ، وينظم على الهزج ، وقد ذكر صاحب كتاب الطرب نموذجها
منه نورده فيما يلي :

خبب يمشي المدلل بزرق النيلي على صدر المدلل دق يعلى لي

خبب يمشي الترف والنهد منه زام
ظريف ادعج مهيكل كامل الهندام
يرمي لو زرق عينيه نبل وسهام
من شفته يهلّ وأدم رقد حيلي

ح - الالالا :

وهو من الفناء الذي انتقل الى المدن وشاع فيها ، تغنيه النساء في الأعراس ، ينظم
على مجزوء الرجز ، ويتألف من مطلع ثم تليه الأبيات ، وكل بيتين بقافية واحدة :

صا لالا لالا ولا لا ليش الزعل يا خالة
وانا عاطيتك روجي بالله اعطيني بدالا
ما قلتك يا يمّا ليني جد ايل راسي
كل البنات انخطبوا الا ابن عمي ناسي
ما قلتك يا يمّا على الراحة عيني نيني
ما ادري المحبة من الله ما ادري العشق سايني

ط - الهللية :

هذا الفناء ينظم على بحر الوافر ، نغمه البيات ، ويتألف من مطلع ورباعيات ،
الأشطر الثلاث منها متعددة القافية والرابع على قافية المطلع على الشكل التالي :

هله يا نور عيني يا هلييه يا غالي من تمر- سلم هلييه

أخذني وطير بيته فوق لفوق
وذبتني بمرتج الفزلان والنوق
أسافا يا خدك غيري يفر نوق
يلفك بالعضن فصبا هلييه

ي - أغنيات شائعة :

من الصعب حصر جميع الألوان الشعرية الفغانية على أننا نذكر منها بعض الأغانى المصاحبة للديكة مثل : السية وهلايا ، وكسل أهلا بالغالى ، وربت على الخرهوبة ، يا مياسة ، عاليادي ، على عميم على عمام ، الدلمونا ، ومنها غناء زيارة الأولياء في أوائل الربيع في دير الزور حيث تقصدهم النساء للتبرك والابلال من المرض ونيل المنى وفك عقدة العجل والخطوبة :

يا ولى جيتك زائرة من كتر ماني بايسرة

ومنها أيضاً أغانى تحية الربيع وتغنيها الفتيات ، ومنها أغانى الرحى ، وأغنية أبو الورد المشهورة ، حيث تغنى الفتيات ومن حولها صاحباتها يرددن ويصفقن :

أبو الورد يا أبو الورد غزلان عالمارد ترد

ومع انتشار التعلم في الكتاتيب والمدارس أدركت الأم قيمة العلم فهي تعبر عن ذلك بالغناء وتستقبل ابنها فرحة بالدواة التي يحملها والحبر الذي يلطخ ثيابه :

يا مرحبا يا تابه والجاي من كتشابه

والدواية باييده والحبر مالي تيبابه (١)

أما أغنية على عميم الواسمة الانتشار ، والتي تمتاز بالحنف والرشاقة فانها تعتبر من الأغانى الشعبية المرافقة للديكة في حلب ، ومن أغانى القراي في لبنان ، ومن أغانى المثلوع في فلسطين ، وأصل قصتها تتحدث عن حالة اجتماعية تمثل في تفكك الأسرة بعد انفصال الأبوين واضطرار الأبناء اللجوء الى العم للمعيش لديه ، ويصبح العم أبا ثانياً بمد فقد الأبوين وتمرض الأبناء للشقاء :

على عميم على عمام رهرق يا طير العمام

على عميم يا عمي ويا اختي لا تنهمي

وأبوي دثر اتي واخويا سافر عالشام

وعلى عميم دلوني وعلى عمي ودوني

ما عاد نمع بعيوني وما عدت اعرف انام

ان الكثير من الأغنيات الشعبية الشائعة في مناطق عديدة يصعب الجزم بمنطقة نشوتها الأولى ، ولا يمكن الاعتماد دائماً على كلمات الأغنية أو لحنها أو لهجتها لأنها عند انتقالها تخضع للمؤثرات البيئية الجديدة ، وتعرض باستمرار للحذف والإضافة في مقاطعها .

شعر البادية الغنائي :

البادية هي الموطن الأقدم للشعر وشعرها امتداد في شكله وأغراضه للشعر القديم بالرغم مما أصاب لهجته من انحراف عن الفصحى ، والبحث فيه لا يفيد في معرفته فحسب وإنما في تصور ممر في لحالة الشعر القديم في ههوه الأولى وضمن مناقشات فكرية واجتماعية وبيئية مماثلة ، فقد بقيت البادية على مر العهود جزيرة شبه منزلة عن التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي تعرضت لها الحواضر ووطورت لغتها التعبيرية الشعرية والغنائية .

ما زال الشعر البدوي ، كما نشأة الشعر الأولى ، شعراً مفنى ، يلقي منقوماً بمصاحبة الرباب على الإهلب ، أو ترالفة آلات أخرى كالطبل ، أو التصفيق بالأيدي ، ومثلما تختلف أنماه باختلاف نوع الشعر فإنه تتمتع أبعده الشعرية وأوزانه حتى تتجاوز الغليليات إلى أوزان يصعب حصرها ، وتبقى النغمة هي الضابط الحقيقي للوزن .

ومثلما كانت لهجة قريش قديماً هي اللغة الفنية الموحدة للشعر ينظم بها الشعراء على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ، فإن للبدو اليوم لغة أدبية واحدة هي لغة الشعر ينظمون بها أشعارهم على اختلاف لهجاتهم وقبائلهم ، وقد عزت هذه اللغة الفنية شعراء الأرياف والمدن الذين ينظمون المطاول والموال والعتابا ، وبالرغم من أن البدو فقدوا الأعراب ومالوا إلى الكسر والتنوين وتخفيف الهمزة أو الفائها والتوسع في إبدال الأحرف فإن آثار الفصحى ما زالت في قصائدهم تظهر بين العين والأخرى في أبيات فصيحة تماماً .

إننا لا نشك أن الغليل لم يفتقد جميع الأوزان الشعرية ، وقد حفظ لنا عصر التدوين بعض القصائد الخارجة عن الغليليات واعتبرها مضطربة الوزن وأهمل القسم الأكبر وتركه للضياع ، نتساءل ألا يمكن للشعر البدوي اليوم أن يقدم لنا فكرة ، ليس عن تلك الأوزان الضائعة فحسب ، وإنما عن طريقة هنائها ، والشعر في لغة العرب هو الغناء . ويرى شفيق الكماني أن الوزن في شعر البدو حاضرمقاطع صوتية كما هي الحال في أوزان الشعر العربي ، ولهذا جاء على أوزان يصعب حصرها كما في الزجل (٢) .

وما يزال هذا الشعر البدوي الغنائي في حاجة إلى دراسات ميدانية واسعة لمعرفة أنواعه وطرق أدائه ، وسنشير فيما يلي إلى بعض أنواعه المشهورة .

أ - القصيدة :

ويدهى في الجزيرة العربية باسم الديواني لأنه ينشد في ديوان الأمير ، والمسحوب لأنه تمد حروفه عند الأداء ، والشاعر يدهى بالقاصود . أما أغراضه فهي أغراض الشعر التقليدي من مديح وهجاء ورتاء وفخر وحناسة وهزل ونقائض ومراسلات . بعضه ينظم على الأوزان الغليلية وبعضه ينظم على أوزان أخرى لم يتم حصرها ، يقول عبدالله خميس

في كتابه الأدب الشعبي في جزيرة العرب عن أحد دواوين الشعر : « عمدت الى مجموعة واحدة لأحد شعراء البدو وهو ابن جميثين وهو من الكثيرين ممن يتلاعبون بأوزان هذا الشعر ويتفننون في ضروبه فوصلت الى ما يقارب العشرين وزناً ولما أقارب نهاية الديوان ، وعادة ما يفتنى القصيد في مجالس الأمراء بمصاحبة الرباب ، وللقصيد شعراؤه المشهورون بين القبائل ، يقول مشعان بن هزالم من قصيدة له في الفخر :

حنثا شباة العرب وان شبتت النار وتفازعت بين الجموع المشاهير
 وحنثا أهل الجمع السمي الى سار مركزاضنا يشبع به السبع والطير
 ورفاقته واللي حدانا لهم جار وحنثا عليهم نعمي الجار ونجير

٢ - السامري :

ينظم على الرمل ، وبه يسمر الساهرون ويفنون أشعار الجوى والعنين ، وتقتصر موضوعاته على الوجدانيات ، ويؤدى مع الرباب ، ويردد السمار مع الشاعر المنفي بمض الأبيات ، وفي نجد يؤدى السامري فريقان يجثوان على الركب ويتبادلان الغناء شطراً فشطراً أو بيتاً بيتاً . ومنه قول محسن الهزاني :

اشتكي لك من هوى نجل العيون يوسفيات المها حمر الشفاء
 سالبات للضلا تلح الرقاب خردات بالبيوت مغفرات
 غبيريات الروايح بالكمال في جمال قايمات قاصدات

وبدو النقب في فلسطين يطلقون لفظة السامر على اللب ليلاً ، وقد اعتادوا أن يقيموا السامر بعد الانتهاء من الدحية أخراً لليل ، والرجال المستنون هم عماد اللعب ، وهو كالدحية إلا أنه أسهل في الحركات وأهدأ في اللب ، وغالباً ما ترقص أمام السامر امرأة مسنة ، وحركات الرقص فيه تحتاج الى خبرة ودقة واتقان . والمنشد في السامر يسمى الرزاع ، وهو يلحن المجموعة القريبة منه شطراً بصوت مهموس فينشدونه بلحن خاص على ايقاع التصفيق البطيء ، ثم ينتقل الى المجموعة الثانية فيلحنهم فينشدون بنفس اللحن ، وهكذا يتناوبون الانشاد .

والرزع هو الوسيلة التي يعبر بها سكان النقب بالشعر المرتجل عما يجيش في صدورهم من أفكار ، ويشترك فيه الرجال والنساء والفتيات ، وقد أوشك هذا الأسلوب أن يختفي من الحياة العادية ، وبقي الرزع مقصوراً على السامر :

بلاد جاها المطر وبلاد ما جاها
 وبلاد جاها كعيل العين وأرواها
 العنق عنق الغزال ال مرتمه في الروض
 حبك سقط في ضميري خاض قلبي حوض

يا زين يا حلو وبلادك نويناها
صمنا عن الزاد والقربة طويناها
سلم بعينك وخلي يدك بعناها
ياللي سلامك يرد الروح مجراها

٣ - العداة :

وهو أقدم أنواع الشعر ، ينظم على الرجز تاماً ومجزؤاً، أغلبه في الفخر والحماة لأنه ملازم للمبارك ، وينشد على ظهور الخيل ، وهو مقطوعات متتامة يحدو بها الفارس ، كل مقطوعة مؤلفة من بيتين ، ومن المؤلف أن يذكر الشاعر محبوبته وهو يحدو على ظهر الحصان في خضم المعركة ، أو في الطريق إليها ، أو عائداً منها مفتخراً بالنصر على أعدائه ويحسن بثائه في الحرب .

والعداء منتشر في جميع البيادي والصعاري وفي نقب فلسطين ، ونظراً لسهولة النظم فيه فإنه من أهم الأشكال الشعرية وأكثرها انتشاراً ، يعبر به البدوي عن هواطفه وانفعالاته . وفي فلسطين يسمى العداية وتكون بشكل ديالوغ يتقابل فيه مغنيان أمام صفين متقابلين من الدببكة الذين يرتصون ويصفقون بالأيدي ويردون اللازمة ، يا حلالي يا مالي ، أو بشكل آخر حيث يجلس الرجال في لسعة الدار على مقاعد متقابلة .

يا رب من هنالك نصر
أقهر جيوش اللي كفر
حق يجينا المنتظير
من عنده بالنصر المبين
يا حلالي يا مالي

وهذا شكل آخر من العداة منتشر في البادية :

بنت الشرايبي صيغت
شفت جديد ثيابها
والنقة الصارت عليه
تسوى الجزيرة وما بها

وفي العراق لون من العداة ينظم على بحر البسيط رباعيات ، الأشطر الثلاثة الأولى متعددة القافية والرابع بقافية أخرى .

٤ - الهجيني :

وقد سمي بذلك لأنه ينشد على ظهور الهجن ، وعلى صوت الفناء تجتمع الأبل المتفرقة وتتلاصق أمناقها وتسرع في سيرها ، أوزانه متعددة تتجاوز الخليليات وتخفض لابتكارات الشاعر ، وأغراضه تتناول موضوعات الحب والفخر ووصف المارك :

القلب ورد على دبله
ما هي خفيفة ولا خيلة
ما رب البلاء ان كان تنحاني
يا ليتها عقب عماني
وانا ماجيته ولا جاني
لون الزبيدي بريضاني
ونهيدها يوم تقرب له

٥ - النبطي :

ويدهى أيضاً بالركباني ، وينظم على البحر ممتدة أهمها البسيط وتقنى صدوره
بقافية واعجازه بقافية أخرى ولا تختلف أغراضه عن أغراض الشعر القديم ، وبه
يتخاطب الأعرام ، وقد حظي بالاهتمام الكبير فأوردت له الصفحات في صحف ودوريات الخليج .
يقول محمد بن راشد المكتوم من قصيدة له :

دموع العين سفاحة كما جاري من الوديان
من العينين منشورة عن الدمع يطفئها
شكاً لك من هو اسبابه تنأيت دونه البيان
فلا الشكوى على الشاجي حكما نفس فاضياها
وتمارس النساء نظم هذا الشعر ، وبه
يبشّن الواعج الحب والشجن كقول فتاة الشارقة :

أنوح واهل عبراتي
يا مالك احاسي وذاتي
وجفني محارب لذة النوم
أرجوك لا طول ولا تشوم
روحي وروحك يا غناتي
يتزاورن في طيف العلوم
وان كان يرضيكم مماتي
روحي فداكم وانتم سلوم

٦ - الحوارب :

وهو لون من ألوان الحداث لكنه ينظم على قاعدة النبطي ويختص بموضوع الفسزو
والحروب ، وبانشاده يزداد المقاتل اقداً وشجاعة ، فهو بمثابة طبول الحرب يشد
هزائم الرجال :

حنثا عمامك لو رحلته
بحرابنا ياما طعنته
يا جرد من نزل عليه
وكم فارس صلنا عليه
برواحننا نفسني وطنه
سعيد يل نرضي عليه

٧ - الدحة :

وهي زقصة ترافقها أغان خاصة مؤلفة من رباعيات ، الاشطر الثلاثة الأولى منها
متحدة القافية ، والاشطر الرابع بقافية أخرى عليها تبني باقي القوافي ، اشتهرت بها قبيلتنا
شمر وهنزة ، ويشترك في الرقص البنسات والشباب في حلقة تتوسطها امرأة حسناء حاضرة

بيدها سيف تلوح به وتغني ، وبعد كل بيت تردد : دح دح ، ويردد الجميع قولها ، وبها سميت الدحة ، وللمها لفة مأخوذة من دح البيت في الثرى : وسُمِّه ، كأن حلقة الرقص بمثابة البيت يوسمونه ، أو أنها من الدحوح : وهي المرأة العظيمة ، وهذا يؤكد توسط المرأة الحسنة العظيمة حلبة الرقص بسيفها المشرع ، أما دح دح فهي لفة كلمة تقال للمقر إذا تكلم : بمعنى اسكت فقد أقررت ، والدح في لفة الأطفال كل شيء جميل يفرح الطفل باللعب به أو امتلاكه .

ومن لطيف عاداتهم أن البنات لا تنهض إلى الرقص إلا إذا أعطاهن الشاب ثمنها ، وثمنها هو بضعة أبيات غزلية مرتجلة من الشعر ، كهذه الأبيات :

يا أم الثماني العذاب
خمتي حياة الشباب
قبل غيث التراب
يجبر عليكى وهلى
يا أم الثماني الرهاى
لا بد لك من قبر وائ
عنك الضعائى مجائى
عنك الضعائى مجائى
بس أنت بارض الخلى(٣)

والدحة عند بدو فلسطين في النقب يطلق عليها: الدحية والسنهجة والسحجة، وفيها يرددون لفظة دحّي بويّ ، وهي عندهم فرجة بمثابة المسرح في المدينة، ويحق لكل فرد أن يكون متفرجاً أو لاعباً ، وتقام في مناسبات عديدة كالختان والأعراس والأعياد وعودة الغائب والسجين والحاج .

يتوافد الناس بعيد الغروب على بيت المفرح ، يتبهم الأطفال ، تنطلق الزهاريذ ، يصطف الأطفال ويصفقون وترقص أمامهم الفتيات الصغيرات ، ثم يتقاطر الرجال فيترك الأطفال ساحة اللعب لهم ، فيشكلون هلالاً مقابل النساء الجالسات ويرددون لفظة دحّي بويّ ترديداً مستمراً مع التصفيق الحار ويهزون رؤوسهم وأجسامهم بانتظام ، ويتحركون إلى الأمام والوراء بخلط متناسقة وهم في لباسهم التقليدي ، فتنبري لهم امرأة ترتدي ثوباً طويلاً أسود ، مقنعة لا يظهر من وجهها غير عينيها ، بيدها سيف أو عصا ، ترقص على الايقاع ، والرجال يتقافزون أمامها وهم يطلقون المرححات الحماسية وهي تحاكي تحركاتهم بحذر ، وتهدد بالسيف من يحاول أن يمسه ، واللاعبون يتبارون في الاقتراب منها واحافتها ، وعندما يبسل التعب أوجه اللاعبين يحضر الشاعر ، ويسمونه

البديع ، وربما يكون واقفاً معهم في البدء ، وينشد على الايقاع ، وعادة ما يبدأ بمدح المفرح مشيداً بكرمه وسعة بيته :

يا بيت المفرح والراية تذذع فوقيمة يا بيت المفرح مثل السرايا المبنية

- راعية الحفل : أنا داخل ع كبيرة البوشي
- الراقصة : تجيب حويشي الدححية
- راعية الحفل : وان ما جابت العاشي
- الراقصة : غلطة لساني رديئة
- راعية الحفل : أنا بديع وأبوي بديع
- الراقصة : وأمي رقشاصة نشمية
- راعية الحفل : والحق ع باقي الطاقية

والرقص أمام الدححية ليس عملاً مبخلاً ، وقد ترقص ابنة شيخ القبيلة أو زوجته ، واللمب يستمر حتى مطلع الصبح . ومع أن الدححية من أمتع العروض بالنسبة لسكان البادية إلا أنها قد تنتهي بمأساة نتيجة تعرض أحدهم لفتاة أو بسبب مهاجاة بين شاعرين ، ولكل منهما قومه وأشباعه ، والبدو عموماً يخشون الملاعب ويحسبون لها ألف حساب ويقولون : انها تلم الحاي والمنتعل ، ويقولون في التمييز بين السامر والدححية : السامر للناس العقائل ، والدححية اللفلاتية ، أي للناس الذين لا يلتزمون بالتقاليد والعادات ولا ينجلون من السفاهة .

٨ - الشروقي :

نوع من القصيد ينظم على قاعدة النبطي تقفى صدوره وأعجازه بقافيتين مختلفتين ، لعنسه حزين فيه عمق وتأثير ، يطلب على موضوعه ارتحال الأحبة ، قيل في سبب تسميته أن فقى أحب فتاة ، ثم ارتحلت مع أهلها شرقاً فراح يبكيها بهذا اللون من الشعر والفناء ، وثلاثة اشروقت العين بالدمع : غرقت واحمرت ، والشروقي : صاحب العينين الدامعتين . وقد شاع غناؤه في ضواحي المدن والأرياف حيث يحل البدو المقيمون ونصف الرحل ومن الموالين ينظمه الشاعر الشعبي اللبناني أنطوان عكاري صاحب كتاب الأشعار الشعبية اللبنانية ومن جميل قوله :

يللي خندودا ورد وعيونها حلوين
وقصة زمان الهوى بقيت شي خمس سنين
شفتا بفجر الوعد ع جناح عصفورة
معها بحروف القلق عالسر محفورة
بيكاس صدفه وسحر وخندود معصورة

تجمع حدود الدنيا ببيتة الشربين تا نضيع لمعة أمل بعيون مسعورة
والتي يغبني الغبر عن ضجة الجايين سجاد زهر حكى بأسرار مستورة
يقلد جدائل ذهب عالصدر مرخين ويترك حبال العطر عالارض مشرورة

ومن الواضح أن انتقال الشروقي الى أرياف المدن وضواحيها ، شأن الألوان الشمرية الشعبية الفنائية الأخرى ، قد طبعه بطابع البيئة الجديدة .

٩ - العماشي :

يقال حَمَّشه : أخضبه وهيجه ، والعماشي من الشعر ما يثير الغضب والهياج ، أي الصراع ، انه لون من الشعر الشعبي الفنائي يأخذ طابع الحوار الساخن بين لقي وفتاة ، يتألف من ثلاثيات ، الشطر الأول والثاني متعدا القافية ، وقافية الثالث تبنى عليها الحوارية ويلتزم بها المتساجلان ، تغلب على موضوعاته المشق والصدود والوصف الحسي للمرأة ، ويعتبر العماشي « كالدحة » من ظواهر المسرح البدوي الاحتفالي والاستعراضى الفنائي البسيط والملائم للبيئة الصحراوية وأحوال التنقل والارتحال ، يشبه الكوميديا المرتجلة ، ويتطلب قدرة فائقة في الأداء وارتجال الشعر ، ولي تفرية بني هلال حواريات مسائلة مما يدل على قدم هذا اللون الفنائي الذي يرضى حب البدوي الى التشخيص على منصة البادية :

الفتاة : يا راهي الذود	أقهر ذودك	اشوف اليوم تفاحيني
الفتى : شفت نهودك	تحت عضودك	هذا قلبى قطعيني
الفتاة : أنا حبارة	بارض قفارة	حس الرعيان مجزيني
الفتى : أنا حرك	مذكور لك	مدعوج العين بلا نيلني
الفتاة : أنا حجة	تحت صفيّة	يقتلك السم ما تجيني
الفتى : أنا القرائي	ابن القرائي	أقهر سمك ما يسيني(١)

١٠ - القص الشعري الشعبي الفنائي :

الحياة في البادية وما فيها من قصص الحب والغزو والترحال والمغامرات الفردية مصدر هني للقصص الشعري المنفى ، وفي كتب السير الشعبية ، وبخاصة سيرة بني هلال نموذجات كثيرة ، وكان لمشاركة القبائل في الحركات الوطنية ضد الاستعمار الدور في نشوء قصص جديدة انتشرت أشعارها وغناها المننون بمرافقة الرهبان في المجالس .

لم ترق آية من هذه القصائد الى مستوى الملحمة ، لكنها تفرقت في شكلها ومضامينها وسرورها على القصص الشعرية المكتوبة بالفصحى ، وكانت المنجزة عن جوانب من الحياة العربية في أهرامها وأتراحها ، وعن نفسية العربي البدوي التي تبدو كضفيرة من الحب والحرب والافتتان بالطبيعة .

تسيطر في هذه القصص أجواء الحب والبطولة والمأساة ، وفي قصص المراثي يستفيض الشاعر الغني في وصف محبوبته مقدماً المبرر العاطفي لشدة أحزانه ، وقد يخلع جزءاً من أحزانه على فرسه ، فيصفه بأنه عاف الطعام وشرد في البراري حزناً على الفقيـد . .

من أكثر هذه القصص شهرة وانتشاراً قصة حيزية في الجزائر(*) ، وهي تحكي قصة حب بين شاب وفتاة اسمها حيزية ، وبعد مصاعب مرّ بها تزوجا ، ثم ذهبوا للممل في القطاف ، وفي طريق العودة مرضت حيزية وتوفيت ، وراح زوجها يبكيها بأعذب البكاء ، وقد نظم الشاعر الشعبي محمد بن قيطون قصيدة شعبية في هذه القصة عام ١٨٧٨ م تقع في ١٢٨ بيتاً يفتننا المثنون الى اليوم ، وفيها يقول :

عزوني يا صلاح في رايـس البنات سكنت تحت اللعود ناري مقديتا
ياخي أنا ضرير بيتاً ما بيا قلبي سافر مع الضامر حيزيتا

ويصف محبوبته قائلاً :

خـدك ورد الصباح وقرنفل وفتاح الدم عليه ساح مثل الضوايتا
الفم مثل هاج والمضحك لفتاح ريقك سي النعاج عسل الشهايتا

ثم يصف كيف واروها الثرى ، ويستحلف حفار القبور ألا يطيح بالصخور والتراب على قبر محبوبته :

أحفار القبور سايسن زيم القور لا تطيح شي الصخور على حيزيتا
قسّمك بالكتاب وحروف الوهّاب لا تطيح التراب فوق أم مرايا

ويقول إن ما يهيج حزنه على حيزية حصانه الأزرق الذي اشتدت به الأحزان على حيزية فانصرف عنه هاماً في التلول ثم مات بعد ثلاثين يوماً :

هلكني يا صلاح الأزرق كي يتلاح بعد أختي زاد وراح وانصرف عليا
توفي ذا الجواد ولّسى في الوهاد بعد أختي ما زاد يحييا في الدنيا

والأزرق أيضاً حصان البطل الشعبي محمد اللحّم من بادية حمص ، أحب فتاة اسمها نوف ولم يرض أبوها أن يزوجه إياها فاختطفها ليلة عرسها ، .

يقول المثل الشعبي : البدوي يباخذ تاره ولو بعد أربعين سنة ، وقد شب ابن محمد اللحّم وأعطته أمه صلاح أبيه وقصة مأساته فتأّر من جسده المغائن .

* - رغم أن هذه القصة غير معروفة في البادية الشامية فقد أشرنا ذكرها لما فيها من تشابه مع قصة نمر ووضعها ، وإدلالاً على وحدة المعمة الشعرية الشعبية الغنائية في البوادي العربية ، وكان للهلايين الذين عبروا الى شمال افريقيا دور في ارمائها .

ومن قصص البادية قصة نمر بن عدوان ومراثيه في زوجته وضعا ، وهي معروفة في بادية الأردن ، وتشبه في مأساويتها قصة حيزية ، فهو تارة يصفها محمولة الى قبرها على جمل فيوصي زارع البستان بها :

يا زارع البستان هنا منيتي دونك على مجرى عيونني ازرع
ازرع لنا مرا ودفلى وحفظل حتى دوم اذوقه واشرب واجرع

وتارة يختلط لميتهم أنها حيئة ، ويسأل عنها فيترفقون به ويقولون انها في زيارة الى أهلها ، وما يهيج في أحزانه أنها تركت له طفلا اسمه عقاب :

البارحة يا عقاب حين القمر غاب وحين الثريا كوكبت عالمفيب
جيت الأهل لن الأهل فيساب بس الفرس بالبيت ويثه العبيد
سأيلتهم عن صاحبي وين غاب قالوا استمع يا نمر ما هو بعبيد
زأير هله يا عقاب ساهة غياب هالعين يلفي والمجبة تزيد

ومن هذه القصص قصة الفتاة والمبد الذي خان أسياده وراودها عن نفسها فتمنعت وضربته فهرب والتجأ الى أمير إحدى القبائل وزين له الاغارة على قبيلة أسياده ، وفي المعركة قتل أبناء عمها الثمانية وسببت الفتاة ، وعندما علمت أنها ستزف الى المبد غنت الأمير قصيدة شرحت فيها خيانة المبد فأمر الأمير بإعدامه :

ما لوم عيني لو بكت لسي بطبيعة وما لوم الاخرى لو حدر دمها دم
على عيسال عمي هالوجوه المليحة يوم يقصدوا بالديوان هرجهم تم
يا عبيد يا زربول سويت قبيحة واليوم يا عبد الغنا صاييك هم
وتريد من الزيتات بيضا ومليحة تلبس مقاويس الذهب وأنت تشتم

عندما تنتقل هذه القصائد القصصية المغناة الى المدينة فانها تفقد العنصر لتغير طبيعة الفرجة والاستماع ، ولا يبقى من الأصل الا اشارات غامضة تبني عليها أغنية شعبية جديدة لها مضامينها وصورها ولغتها الفولكلورية الخاصة ، مثال ذلك قصة الفتي مشعل العاشق الذي هرب من دوريات التجنيد أيام حرب السفربرلك وتوارى عن الأنظار ، ثم ما لبث أن ألقى عليه القبض ، وحاول أن يرشوا العسكري التركي فخر المجيدي وحسر حرته :

ع الأوف مشعل أوف مشعلاني
ما ني تبلتسه هو اللي تبلاني

* * *

أنا شفت القانون جاي من بعيد
 وحييت أهرب ما طلع في ايدي
 قال لي الوثيقة ناولته مجيدي
 لطش المجيدي وقال لي انت فراوي (٦)

هذه الأغنية يفتيها الحلبيون ، ولم يبق من كلماتها القديمة غير كلمتين : الأوف ومشمعل وأصاب التغيير كلمات اللازمة ، ونظم المضمون مقاطع جديدة لها ترضي أذواق الجمهور الجديد وهايت القصة الأصلية تماما :

ع الأوف مشمعل ديني مشعلاني
 أهلا وسهلا بحبابي وخلاني

وثمة رواية - لعلها الأصل - متأثرة بقصة النبي يوسف الصديق تجعل من مشمعل فتي 'حميلا' ترآوده الفتيات عن نفسه وتدعين أنه هو الذي راودهن :

ع الأوف مشمعل أوف مشعلاني
 ماني محاكيتيه هو اللي تبلاني
 مشمعل يا روجي يا مداوي لي جروحي
 لأخذك وروحي لبلاد اليماني

ومن قصص البادية الشهيرة قصة وضعا وحمدا ، ذلك أن والد وضعا التجأ الى قبيلة أبي الفارات بعد أن هلكت قبيلته ، فأكرم ضيافته ووافق رداً للجميل على أن يزوجه ابنته ، ولكن وضعا رفضت ، ويظهر العاشق حمدا القادم من بعيد وهو سيد في قبيلته ولكنه يرضى أن يعمل خادماً عند أبي الفارات ليكون قريباً من محبوبته ، وذات يوم يدافع عن القبيلة والرجال غائبون ، فتزداد وضعا به إعجاباً ، وعندما يعود أبو الفارات وهو ابن الستين يتزوج من وضعا يتصدى له حمدا القادم مع رجاله ويقتله في مبارزة شديدة ، ويظفر العاشق بحبيبتيه .

ويلدّ لأهل البادية أن يستموا الى المغني وهو يقطع هدوء الليل بالمزف على الرماية وانشاد هذه القصة الشعبية :

وضعا العزينة تنادي ربها يا معين تفرج همومي ومن الكربات اجليها
 حكمك قدر يا معتلي العرش والدين تلهم حمد يبجي لوضعا ينجيها
 ابوها فكثر يزلها لابن الستين وبعدها صببة ولون الورد غاويها

وفي هذه القصة الشعبية من الحوارات المسرحية بين وضعا وحمد وأبيها وأبي الفارات وصوت المجموعة ، ومن امكانيات التشخيص الذي يقوم به الراوي المفني عازف الربابة ، ما يجعلها نموذجاً للمونودراما البدوية :

وضعا :

لازم عهوني لأبو العجات أوفيهما
من تحت مسموم ابتر الشفر ماضيها

وحق من خلق الانسان من طين
بجيتته حمانا وخلص قومنا وبنين

الأب :

غامض كلامك وما فهمنا معانيها

« قال لها أبوها » يا وضعا ايش تعنين

وضعا :

جتنا فوارس غزون الهي وال فيها
وگنا سبایا ، صغار الهي تبكيها

« قالت » يا بوي من يوم رحمت تغزين
ولولا حمد ما يعيرنا سلطان عفرين

الأب :

من قوم أنجاس ما نعرف مواليتها
بعرف حلالك ، أبو الفارات يسميها

« جاوب أبوها » حمد صلوك عفنين
أعطيت قولي وانت غضب ترضين

وضعا :

مكحول الطرفين نسله من أعاليها
لو كان حوله ضيوف كالنجم يقريها

« قالت » نصيبي حمد من نسل جدين
أبوه أمير الشرف للجار يعمنين

أبو الفارات :

وانا الاسود بهجم على مخاييها
كرمال غنجات مرار الصبر حلتها

« انتصب أبو الفارات » وقال لها: ليش تهزين
يللي بلعظك جراح القلب تكوين

وضعا :

من طرف جمدي شعرة ما بتعظيها
وموسى يناجي ربه من الألام ياريها
ما تحيد عنه الذي أوفى زماميها

إذا الجبال تميل والصخر ييلين
ويقوم نوح النبي ويعوم بسفين
ولو قلب وضعا انقلب برصاص مرتين

* * *

ديوان ابن أحمـر

ومصادر شعره

محمد محي الدين ميشو

١ - الديوان :

إن
ارزاء الدهر ومصائبه أتت على جلء تراثنا العربي ، فلم ينته اليـنا
مما قالت العرب الإء اقله • وديوان ابن أحمـر (١) غيـض من فيض ،
ما يزال في ذممة التاريخ ، تضمن به يد الزمان • وقد طلبت ذلك السفر
من ديوان العرب في فهارس كثير من مكتبات الشرق والغرب ، فما
وقفت له على أثر ، ولكننا نجد في كتب اللغة والتراجم والادب اشارات اليه ،
تاخذ بالظهور من أوائل القرن الثالث الى أواخر القرن الثاني عشر الهجري .
وإذا كانت هذه الاشارات لا تسفر عن صنـع ديوان ابن أحمـر ، فإن في أقدم
اشارة ترقى الى العقد الاول على الأقل من القرن الثالث دلالة مهمة على أن ثمة
عالما من العلماء والرواة الأوائل قد عملـه في جملة ما عمل من دواوين الشعر
العربي في مطلع ذلك القرن ، ومن العلماء الذين عملوا الأشعار : أبو عمرو
الشيباني (٢٠٦ هـ) والأصمعي (٢١٧ هـ) وابن الأعرابي (٢٣١ هـ)
وابن السكيت (٢٤٤ هـ) وسواهم (٢) •

ويبدو أن ديوان ابن أحمـر كان معروفاً لدى عدد من المصنفين خلال قرون متعاقبة ،
وكان المرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) ، صاحب شرح القاموس ، آخر من اطلع عليه ، ثم لتقد
بمسد ذلك ، فلم نقف له على نسخة مخطوطة منه ، نأمل أن تجود بها يد الزمان ، لتكون
الفيصل في دراسة ابن أحمـر •

وفي الاشارات التي وجدنا يأخذ مصطلحاً (ديوان) و (شعر) معنى واحداً ، لأن المصادر
القديمة في أغلب الأحيان لم تكن لتـميز بينهما تمييزاً دقيقاً • وأقدم هذه الاشارات ما رواه
أبو أحمد العسكري (٣٨٢ هـ) بسنده ، فقال في مجلس : ه أخبرني محمد بن يحيى ، أخبرنا

أبو ذكوان ، حدثنا موسى بن سميد بن سلم قال : كان ابن الأعرابي يؤدبنا ، فدخل الأصمعي ، ونحن نقرأ شعر ابن أحرر :

اغْتَدُوا وَاعْتَدَ الْعِيءُ الزَّيْلَا لَوْجُهُ لَا يَرِيدُ بِهِ بَيْدَالَا

إلى أن بلغنا إلى قوله :

أرى ذا شيبة حمّال ثقل وأبيض مثل صدر السيف نالا

فقال الأصمعي : « بالا » ، فصاح ابن الأعرابي : « نالا ، فالأ » بالنون من النوال ، فقال الأصمعي لنا : إن الشاعر قد فرغ من هذا ، فقال : فيهم شيخ حمّال ثقل ، وهو الذي ينيل ، ويعطي ، وفيهم شاب مثل صدر السيف بالا ، أي : حالاً ، وهو كالسيف في حاله وبأسه (٣) ، وأضاف العسكري في المجلس ذاته : « فحدثني يمرت بن المزروع عن أبي أمامة الباهلي ، وحضر المجلس ، أن ابن الأعرابي افتضح بهذا ، ثم احتال ، فأحضر نسخة ليها شعر عمرو بن أحرر ، وقد غير البيت الأول منها : فجعله :

اغْتَدُوا وَاعْتَدَ الْعِيءُ الزَّيْلَا وَشَوْقًا لَا يَبَالِي الْعَيْنُ بِنَالَا

ثم قال : معنى الأصمعي صحيح ، ولكن كيف يردد ابن أحرر قافيتين في قصيدة ، فزادت فضيحتهم الضعف المصراع الذي غيروه وإحالة مفعول « (٤) » . وفي الخبر الأول إشارة واضحة إلى أن ثمة كتاباً ، يقرأ في ذلك المجلس ، وأما الخبر الثاني ، فهو يدل دلالة صريحة على نسخة لابن الأعرابي من ديوان ابن أحرر .

ويبدو أن أبا أحمد العسكري نفسه قد قرأ شعر ابن أحرر على أبي بكر بن دريد (٣٢١ هـ) ، ويدل على ذلك قوله : « قرأت عليه في شعر ابن أحرر :

حتى إذا ذرّ قرن الشمس صبغها أضري ابن قرآن بات الوحش والعزبا» (٥)

وإذا كان بروكلمان يذهب إلى أن جمهرة أشعار العرب « جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة » ، ثم « تم تأليفها في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة » (٦) ، فإننا نرى أن جامعا أبا زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي الذي ليس له أدنى ذكر في جميع كتب الطبقات والرجال ، قد يكون اطلع في تلك الحقبة من الزمن على ديوان ابن أحرر ، وأخذ منه قصيدة رائية ، جعلها في (مشروبات العرب) من جمهرته التي اختارها « غرراً هي العيون من أشعارهم وزمام ديوانهم » (٧) .

وفي القرن الرابع الهجري نجد ابن جنّي (٣٩٢ هـ) ينظر في ديوان ابن أحرر ، فهو يروي ما أنشده أبو زيد :

كانها بنقا العزافي طاوية لما انطوى بطنها واخرومط السفر

ماريسة لؤلؤان اللون أودها طلّ وبتنس عنها فرقدت خصر

ثم يقول : « ولم يستد أبو زيد هذين البيتين الى ابن أحمـر ، ولا هما أيضا في ديوانه » (٨) .

وفي القرن الخامس الهجري ينسب أبو عبيد البكري الأندلسي (٤٨٧ هـ) من رواية بيت في شعره الذي حمله أبو علي القالي (٣٥٦) الى الأندلس ، ويقول : « قال ابن أحمـر :

تتبع أوضاحا بسرعة يتذبذب وترعى هشيمًا من حليلة باليا

مكنا ثبتت روايته عن أبي علي في شعر ابن أحمـر » (٩) .

وفي أواخر القرن ذاته كان شعره بين يدي الخطيب التبريزي (٥٠٢ هـ) حين هذب كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وروى ما أنشده لابن أحمـر :

« لبّ بارض لا تخطأها الحمـر » ثم قال : « وفي شعره : لا تخطأها الفتـم » (١٠) .

وفي القرن السادس الهجري نجد عدة إشارات الى الديوان لدى البطلانيوسي (٥٢١ هـ) وابن الشجري (٥٤٢ هـ) وابن خنير (٥٧٥ هـ) وابن بري (٥٩٢ هـ) . فالبطلانيوسي في الاقتضاب روى ما أنشده ابن قتيبة في أدب الكاتب :

تنسائل بابن أحمـر من راه أعارت عينه أم لم تنسارا

ثم قال : « البيت لمرو بن أحمـر ، ووقع في شعر ابن أحمـر :

وربّت سائيل عنتي حفي

وهو الصحيح ، لأنه ليس قبل هذا البيت المذكور ، يعود اليه الضمير من قوله : تنسائل ، ولعل الذي ذكر ابن قتيبة رواية ثانية مغالفة للرواية التي وقعت اليها من هذا الشعر » (١١) .

وابن الشجري في الأمالي روى هذا البيت :

على حيين في عامين شتًا فقتل غناؤنا بهما وطالا

ثم قال : « ولا يجوز أن تكتب (شتًا) ما هنا بالياء كالتي في قوله تعالى : « وقتلوا بهم شتًى » (١٢) ، لأن ألف شتًا في البيت ضمير ، وشق في الآية اسم على فعلى جمع شتيت كقتيل وقتلى . وانما ذكرت هذا لأنني وجدته في نسخة بالياء » (١٣) .

وابن خير الأشبيلي في الفهرست يطالعنا بنص جسد ثمين ، يبين أن ديوان ابن أحمـر وصل اليه بسندين مختلفين ، مصدرهما معا أبو علي القالي (٣٥٦ هـ) الذي حمل ديوان ابن أحمـر الى الأندلس فيما حمله من دواوين العرب (١٤) ، فيقول : « شعر عمرو بن أحمـر الباهلي ، حدثني به الوزير أبو عبدالله جعفر بن محمد بن مكى رحمه الله ، عن الوزير أبي مروان عبدالملك بن سراج عن أبي سهل الحراني ، وحدثني به أيضا الشيخ أبو بكر محمد بن عبدالغني بن فندلة ، رحمه الله ، عن الأستاذ أبي العجاج يوسف بن سليمان الأعمى عن أبي

سهل يونس بن أحمد الحراني المذكور عن أبي عمر بن أبي الجباب عن أبي علي البغدادي ،
قال : قرأته على أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم الأصمعي ، رحمه الله ، وحدثني به أيضاً
الشيخ المسن أبو بكر محمد بن أحمد ، رضي الله عنه ، مناولة منه لي في أصل أبي الوليد
ملك بن عبد الله العتبي الذي يخط يده قال : حدثني به أبو الوليد العتبي المذكور ، رحمه
الله ، عن أبي مروان عبد الملك بن سراج ، رحمه الله ، بسنده المتقدم « (١٥) » .

وأما ابن بري ، فيبدو أنه أفاد من ديوان ابن أحرر في حواشيه على صحاح الجوهري ،
وهي أحد مصادر لسان العرب وتاج العروس ، وروى هذا الشطر :

أخيه ذلولاً أو عروضا أروضها

ثم قال : « وهكذا روايته في شعره » (١٦) .

وروى هذا الرجز :

أبي الذي أختب رجل ابن الصعق إذ كانت الغيل كعلياء العنق

ثم قال : « وقد وجدته في شعر ابن أحرر الباهلي » (١٧) .

وروى ابن بري أيضاً ما أنشده الجوهري لابن أحرر :

كالقربتين قوادم زعر

ثم قال : « هذا العجز منير ، وصواب انشاد البيت على ما روتته الرواة في شعره :

حلقت بنوعزوان جنوجنوه والراس غير فنازع زعر » (١٨)

وفي القرن السابع الهجري كان الديوان بين يدي الصناني (٦٥٠ هـ) ، وهو يضع تكملة
لصحاح الجوهري ، وقد روى عنه العجز السابق نفسه ، وقال : « لم أجده في ديوان ابن
أحرر ، ووجدت فيه بيتاً ، وليس فيه حجة على القر ، وهو :

حلقت بنوعزوان جنوجنوه والراس غير فنازع زعر » (١٩)

وروى الصناني أيضاً هذا البيت :

تطايح الطل عن أردانها صنعدا كما تطايح عن ماموسة الشرر

ثم قال : « والذي في شعره : عن أعطافها ، وفي الماموسة » (٢٠) .

وفي القرن الثامن الهجري نجد الحافظ سننطاي (٧٦٢ هـ) يأخذ منه أبياتاً في حاشيته
على الروض الأنف للسيهلي ، ويروي ما أنشده أبو القاسم لابن أحرر :

أنشأت أساله عن حال رفقتي فقال : حي فان الركب قد ذهبنا

ثم يقول : « وفيه نظر من حيث أن الذي في ديوان ابن أحرر أن ذلك البيت بمد قوله :
قالوا ميينا . . . (الأبيات) » (٢١) :

وفي القرن الحادي عشر الهجري يذكر صاحب كشف الظنون « ديوان ابن أحمر » (٢٢)،
 إلا أن الحاج خليفة (١٠٦٧هـ) لا يضيف شيئاً إلى عبارته هذه ، فلا نعلم من أمره شيئاً .
 وفي الأخر القرن ذاته يقف عبد القادر البغدادي (١٠٦٢هـ) على عدة نسخ من ديوان ابن أحمر ،
 وهو ينظر في هذا البيت :

بتيهام قفر والمطي كأنها فطا العزن قد كانت فراخا بيوضها

ثم يقول : « والتي في عامة نسخ شعره : أريهم سهيلاً والمطي كأنها / فطا العزن الخ .
 قال شارحه : قوله : أريهم سهيلاً ، يعني أصحابه ، وأن لم يجسر له ذكر للدلالة الحال
 عليه ، أي يريهم مطلعهم » (٢٣) ، ولعل في عبارته : « قال شارحه » إشارة إلى أن ثمة من شرح شعر
 ابن أحمر ، إلا أننا لا نقع على اسمه في أي من المصادر .

وفي القرن الثاني عشر الهجري نجد المرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) يروي ما أنشده
 الجوهري لابن أحمر :

ولا تقولن زهوًا ما يخبرنا لم يترك الشيب لي زهوًا ولا الكبر

ثم يقول : « وفي ديوان ابن أحمر : ولا العور » (٢٤) .

وبذلك يكون صاحب شرح القاموس آخر من اطلع عليه قبيل أن يصبح في ذمة التاريخ ،
 وأما بعد هذه الحقبة من الزمن ، فليس ثمة دليل في أيدينا ، يؤيد بقاءه إلى عهد معين ،
 لأننا لا نعلم متى فقيد هذا الديوان .

وفي العصر الحديث جرت ثلاث محاولات لجمع شعر ابن أحمر ، أولهما ما قام به الدكتور
 حسين عطوان سنة (١٩٧٠م) (٢٥) ، وأطلق على ما جمعه اسم « شعر عمرو بن أحمر
 الباهلي » ، فعاز بذلك قصب السبق . وكان له فضل المتقدم الرائد في إخراج هذا الشعر .
 والدكتور عطوان كابد في سبيله مشقة صعبة المسالك ، لم تغل من العثار ، فهو لا يميز بين
 رواية المتقدمين ورواية المتأخرين ، ليقع على الأقدم والأصح منها ، ولا يحفل بالروايات
 المختلفة في المصادر ، ولا يعني البتة بالمسائل اللغوية في شعر ابن أحمر الذي أتى بأحرف
 لا تعرف في كلام العرب ، ولا يستوفي تخريج الشعر من مصادره ، ففاته بعض ما ورد فيها
 من أبيات ، والتبس عليه أحياناً شعر ابن أحمر بشعر من سمي باسمه أو بشعر غيره من الشعراء ،
 فهو مثلاً يجمع قصيدة لعطاء بن أحمر المدني ومقطعة لبدر بن حمراء الضبي في الصحيح
 من شعر ابن أحمر الباهلي (٢٦) ، ويضع فيه أيضاً أبياتاً مشهورة لامرئ القيس والحطيئة
 وكثير وكعب بن مالك ومزاحم والفرزدق وحميد وغيرهم (٢٧) . وربما حرف بعض
 الأبيات عما جاءت عليه في أصولها ، ومن ذلك ما نقله عن المعاني الكبير ، فأورده على هذا
 النحو :

ثا رات عَرَبًا هجائن وسطها مرجت وجالت في الصَّراخ الأبعد (٢٨)

مع أن رواية ابن قتيبة للبيت في المصدر نفسه (٢٩) تقول :

ثا رات عَرَبًا هجائن وسطها مرحت وجالت في الصَّراخ الأبعد

لصحف الدكتور عطوان « غرباً » بالفين المعجمة بـ «عربياً» بالعين المهملة ، «والصّراح»
بالعام المهملة بـ « الصّراخ » بالحاء المعجمة ، فكان أبعد ما يكون عن معنى البيت الذي أراد
الشاعر ، وشرحه ابن قتيبة ، فقال : « غرباً » : جاوز القدر ، ومنه يقال : استغرب فلان في
الضحك . هجائن : بيض . يقول : لما رأته بي شيباً كثيراً مرحت بشبابها ونشاطها ، وجالت
في الصّراح الأبعد « (٣٠) ، أي : في المواجهة التي جاوزت الحد .

ومثله ما نقله عن عيار الشعر والموشح ، فأورده على هذا النحو :

هادوني سهمه أعشى وغباده سهم ابن أحمر يشكو الراس والكبد (٣١)

مع أن الرواية في مدين المصدرين : « سيف ابن أحمر » (٣٢) .

ومثله ما جاء به على هذا النحو :

كالثعلب الرائح المطور ضبعته شلّ العوامل منه كيف يتبتّع (٣٣)

مع أن أصل البيت في مصادره المديدة : « صيفته شلّ » (٣٤) .

وأما هذا التصحيف والتعريف في هذه النشرة من شعر ابن أحمر كثير ، لا طائل الآن
من تتبعه ، وكان الأولى أن تترك الأبيات على روايتها في الأصول ، حتى يكشف الزمان عن
نسخة مخطوطة من ديوانه ، لتكون الحكم الفصل في مثل ذلك .

وقد استدرك الأستاذ الدكتور رمضان عبدالثواب على هذه النشرة بعض الأبيات التي
عثر عليها لابن أحمر وبعض التصويبات والملاحظات الأخرى في مقالة ، نشرها بعنوان :
« شعر عمرو بن أحمر الباهلي » (٣٥) ، ثم استدرك الأستاذ الدكتور رضوان محمد حسين
النجار على النشرة ذاتها بيتاً وحيداً في مقالة ، نشرها بعنوان « المستدرك على دواوين شعراء
العرب المطبوعة » (٣٦) .

وبعد الدكتور حسين عطوان قام الأستاذ أحمد فاروق بالمحاولة الأخرى لجمع شعر ابن
أحمر ، والأستاذ فاروق أشار إلى ذلك في حاشيته على بيت ، رواه البطلوسي في الاسم
والمسمى (٣٧) دون عزو ، وهو :

فلو كان في ليلى شذاً من خصومة للويت أهناق الغصوم الملاويا

ثم قال : « البيت لابن أحمر في ديوانه الذي صنمته ، وحققته ، وأعدته للطبع ،
وفيه أبيات أكثر من صنمته الدكتور حسين عطوان » (٣٨) ، وأغلب الظن أن هذه المحاولة
الثانية لجمع شعر ابن أحمر لم يكتب لها أن تطبع ، وتنتشر ، فظلت نشرة الدكتور عطوان
الوحيدة التي طبعت ، وذاعت .

وأما المحاولة الثالثة ، فقد كانت من عملنا ، وكانت في قسمين اثنين : في الأول منها
درست حياة ابن أحمر وشعره ، وفي الأخرى أخرجت ديوانه جمعاً وشرحاً وتحقيقاً ما أمكنني
إلى ذلك من سبيل . وقد كان لي في منهج أستاذي الجليل الدكتور عبدالعفيظ السلطي

في صنعه شعر أمية بن أبي الصلت أسوة حسنة، فحاولت في وعشاء الطريق أن اقتضي خطاه ، وأقتدي بهداه . وهذا المنهج ميسر ومهذب ، يجعل ترتيب القصائد في الديوان على حروف المعجم ، ويصنف أبيات كل قصيدة على نحو شعر بجمعها من مصادر متفرقة ، وينبه على ما بينها من انقطاع ، ثم يذكر المصدر الإقدم لكل رواية تثبت في المتن ، ويشير إلى مصادر الروايات المخالفة في الحواشي . وقد ضبطت أبيات الديوان بدقة ، وشرحت الغامض من معانيها وحروفها ، وألحقت به ما روي لابن أحمر وليس له ، ووضعت لقصائده وملحقاته تخريجاً ، يفصل مصادر كل قصيدة ، ويمرر بما يتصل بها أحياناً من اختلاف في روايتها لابن أحمر أو سواء ، ثم صنمت للكتاب كله فهرساً فنية كاملة ، تيسر الفائدة منه . واني لأمل أن ترى هذه المحاولة النور ، فلا تبقى على الإهمال والنسيان معاً .

٢ - رواية شعره :

رأينا في دراستنا ديوان ابن أحمر سنيين متصلين لروايته، انتهى بهما ابن خير الاشبيلي إلى أبي علي القالي (٣٥٦ هـ) الذي قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد (٣٢١ هـ) عن أبي حاتم (٢٥٥ هـ) عن الأصمعي (٢١٧ هـ) (٣٩) . والمصادر لا تتبجح لنا أن نقف على طرق الرواية شعره في أبنائه وأسرته وقبيلته ، أو أن نتعرف بوضوح الطرق التي حملته ، ونقلته من القرن الأول إلى عصر التدوين في القرن الثاني الهجري ، ولكننا نستطيع أن نطمئن إلى أن هذا الشعر قد تهيأت له الطبقة الأولى من الرواة العلماء الذين أخذوا برواية أشعار المتأخرين من الشعراء قبل غيرهم من المتقدمين، فلم يكونوا ليلتسوا الفروع إلا بعد أحكام الأصول ، وكانت هذه سنة العلماء في الرواية والعلم مما ، وحسبنا أن الجاحظ أشار إلى ذلك ، فقال : « أن بعض من كلف برواية الأشعار بدأ برواية أشعار هذيل قبل رواية شعر عباس بن الأحنف، ورواية شعر ابن أحمر قبل رواية شعر أبي نواس » (٤٠) .

ولعل شعر ابن أحمر قد دون قبيل الأصمعي وطبقته من الرواة ، أو لعله دون في حياتهم فقد رأينا في دراستنا ديوانه إشارة إلى أن ثمة « نسخة فيها شعر عمرو بن أحمر »، كانت في مجلس ، حضره الأصمعي وابن الأعرابي (٤١) .

وذكر الأودي كتاباً لباهلة ، وجد فيه قصائد لشاعرين مقلّين من شعرائها ، وهما القتال (٤٢) وبتديل بن المضرب (٤٣) ، وإذا جمعت أشعار هذه القبيلة وأخبارها في كتاب، ضم مثل هذين الشاعرين المغمورين ، فليس من شك في أنه ضم أشعار المشهورين من شعراء باهلة كابن أحمر وغيره . ومثل هذه الكتب أو الدواوين القبلية كانت « تضم بين دفتيها قصائد كاملة ومقطعات قصيرة وأبياتاً متفرقة لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها ، وربما ضمت أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، بل ربما ضمت جميع شعر كل شاعر منهم وديوانه كاملاً، ثم تضيف إلى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه أو ببعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسر بعض أبياتها ، ويبين ما فيها من حوادث تاريخية ، فيجزم كتاب القبيلة بذلك سجلاً لحوادثها ووقائعها وديوانها لمخارها ومناقبها ومرضاً لشعر شعرائها » (٤٤) ، وتشط تصنيف هذه الكتب منذ أواخر

القرن الهجري الثاني على أيدي أبي عبيدة والأصمعي وابن الأعرابي والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني وأبي سعيد السكري ومحمد بن حبيب وغيرهم (١٥) ، إلا أن ثمة من الأخبار ما يدل على أن « كتب القبائل كانت مكتوبة مدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري ، فاعتمدها مصدراً من مصادر تدوينهم نسخهم الخاصة التي نسبت روايتها إليهم » (١٦) .

وإذا كنا في موضع من فصول حياته قد وجدنا أن ابن أحمز كان يحسن الكتابة ، فإن هذا يعني أنه ربما أسهم أيضاً بتدوين طائفة من شعره على الأقل ، فكان ذلك عوناً للرواة من بعده .

فلا شك أن الرواية والتدوين قد اجتمعا في الحفاظ على شعر ابن أحمز ونقله إلى القرن الثاني ، ليكون بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة ، أمثال : الفراهيدي (١٧٥ هـ) ، وسيبويه (١٨٠ هـ) ، وابن الكلبي (٢٠٤ هـ) ، وأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) ، وقطرب (٢٠٦ هـ) ، والفراء (٢٠٧ هـ) ، وأبي عبيدة (٢١٠ هـ) ، والأصمعي (٢١٧ هـ) ، وأبي عبيد (٢٢٤ هـ) ، وابن الأعرابي (٢٣١ هـ) ، وابن سلام الجمحي (٢٣١ هـ) ، ثم ليكون بين أيدي الطبقة الثانية من الرواة ، أمثال : ابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، وأبي حاتم (٢٥٥ هـ) ، وسنير ابن حمدويه (٢٥٥ هـ) وغيرهم .

وكثيراً ما نجد اختلافاً واسعاً في روايات هؤلاء العلماء وشروحهم بسبب اختلاف مذاهبهم وعلومهم ، وقد عملت جهدي في البحث عن كل ذلك أثناء تحقيق شعر ابن أحمز .

٣ - مصادر شعره :

بمجرد أن حملت الرواية والكتابة شعر ابن أحمز إلى القرن الثاني أصبحت السنة اللغويين والنحاة تلهج بروايته قرناً بعد آخر شواهد على معنى من معاني اللغة أو بنية لفظ من ألفاظها أو غريب من غرائب الاستعمال أو طريقة من طرائق الاشتقاق ، حتى حظي بكل اهتمامهم ، فقال ابن الأثير : « ابن أحمز الباهلي شاعر معروف ، يستشهد على اللغة بشعره كثيراً ، فيقال : قال ابن أحمز ، ولا يذكر له اسم » (١٧) ، لما في شعره من فصاحة ، جعلته مقدماً لدى أهل اللغة .

ولهذا نرى أن الأصول التي عنيت بجمع اللغة ، أو تناولت بالتصنيف مشكلاتها وظواهرها ، كانت تزخر بشعره أكثر مما رأينا في مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها ، ولذا كانت المعجمات في مقدمة مصادر شعره ، ونذكر على سبيل المثال أننا حددنا في اللسان لابن منظور (٣٥١) بيتاً وثلاثين شطراً ، وفي التاج للزبيدي (٣٠٠) بيتاً وأربعة عشر شطراً ، وفي تهذيب اللغة للأزهري (١٤٨) بيتاً وأربعة وعشرين شطراً ، وفي الصحاح للجوهري (٩١) بيتاً وتسعة أشطار ، وفي جمهرة اللغة لابن دريد (٦٩) بيتاً وشطرين ، وفي المخصص لابن سيده (٦٣) بيتاً وعشرة أشطار ، وفي التكملة للصنصناني (٦٠) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي المحكم لابن سيده (٥٣) بيتاً وشطرين ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (٤٧) بيتاً وثمانية أشطار ، وفي التقفية لابن أبي اليمان (٣٤) بيتاً وشطرين ، وفي أساس البلاغة للزمخشري

(٣٢) بيتاً وأربعة أشطار ، وفي كنز الحفاظ في تهذيب كتاب الالفاظ للتبريزي (٣١) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي الأفعال للشرقسطي (٣٠) بيتاً وشطرين ، وفي مجمل اللغة لابن فارس (٢٠) بيتاً وخمسة عشر شطراً ٠٠ ولو عدنا الأبيات مضطربة النسبة بين ابن أحمر وغيره من الشعراء لارتفعت هذه الأرقام أكثر في هذه المعجمات وغيرها من المصادر ، ولا سيما في اللسان والتاج اللذين لم ينفردا بأي جديد من شعر ابن أحمر غير بعض أبيات فرادي ٠

وهذه المعجمات جميعاً تورد أبيات ابن أحمر شواهد على معنى من المعاني أو بنية لفظ من الالفاظ ٠ ولهذه الغاية ذاتها كان من مصادره كتب غريب القرآن ومجازه ، ففي مجاز القرآن لأبي عبيدة مثلاً نعد (١٨) بيتاً ، وكان منها شروح الدواوين والاصول ، ففي شرح المفضليات للأنباري نعد (٢٧) بيتاً ، وفي الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطلاني (٢٤) بيتاً وشطرين ، وفي شرح أبيات المغني للبغدادي (٢٠) بيتاً وشطرين ، وفي المجاهليات (١٧) بيتاً ، وفي شرح أبيات سيبويه لابن السريالي (١٢) بيتاً ٠

ثم كانت كتب النحو على اختلافها من مصادر شعره أيضاً ، وذلك لما في شعره من شواهد نوعية عديدة ، فالبغدادي في خزائن الأدب احتج لابن أحمر ب (٣٧) بيتاً وشطرين ، وابن الشجري في الأمالي ب (٣٢) بيتاً ، وابن جنس في الخصائص ب (١٨) بيتاً وشطراً واحداً ، وسيبويه ب (٦) أبيات وشطراً واحداً ، وغيرهم ٠

وأما مصادر الأدب والنقد والمعاني ، فإن كتاباً منها يورد طائفة قليلة من شعره ، إذا ما قورنت بالمصادر السابقة ، حتى إن كتاباً مهماً ، وهو الأغانى ، لم يورد من شعر ابن أحمر الا ثمانية أبيات ، نجدها في ثنايا أخبار المغنية جميلة ، مولاة بني سليم ٠ وإذا ما ذكرنا أبرز هذه المصادر وأهمها ، فإننا لانحظى بكبير طائل ، فالجاحظ مثلاً لم ينقل من شعره غير (٢٣) بيتاً في البيان والتبيين ، والمعري لم يورد غير (١٤) بيتاً في رسالة الغفران ، و (١٢) بيتاً في الصاهل والشاحج ، وابن سلام لم يشهد غير (٦) أبيات في طبقات فعول الشعراء ، والمرزباني لم يورد غير بيتين في الموشح ، و (٦) أبيات في معجم الشعراء ٠ ولكن واحداً من تلك المصادر ، وهو المعاني الكبير لابن قتيبة ، يورد أبياتاً لابن أحمر ، يكاد عددها يفوق مجموع ما روته من شعره ، فقد رأى ابن قتيبة في هذا الشعر ذخراً واسماً ، يمثل به على ما بسطه من معان ، حتى أننا نعد في كتابه هذا (١٣٩) بيتاً وشطراً واحداً ، وهذا قدر كبير إذا ما قيس بسائر الشعراء الذين احتج بهم ابن قتيبة في الكتاب ، بينما نجد في الشعر والشعراء يورد (١٨) بيتاً ، وفي عيون الأخبار (٦) أبيات وشطراً واحداً ٠ والعلل في ذلك دليلاً آخر على أنه « يُسْتَشْهَدُ عَلَى اللُّغَةِ بِشِعْرِهِ كَثِيراً » ، الا أن مصادر أهل الأدب والنقد والمعاني تظل ذات قيمة مهمة بما ترويه من أخبار حياته وخصائص شعره ، وبما تطالعنا به من أحكام ورؤى نقدية فيه ٠

وهناك نوع من الكتب النقدية ، وهي كتب التصحيف والتحريف والتنبيه ، لا تخلو من أهمية في رواية شعره ، إذ أنها تنظر الى ما وقع في الرواية من خطأ وزلل ، ثم تقف على الصحيح منها ، ففي سبط اللؤلؤ للبكري (٣٨) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري (١١) بيتاً وشطراً واحداً ، وفي التنبيهات لعلي

ابن حمزة (٩) أبيات وشطر واحد ، وفي التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني (٥) أبيات وشطر واحد .

ويتلو ذلك منزلة تلك المصادر التي صنفت على شكل مختارات أو أمال ، أو اهتمت بجمع الأمثال ، أو ألغت في الأزمنة والأمكنة ، وتأتي جمهرة أشعار العرب في مقدمة هذه المصادر ، إذ اختار أبو زيد القرشي من شعر ابن أحمر قصيدة في (٥٢) بيتاً ، لحفظها وحدها من يد الحدّثان التي لم تبقى من قصائده غير أبيات مفردة ومقاطع عدة ، تشتتت في أضعاف الكتب والمصادر المختلفة . ونجد أصحاب العمامات يختارون من شعره نتفاً قليلة ، فالبصري مثلاً ينشد له (١٦) بيتاً ، والبحثري بروي (٩) أبيات ، وأبو تمام يورد (٤) أبيات . وأما أقدم مجموعتين من مختارات شعر العرب وأهمهما ، وهما الأصفهانيات والمفضليات ، فلم توردا شيئاً من شعر ابن أحمر بخلاف أصحاب العمامات الذين رأوا في شعره أهراضاً ، فني بمراميهم وهاياتهم ، وتستحق أن تنتقى ، وتختار . وأما كتب الأزمنة والأمكنة ، فقد احتجت بشعره ، وعددنا في معجم ما استمعم للبكري (٥٧) بيتاً ، وفي الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (٢٣) بيتاً ، وفي معجم البلدان الياقوت (١٩) بيتاً وثلاثة أشطار ، وفي الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري (٣) أبيات وشطرين . وهذا قدر كبير إذا ما قورن بسائر الشعراء الذين استشهد بشعرهم كل مصدر منها . وأما كتب الأمثال والمحاضرات والأمثالي ، فليست بذات أهمية كبيرة فيما أوردته من شعر ابن أحمر ، إلا أنها تظل مهمة من الناحية التاريخية على الأقل .

وإذا ما استعرضنا أنواعاً أخرى من المصادر في المكتبة العربية مثل كتب التاريخ والسيرة والديانات والمذاهب وما يتفرع عن هذه العلوم جميعاً ، فأننا لا نكاد نقف على أي أثر فيها لابن أحمر ، ففي السيرة مثلاً بيت واحد لا غير ، مما يؤكد عدم احتفال هذا النوع من المصادر بشعر ابن أحمر مع أن أكثرها قد تعدت عن بعض معاصريه من الشعراء المخضرمين كحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكمب بن مالك وغيرهم ممن كان لهم مشاركة ما في صدر الإسلام .

وبذلك كانت مصادر شعره المختلفة تقتصر على المجمعات والأصول التي صنفت بظواهر اللغة ومشكلاتها وعلومها ، فكانت تزخر بشعره أكثر مما روته مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها .

٤ - ضياع شعره :

رأينا أن ديوان ابن أحمر وكتاب باهلة قد فقدنا ، وليس بين أيدينا من شعره غير ما نجده في أضعاف المصادر المختلفة ، وليس هنالك دليل على أن هذه المصادر قد نقلت أبياتاً أو قصائد لم ترد في ديوانه ، وذلك لأنه العلماء الرواة الذين دونوا ذلك الشعر لم يجدوا إلا أبياتاً متفرقة أو مقطعات صغيرة ، أشبه ما تكون بالأوصال الممزقة ، التقطوها التقاطاً من أفواه بعض الأعراب والرواة « (٤٨) » .

والنظرة المعجلى الى شعر ابن أحمر تجملنا على ثقة تامة من ضياع قسم كبير منه ، اذ بدا لنا أن ابن أحمر من أصحاب المطولات ، ولكن صروف الدهر لم تبق منها غير مشوبة ، عدتها (٥٢) بيتاً ، ولم تدع القصائد الأخرى الا أوصالاً متناثرة ، تكاد تنم عن صورتها الأصلية في أغلب الأحيان ، حتى اننا نعد في إحدى رائياته المجموعة أو إحدى ميميائه (٣٤) بيتاً ، وفي إحدى لامياته أو إحدى يائياته (٣٦) بيتاً ، وفي قصيدة نونية (٣٩) بيتاً ، وفي قصيدة رائية (٣١) بيتاً ، وفي قصيدة لامية (٣٠) بيتاً .

ومن أدلة ذلك أن أبا الفرج أنشد لابن أحمر أبياتاً ، فقال : « قال في عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قصيدة له طويلة جيدة :

أدركت آل أبي حفص وأسرتهم وقبل ذاك ودهراً بعده كلياً
 قد تترتمي بقوافي بيننا دولاً بين الهتاتين لا جِداً ولا لعباً
 الله يعلم ما قولي وقولهم إذ يركبون جناناً مسهباً ورباً « (٤٩)

ولكنه لم يبق من هذه القصيدة الطويلة غير (١٩) بيتاً وشطر واحد ، اذا استثنينا منها ما رواه الأصفهاني ، مما يؤكد أن ابن أحمر كان يتصد شعره ، ويطول له ، ولكن قصائده المطولة لم تصل اليه .

ولعل كثيراً من الأبيات الفرادية ، ومجموعها نحو (٢٢) بيتاً ، هي مجرد بقايا قصائد مفقودة ، ومن أسئلة ذلك ما أنشده في ركاب ، أودعها « رجلاً من بني سعد ، فأغار عليها قوم منهم ، فأخذوها ، ولم يسع الخفير فيها » (٥٠) ، فعرض بهم ، وقال :

قرادوا ما لديكم من ركابي وثنا تاتيكم صممي صمام

ولكنه لم يبق من هذا التعريض غير هذا البيت ، ولا شك أنه لم يكن يتيماً ، وانما هو من قصيدة في الأصل .

وابن أحمر غزير الشعر كثيره ، قال الشعر من يفاعته الى ماته ، ولم يحجم عنه في الاسلام كما فعل لبيد ، ولم تفتقر عنه عزمته ، أو تلين شكيمته ، حتى قال أبو الفرج : « قال في الجاهلية والاسلام شعراً كثيراً » (٥١) ، الا أن هذا الشعر الكثير قد ذهب في ذمة التاريخ ، ولم يبق منه غير (٥٢٥) بيتاً وثلاثة أشطار ، هي مجموع الشعر الذي اطمأن البحث الى نسبه اليه .

ان ضياع جزء كبير من شعر ابن أحمر يمثل جانباً واضحاً من جوانب محنة جلتي ، رزى بها على مرّ العصور تراثنا العربي الاسلامي ، فلو جاءنا وافرأ لجاءنا علم وشعر كثير ، كما قال أبو عمرو بن العلاء (٥٢) . ولم تكن يد الحدّثان وحدها تعبت بهذا التراث فحسب ، وانما تتحدث الأخبار عن رواة وضاعين ومدعين منتحلين ، أسدوا ما أبدعه الأولون ، وشاع بينهم الكذب والوضع والاضطراب في رواية أي شيء منه ، (٥٣) .

□ العواشي :

- ١ - هو أبو الخطاب ، عمرو بن أحمد الباهلي من بني قراصين ممن بن مالك بن اعصر ، شاعر معظم من فحول شعراء أهل نجد ، كان صحيح الكلام كثير الغريب ، فاستشهد على اللغة بشعره كثيرا ، واشتهر بمشوبة مؤثرة ، رواها القرشي في جمهرته . ولد لدرنا وفاته بعد دراسة حياته وشعره بين (٧٧ و ٧٢ هـ / ٦٩٦ و ٧٠١ م) . انظر : طبقات فحول الشعراء ٥٧١ ، والشعر والشعراء ٣٥٦ ، والمعارف ٨١ ، وجمهرة اشعار العرب (ط . الجاوي) ٨٤٢ ، والافاني ٢٩٨٠ ، والمؤلف والمؤلفة ٤٤ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، وسقط اللاليه ٣٠٧ ، والاماني لابن الشجري ١٣٧/١ ، و خزائن الأدب ٣٨/٣ ، و شرح ابيات المنسي للبيفداي ١٣٥/٢ ، والاصابة ١١٢/٣ ، والافتضاب ٣١٩ ، ومن سمي من الشعراء عمرا ٥٦ ، والتاج (فرض) . ولزيد من الاطلاع راجع في مكتبة الأسد بدمشق رسالتنا : (شعر عمرو بن أحمد الباهلي : جمع وتحقيق ودراسة ، بحثاعد لنيل درجة الماجستير في الآداب بأشراف الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي . كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة دمشق ١٩٨٨/٨٧) .
- ٢ - انظر : الفهرست لابن النديم ٢٢٤ وما بعدها .
- ٣ - شرح ما يقع فيه التصحيف والتعريف ١٨٩/١ . وانظر : التنبيه على حدوث التصحيف (ط طلس) ٨٤ ، و (ط . ال ياسين) ١٤٠ .
- ٤ - شرح ما يقع فيه التصحيف والتعريف ١٩٠/١ .
- ٥ - المنصور السابق نفسه ٤٦٣/١ .
- ٦ - تاريخ بروكلمان ١/٧٥٠ . ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أن صاحب الجمهرة عاش قبل منتصف القرن الخامس ، لأن ابن رشيقي روى عنه في العمدة ، وابن رشيقي مات سنة ٤٦٣ للهجرة ، ويجعل الزركلي وفاته سنة ١٢٠ للهجرة . انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٨٦ و ٥٨٨ ، والاعلام ١١٤/٦ .
- ٧ - جمهرة اشعار العرب (ط . صادر) ٩ ، و (ط . الجاوي) ١ .
- ٨ - الفصائل ٢/٢٤ .
- ٩ - معجم ما استعجم ٤٦٥ .
- ١٠ - كثر الحفاظ ٤٤٦ .
- ١١ - الافتضاب ٤٣٤ .
- ١٢ - سورة العنبر ١٤/٥٩ .
- ١٣ - الاماني لابن الشجري ١/١٤١ .
- ١٤ - انظر : فهرست ابن حجر ٣٩٧ .
- ١٥ - فهرست ابن حجر ٣٥٣ . واورد محققه اسم ابن احمر مصحفا بالذال في خمسة مواضع منه ، وهي ٣٩٣ و ٣٩٨ و ٤٩٩ و ٥٤٤ و ٥٦١ .
- ١٦ - اللسان ، والتاج (مرض) .
- ١٧ - اللسان ، والتاج (حطب) .
- ١٨ - اللسان ، والتاج (قرر) .
- ١٩ - التكملة ٣/١٦٤ ، ومنه في التاج (قرر) .
- ٢٠ - التاج (مسمى) .
- ٢١ - خزائن الأدب ٣/٣٨ .
- ٢٢ - كشف الظنون ١/٧٦٤ .
- ٢٣ - خزائن الأدب ٤/٣٣ .
- ٢٤ - التاج (زها) .
- ٢٥ - نشر مجمع اللغة العربية بدمشق شعر ابن احمر دون تاريخ ، واشار في فهرس مطبوعاته ١٤ الى انه طبع سنة ١٩٧٠ م .



- ٢٦ - انظر : شعر ابن احرمر (ط . عطوان) ٧٣ و ١٠٩ .
٢٧ - انظر : المصدر السابق لنفسه ٣٩ و ٨١ و ١٢٣ و ١٣٢ و ١٦٦ .
٢٨ - المصدر السابق لنفسه ٥٢ .
٢٩ - ٣٠ - (٤) و (٥) الماني الكبير ١٢٢١ .
٣١ - شعر ابن احرمر (ط . عطوان) ٤٨ .
٣٢ - عيار الشعر ٩٩ ، والموشح ١٣٦ .
٣٣ - شعر ابن احرمر (ط . عطوان) ١٢٢ .
٣٤ - تهذيب اللغة ٢٨٥/١ ، والتكملة ٢١٨/٤ ، واللسان ، والتاج (بقع) . وصيفته : خلقته . وقال ابن مكى :
يقولون : شئت بده . و « الصواب : شئت بفتح الشين . تثنييف اللسان ١٥٠ .
٣٥ - انظر : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (ص ٤٢٧ ، ج ٢ ، مع ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) .
٣٦ - انظر : مجلة معهد اللغويات العربية (ص ٣٢٧ ، ج ١ ، مع ٣٠ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .
٣٧ - الاسم والمسمى ٣٤٠ .
٣٨ - المصدر السابق لنفسه ٣٤٣ .
٣٩ - انظر : فهرست ابن طي ٣٩٣ .
٤٠ - البرصان ٣ .
٤١ - انظر : شرح ما يقع فيه التصعيف والتعريف ١٨٩/١ .
٤٢ - المؤلف والمؤلف ٢٥٢ .
٤٣ - المصدر السابق لنفسه ٢٨٠ .
٤٤ - مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٤ .
٤٥ - انظر : فهرست ابن التميمي ٢٢٣ وما بعدها .
٤٦ - مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٨ .
٤٧ - المرصع ٦٥ .
٤٨ - مصادر الشعر الجاهلي ٤٨٣ .
٤٩ - الاغانى ٢٩٨٠ .
٥٠ - جمهرة ٢/٢٠٦ .
٥١ - الاغانى ٢٩٨٠ ، ومنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخرالفة الادب ٣٩/٣ ، والمبارة فيهما : « قال في الاسلام شعرا كثيرا » .
٥٢ - طبقات فعول الشعراء ٢٥ ، والخصائص ٣٨٦/١ .
٥٣ - انظر : مصادر الشعر الجاهلي ٣٢١ ، وما بعدها .

★ ★ ★

□ المصادر والمراجع :

أولا : المطبوعات :

- ١ - الاسم والمسمى لابن السيد الجليليوسي (٥٢١ هـ) . تج : احمد فاروق . نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، مع ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٢ - الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) . ط ١ . مصر ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م (مصورة دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ) .
- ٣ - الاعلام لغير الدين الزركلي . ط ٥ . دار العلم للملايين في بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٤ - الاغانى لابي الفرج الاصفهاني (٣٥٦ هـ) . تج : ابراهيم اليبايري . دار الشعب في مصر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- ٥ - الانتصاب في شرح آداب الكتاب لابن السيد البطولي (٥٢١ هـ) . دار الجيل في بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ٦ - الألماني لابن الشجري (٥٤٢ هـ) . مجلس دائرة المعارف العثمانية ببيدر آباء الداكن بالهند ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م (مصورة دار المعرفة في بيروت دون تاريخ) .
- ٧ - البرصان والعرجان والعميان والعولان للجاحظ (٢٥٥ هـ) . تج : د . محمد مرسي الهولي . ط ٢ . مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٨ - تاج العروس من جواهر القاموس للمرطضي الزبيدي (١٢٠٥ هـ) . حققه عدد من الأساتذة المحققين ، ونشرته حتى الجزء الخامس والعشرين وزارة الأعلام في الكويت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، فاستعفا بأجزائه الأخرى من الطبعة المصرية المعروفة .
- ٩ - تاريخ الآداب العربي لكارل بروكلمان . تر : د . عبد العليم النجار . دار المعارف في مصر ١٩٧٧ .
- ١٠ - تشيف اللسان وتلخيص الجنان لابن مكى الصلتنلي (٥٠١ هـ) . تج : د . عبد العزيز مطر . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ١١ - التكملة والذيل والصلة لكتاب (تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري) للصفاني (٦٥٠ هـ) . تج : عدد من الأساتذة المحققين . مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ١٢ - التنبيه على حدوث التصحيف لعمدة بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠ هـ) . تج : محمد أسعد طلس . مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، وهناك نشرة أخرى منه ، حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين . ط ١ . مكتبة النهضة في بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٣ - تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ هـ) . تج : عدد من الأساتذة المحققين . وزارة الثقافة في مصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٤ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرظي (أواخر القرن الثالث الهجري) . دار صادر في بيروت (دون تاريخ) ، وهناك نشرة أخرى منه ، حققها علي محمد الجاوي . دار نهضة مصر في القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٥ - جمهرة اللغة لابن دريد الأدي (٣٢١ هـ) . ط ١ . مجلس دائرة المعارف العثمانية ببيدر آباء الداكن بالهند ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- ١٦ - خزائن الآداب (ومعها المقاصد اللغوية للمبيني) لعبد القادر بن عمر البلدادي (١٠٩٣ هـ) . دار صادر في بيروت (دون تاريخ) .
- ١٧ - الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ) . تج : محمد علي النجار . ط ٢ . دار الهدى للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) .
- ١٨ - سمط اللآلئ، لأبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ) . تج : عبد العزيز المبيني . لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .
- ١٩ - شرح أبيات المني لعبد القادر بن عمر البلدادي (١٠٩٣ هـ) . تج : أحمد يوسف دفاق وعبد العزيز رباح . ط ١ . دار الامون للتراث في دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٢٠ - شرح مايقع فيه التصحيف والتعريف لأبي أحمد الحسن بن عبد الله المسكري (٣٨٢ هـ) . تج : د . السيد محمد يوسف عن مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٢١ - شعر عمرو بن أحمد الباهلي . تج : د . حسين عطوان . مجمع اللغة العربية بدمشق (دون تاريخ) .
- ٢٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) . تج : أحمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٢٣ - طبقات فعول الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمعي (٢٣١ هـ) . تج : محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ٢٤ - هيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا (٣٢٢ هـ) . تج : د . طه العاجري ، و د . محمد زلفول سلام . المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .
- ٢٥ - الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) . دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) .

- ٢٦- فهرسة ما رواه عن شيوخه لأبي بكر محمد بن طخيل الأنسيبي (٥٧٥ هـ) . تج : فرنشكغ فداره زيدبن وطلبيان
ربارة طرفوه . ط ٢ . دار الإفتاء الجديدة في بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ٢٧- فهرس مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٢١ - ١٩٧٥) . مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٢٨- كشف اللغون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله ، المعروف بحاجي خليفة (١٠٩٧ هـ) . تج : محمد شرف
الدين يالتقاي ، ورفعت بيلكة الكليسي . مكتبة المنشي ببغداد (دون تاريخ) .
- ٢٩- كنز العلاف في كتاب تهذيب الألفاظ للطبيب التبريزي (٥٠٢ هـ) . تج : لويس شيخو . المطبعة الكاثوليكية في
بيروت ١٣١٣/١٨٩٥ م .
- ٣٠- لسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) . تج : صدد من الاساتذة المحققين . دار المعارف بمصر ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٣١- المرصع في الإبهاء والأسماء والنبات والألوان والنوات لابن الأثير (٦٠٦ هـ) . تج : د . ابراهيم السامرائي
رئاسة ديوان الأوقاف في بغداد ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ٣٢- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد . ط ٥ . دار المعارف بمصر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- ٣٣- المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) . تج : سالم الكرنكوي . ط ١ . مجلس دائرة المعارف العثمانية
ببيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- ٣٤- معجم الشعراء لأبي حبيد الله بن عمران المرزباني (٣٨٤ هـ) . تج : عبد الستار أحمد فراج . مكتبة النوري بدمشق
(دون تاريخ) .
- ٣٥- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي حبيد البكري (٤٨٧ هـ) . تج مصطفى السقا . ط ٥ . لجنة التأليف
والنشر والترجمة في القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م .
- ٣٦- المعارف لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) . تج : د . ثروت عكاشة . ط ٢ . دار المعارف بمصر ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٣٧- المؤلف والمختلف لأبي القاسم الحسن بن بشر الإملي (٣٧٠ هـ) . تج : عبد الستار أحمد فراج . دار احياء الكتب
العربية بمصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- ٣٨- الموشح في ماخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر للمرزباني (٣٨٤ هـ) . تج : محمد علي
الجاوي . دار نهضة مصر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

ثانياً : المخطوطات :

- ١ - شعر عمرو بن أحمد الباهلي : جمع وتعقيق ودراسة . صنعة محمد معيي الدين مينو . بحث أسد لثيبيل درجة
الماجستير في الآداب بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي . كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة دمشق
٨٧ / ١٩٨٨ .
- ٢ - من سمي من الشعراء عمرا لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ هـ) . مصورة (الفاتح ٥٢٠٣) يحتفل بها مجمع اللغة
العربية بدمشق ، ومنه صورة أخرى في مكتبتي .

ثالثاً : المجلات :

- ١ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، مج ٤٧ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٢ - مجلة معهد المخطوطات العربية : ج ١ ، مج ٣٠ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

استدراك

على ديوان ديك الجن الحمصي

جمع وتحقيق: مظهر الحجي

خير الدين شمسى باشا

كانت مجلة التراث العربي نشرت لي بملحقها المزدوج (٢٦/٢٥) مقالة بعنوان (استدراك على ديوان ديك الجن) وبملحقها (٣٢) القسم الثاني منه . وكان استدراكا على الديوان الذي نشره اديبا حمصى الشاعران الاستاذ عبدالمعين الملوحي والمرحوم محيي الدين الدرويش عام ستين وتسعمئة والف . وفي عام سبعة وثمانين وتسعمئة والف ، نشرت وزارة الثقافة في سلسلة : احياء التراث العربي (ديوان ديك الجن الحمصي (عبدالسلام بن رهبان) جمع وتحقيق مظهر الحجي) .

قال الأستاذ المحقق في مقدمة الديوان :

« ان عملنا في هذا الديوان هو المحاولة الثالثة لاهياء شعر ديك الجن الحمصي . وأنا لا ادعي الكمال في هذا العمل . فالباب ما زال مفتوحاً ما دام الأصل المخطوط ضائعاً وما دامت المطابع تلفظ كل يوم جديداً من كتب التراث التي قد تحوي بعضاً من شعر الديك . وهذا يدفعني الى التقدم بالرجاء الحار والصادق الى الاخوة الأدباء والدارسين على امتداد الوطن العربي بمد يد المساعدة وارسال ما قد يقع تحت أيديهم من شعر ديك الجن . ولعل المحاولة القادمة تكون أدق وأكمل » . وقد كنت أثناء قراءتي في كتب الأدب، كلما عثرت على شعر ديك الجن أراجمه على هذا الديوان ، وأكتب في صفحاته ما أجد من اختلاف الروايات ، وأدون بعض الأبيات التي ليست فيه ، كالأبيات الواردة في الفقرة (٢٤) من هذا المقال ، والأبيات في الفقرة (٢٥) وأشير الى الأبيات التي أخذ معانيها عدد من الشعراء كالتنبيبي وغيره وأكتب أشعارهم ، وهذا مما نقلته عن كتاب (الابانة عن سرقات التنبيبي) نشر دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطلي .

وتلبية لرجاء الأستاذ مظهر العجمي ، أقدم حصيلة هذا الجهد المتواضع بالقياس الى جهده العظيم ، وعنايته الفائقة بدقة التحقيق ، ولا بد من الاشادة بالدراسة المستفيضة التي صدر بها الديوان ، ولعله في المحاورة القادمة يذكر في العواشي الشعراء الذين عرفوا من منهل هذا الشاعر الفذ الذي سمي اليه اعظم الشعراء وهو قابع في مرهقه المتواضع في قرية الدوير على ضفاف العاصي :

١ - في الصفحة ٤٢ - رقم/٧ :

وقال :

فتى كان مثل السيف من اين جثته لنائبة نابتته فهي مضاربه

وفي الصفحة (٤٨) تكرر ورود هذا البيت في القصيدة رقم/١١ التي يمدح بها جعفر بن علي الهاشمي بهذه الصورة :

فتى كان مثل السيف من حيث جثته لنائبة نابتك فهو مضارب

لعله بهذه الرواية أصوب وأصح معنى ، وورد في الحماسة البصرية :

« لنائبة تاتيك فهو مضارب »

٢ - في الصفحة ٦٣ - رقم/٢٢ :

البيت الرابع من المقطوعة :

وتارة كالتطور متصلًا (٥٥٥٥٥) في جوانب الكتب

قال المحقق مشيراً الى موضع النقط : كلمة غير مقروءة في الأصل ، انتهى ، وكنا اثناء مراجعة الديوان قد نقلنا كلمة (ميماته) مكان النقط عن مصدر نسينا أن نذكر اسمه ، وستكرر فيما يأتي بعض التصحيحات والمنقولات من هذا المصدر ، وكان الأجدر بنا أن لا نمرض في هذا المقام شيئاً غير موثق، فنمتذرعن ذلك ، لكن رأينا التنبية اليه أكثر فائدة من امسأله .

٣ - في الصفحة ٩٩ - رقم/٧١ :

وقال في كتمانته للسر :

لقد اخللت سررك من ضميري مكانا لم يحس به الضمير

فمات بحيث ما سمعته أذن فلا يرجى له أبداً نشور

وفي كتاب (الابانة عن سرقات المتنبي/ الطبعة الثانية صفحة ١٥٨) بمد هذين البيتين قال المتنبي :

وسرك بين العشا ميت اذا نشر السر لا ينشر

وهو في ديوانه :

« وسرك في العشا مضمر »

٤ - في الصفحة ١٠٥ - رقم/٧٣ :

بها غير معلول فداور خمارها وصل بعشيات الفبوق ابتكارها

وفي كتاب (فصول التماثيل في تباشير السرور) لابن الممتز (م. مجمع اللغة العربية بدمشق/١٤١٠ هـ) صفحة (٥٧) ورد مجزأ البيت هكذا :

« وصل بغياالات الفبوق ابتكارها »

٥ - في الصفحة ١٠٦ - رقم ٧٣ :

ونل من عظيم الوزر كل عقيمة اذا ذكرت خاف العفيظان نارها

وفي (فصول التماثيل في تباشير السرور) ص/٥٨ :

ونل من عظيم الذنب كل عقيمة اذا كتبت خاف العفيظان نارها

٦ - في الصفحة نفسها : البيت الرابع من المقطوعة :

فقام تكاد الكاس تعرق كفه من الشمس او من وجنتيه استعارها

وفي (فصول التماثيل في تباشير السرور) ص/٥٨ :

فقام تكاد الكاس تغضب كفه وتحسبه من وجنتيه استعارها

٧ - في الصفحة نفسها : البيت الخامس من المقطوعة :

ظللنا بأيدينا نتمتع روحها فتأخذ من اقدمنا الراح نارها

وفي (الابانة) ص/١٩٦ :

نظل بأيدينا نتمتع روحها فتأخذ من اقدمنا الكاس نارها

وقال المتنبي :

نال الذي نلت منه مني لله ما تصنع الغمور

وفي العاشية : يقول : الذي نلته منه بشربه ناله مني بغياب عقلي والتاثير في اعضائي وهذا مأخوذ من قول الطائي :

وكاس كمجسول الاماني شربتها ولكنها اخفت وقد شربت عقلي

اذا اليد نالتها بوتر توفرت على ضغنها ثم استقامت من الرجل

ومن قوله أيضا :

أفيكم فتى حي ليغيرني عني بما شربت مشروبة الراح من ذهني
انتهى * ومن المحفوظ بيت للطبيب أبي بكر بن زهر (الأندلسي) بمعنى بيت ديك الجن
وهو :

والخمر تاخذ ثارها ييمينها أني أملت إناءها فإمالنسي

ويلاحظ في قول صاحب العاشية في الابانة : « وهذا مأخوذ من قول الطائي » أن
المعروف المشهور أن أبا تمام كان كثير الأخذ من ديك الجن * وأن ديك الجن قد أعطاه حين
زاره في حمص درجاً فيه قصائد من شعره وقال له ما معناه : تكسب بهذا وأعمل علي منواله.
فقد توسم فيه ديك الجن أن سيكون شاعراً فعلاً * [انظر العدد ٣٢ من مجلة التراث
المصري] .

٨ - في الصفحة ١٠٧ : البيت السادس من القطعة :

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فادارها
وهو في (لمنول التماثيل) ص/٥٨ :

مشعشة من كف ظبي البيت

٩ - في الصفحة ١١١ - رقم/٨٠ :

وقال معبراً عن رأيه في المرأة :
أخا الرأي والتدبير لا تركب الهوى فإن الهوى يرديك من حيث لا تدري
ولا تثقن بالفانيات وان وفت وفاء الغواني بالعهود من الغدر
وفي كتاب الابانة ص/٤٥ بمد ذكر البيتين :

أبو تمام :

ولا تحسبا هنداً لها الفدر وحدها سجية طبع ، كل غانية هند
فان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
قال المتنبي :

وإذا غدوت حسناء أوفت بهدها ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

انتهى *

وبيت أبي تمام الأول في الديوان (اصدار مكتبة النوري بدمشق) ص/١٠٧ هكذا :

فلا تحسبا هنداً لها الفدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

أما البيت الثاني فليس لأبي تمام ، وإنما هو للمتنبي وهو في ديوانه (العرف الطيب) لليازجي ص/ ٣٩٨ دار صادر بيروت) بعد قوله :

إذا غلرت حسناء وقتت بعهدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت أشد صبابة وان فركت فاذهب فما فردها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد

١٠- في الصفحة ١١٥ - رقم/ ٨٥ :

لم تبل عينك أبيضاً في أسود جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها من ريقها من لا يحيط بخبرها
ولوق كلمة (تبل) كلمة (تلق) ولوق كلمة (ريقها) كلمة (خدّها) بالقلم الأحمر
كنا نقلناها أثناء مراجعة الديوان عن المصدر السابق الذي نسينا أن نذكر اسمه .

١١- في الصفحة ١١٦ - نفس الرقم :

تسويق كاس مدامة من كفهها وردية ، ومدامة من ثغرها
وتعت البيت بالقلم الأحمر البيت التالي :

بنت المذابح والقسوس كريمة لا تستحي يوم الحساب بوزرها
وهو من المصدر السابق وليس في الديوان .

١٢- في الصفحة ١١٩ - رقم/ ٩١ :

لا شيء أحسن من راح مشعشة حمصية سيئاً من كف شماس
ولوق كلمة (حمصية) كلمة (ديرية) بالقلم الأحمر . وبعد هذا البيت :
إذا اغتلى لزبور الكتب يدرسها ألهى قلوب الورى عن كل مدراس
ولوق كلمة (لزبور) كلمة (بزبور) بالقلم الأحمر والتصحيح من المصدر السابق .

١٣- في الصفحة ١٢٠ - رقم/ ٩٢ :

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن هي نفسي تذيبها أنفاسي
وفي (الابانة) ص / ١٦٧ بعد ذكر هذا البيت : قال المتنبي :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أي الفاعلين أشيع
أشاروا بتسليم فجندنا بأنفس تسيل من الأماق والسمم أدمع

[السمم بالكسر : لغة في الاسم] .

وفي حاشية صفحة ١٦٨ : ومثله :

خليلي لا دمعا بكيت وانما
ولا بن دريد :

روحي جرت في دمعي المتعذر
لا تحسبوا دمعي تحسدر انها

١٤- في الصفحة ١٣٤ :

فاصرف بصرفك وجه الماء يومك ذا
فوق كلمتي (وجه الماء) كلمتا (صِرف الراح) والتصحيح من المصدر المنسي ذكره .

١٥- في الصفحة ١٣٦ :

حتى حسبت انوشروان من خولي
والمحفوظ كما في المصدر السابق : (سابع الغلغا)

١٦- في الصفحة ١٣٩ :

فان كذبوا امنت وان اصابوا
فان البتليك هو المماني
فوق كلمتي (كذبوا امنت) كلمتا (أخطوا أصبت) بالاحمر والتصحيح من المصدر السابق .

١٧- في الصفحة ١٥٥ - رقم/ ١٢٢ :

نغدو على سيد يعصى العصى عددا
وفي (الابانة) ص/ ٣٠ :

ديك الجن :

تغدو الى سيد يعصى العصى عددا
محمد بن حازم الباهلي أبو جعفر :
يعصى العصى ويمد الرمل أصغره
قال المتنبي :

حلو خلائقه شوس حقائقه
١٨- في الصفحة ١٥٨ - رقم/ ١٢٤ :

وقال :

واني بريء من أخي وانتسابه
فان لم تكن بالطبع نفسي كريمة
اليء اذا الفيت في طبعه بغلا
وان كرم الأباء لم أره فضلا

وفي الابانة ص/ ١٧٨ بعد هذين البيتين :

المتنبي :

وانف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجده من الكرام
ولست بقانع من كل فضل بان اعزى الي جد همام

١٩- في الصفحة ١٦٤ - رقم/ ١٢٩ :

وقال في الحكمة :

احل وامرر معا ولن تارة واخشن ورش انت وانتدب للمعالي
واغت واستغث بربك في الارض اذا جلعت صروف الليالي

وفي الابانة ص/ ١١٧ :

ديك الجن الحمصي من قصيدة اولها :

فسد الدهر فاطلب الرزق بالسيف والا فمت قتييل الهزال
احل وامرر وضر وانفع ولن واخشن ورش وابر وانتدب للمعالي

ابو الميثل :

يا من يحاول ان تكون صفاته كخصال عبدا لله انصت واسمع
اصلق وعف وبر واصبر واحتمل واحلم ودان وكاف واحلم واشجع

قال المتنبي :

اقل ائل ان صن احمل على سل اهد زد هش بش هب اغفر ادن سره صل
وفي العاشية : وفي نسخة الجامعة هكذا : [وهو في الديوان (المعرف الطيب)] :

اقل ائل القطع احمل صل سل اهد زد هش بش تفضل ادن سر صل

٢٠- وفي الصفحة ١٧٣ - رقم/ ١٤١ : وقال :

الكلب فوق اناس انت مالكمم ونعمة انت فيها عندهم نقم
وان دهرأ علوت الناس كلهم فيه فبالجهل والخذلان متهم

وفي (الابانة ص/ ١٧٩) بعد ذكر البيتين : [وفيه (عندنا) بدل (عندهم)] .

قال المتنبي يهجو كافورا :

جاز الالى ملكت كفاك قدرهم فمترهوا بك ان الكلب فوقهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

[أي أن الدهري يزعم أنه لو كان للعالم مدبر ، وكانت الأمور تجري على تدبير ،
لما ملك هذا المبدأ] .

٢١- في الصفحة ١٧٥ - رقم/١٤٦ :

دِعْص يَنْقِيلُ قَضِيبَ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسُ النَّهَارِ تَقِلُّ لَيْلًا مَظْلَمًا
وفي (الابانة ص/٢٦) بمد ذكر البيت :قال المتنبي :

غُصْنٌ عَلَى نَقْوَى فَلَائِ نَابِتٍ شَمْسُ النَّهَارِ تَقِلُّ لَيْلًا مَظْلَمًا
[نَقْوَى : مثنى نقا . وهو الكثيب من الرمل] .

٢٢- في الصفحة ١٩٢ - رقم/١٦٩ :

مِمَّا تَرْدَى عَظْمَ نُوحٍ وَارْتَوَى مِنْهَا وَإِنْ بَقِيَتْ عَلَى الْعَمْرَيْنِ
وتصحیح البيت على الصورة التالية من المصدر السابق المنسي ذكره :

مِمَّا يُرْوَى عَظْمَ نُوحٍ وَارْتَوَى مِنْهَا ، وَإِنْ أَبَقَتْ مِنَ الْعَمْرَيْنِ
٢٣- في الصفحة ١٩٣ - نفس القصيدة :

وَالرِّيُّ كَأَسْكَمَا عَلَى مَا خِيلَتْ بِالتَّبِيرِ مَعْجُونًا بِمَاءِ لَجِينِ
وتصحیحه على الصورة التالية من نفس المصدر :

فَاتِي كُؤُوسِكَمَا عَلَى مَا خِيلَتْ بِالتَّبِيرِ مَعْجُونًا بِمَاءِ لَجِينِ

٢٤- في كتاب (فصول التماثيل في تباشير السرور) لابن الممتز [م. مجمع اللغة العربية بدمشق/١٤١٠] ص/١٢٠ ما يلي : وقال شاعر الشام [وهو يعني ديك الجن جرياً على عادته في الكتاب] :

نَادَيْتَهُ وَرَدَا الظَّلَامَ مَعْظَفَ حَوْلِي كَغَافِيَةِ الْغَرَابِ الْمُدْجِنِ
قَمِ نَحْسَهَا حَمِصِيَّةً فَالْغَيْرِ مَا نَحْسُ الْمَدَامِ ، وَخَيْرِ سَاحَةِ مَعْدِنِ
فَاجَابَنِي وَلِسَانَهُ مَتَفَتِّرَ مِنْ سَكْرِهِ : صَرَفْتَنِي فَتَقَاتَلْتَنِي

وهذه الأبيات ليست في الديوان . والثاني منها فيه خطأ كلمة (نحس) والصواب (نحسو) والجزء الأخير منه غير مفهوم . والمطلوب أن ما يصدر عن مجمع اللغة يكون مرجحاً حالياً من الخطأ والابهام .

٢٥- في الصفحة ١٩٥ - رقم/١٧٥ :

وقال في مرض حبيبته :

يَا لَيْتَ حَمَاهُ بِي كَانَتْ مَضَاعِفَةٌ يَوْمًا بِشَهْرٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ هَافَاهُ
فَيَصْبِحُ السَّقْمُ مَنقُولًا إِلَى جَسَدِي وَيَجْمَلُ اللَّهُ مِنْهُ الْبِرَّةَ عَقْبَاهُ

وقد وقفنا على الأبيات التالية في ديوان أبي نواس (تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي)
من منشورات دار الكتاب العربي - بيروت / صفحة ٣٤٨ :

قد حم من أنا أحميه فالفقده وردا بوجنته وردة لعشاء
يا ليت حماء لي كانت مضاعفة يوما بشهر ، وأن الله عافاه
فيصبح السقم منقولا إلى جسدي ويجعل الله منه البرء عقباه
أقول للسقم : كم ذا قد لهجت به ؟ فقال لي : مثلما تهواه أهواه
حلفت للسقم : أني لست أذكره وكيف يذكره من ليس ينسأه ؟

٢٦- في الصفحة ١٩٧ - رقم/١٧٧ :

وقال يتنزل :

بانوا فصار الجسم من بعدهم ما تصنع الشمس له فينا
بأي وجهه ألقاهم إذا راوني بعدهم حيئا
وما جوابي إذ تقول العدا ما صنع البين به شيئا
ووجدنا الأبيات التالية في ديوان ماني الموسوس (طبع وزارة الثقافة بدمشق)
صفحة/١٠١ :

وقال في النحول من شدة الوجد :

هابوا فاضحى بدني بعدهم لا تبصر العين له فينا
بأي وجهه ألقاهم إذا راوني بعدهم حيئا
واخجلتا منهم ومن قولهم ما ضرك الفقد لنا شيئا

* * *

وفي الغتام لا بد من التنبيه على أن ما أخذه المتنبي من معاني ديك الجن وغيره من الشعراء ، لا يفض من قدره ، فهو - كما شهد له فيلسوف المرة - « فخر الأمة العربية وفيلسوف الشعراء ، وشاعر الفلاسفة » . على أنه كان يكسو تلك المعاني حلا من الألفاظ رائعة الحسن ، ويصوغها في قوالب من البلاغة ، عجز عن مثلها أصحاب تلك المعاني ولهذا سارت أبياته وذاعت ، وخملت أبيات غيره .

ثم إن المعاني مشتركة بين الشعراء قديمهم وحديثهم ، وهم إنما يتفاوتون بمدونة الألفاظ وبلاغة التعبير ، كما أن أكثر الشعراء يحفظ الواحد منهم عشرات الألوف من الأبيات لمن سبقه ، فتترسخ المعاني في خاطره وفي عقله الباطن ، فإذا ما أخذ في النظم انشالت عليه تلك المعاني ، فيصوغها في قالبه وأسلوبه من دون أن يدري أنه مبتكرها أو أنه حافظها

فتطبع بطابعه وتنسب اليه ، وقد يظني عليها من افكاره زيادة وتبيانا فيصبح صاحبها كما جرى لأبي نواس حين قال :

دع عنك لومي فان اللوم اخراء وداوني بالتي كانت هي الداء
فقد سبقه الأعمش الى معنى الشطر الثاني من هذا البيت في قوله :
وكساس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بهما

لكن النواسي أتى بمعنى جديد في الشطر الأول ليس في بيت الأعمش ، وهو معنى قائم بذاته ، وأليس المعنى الوارد في بيت الأعمش حلة من الألفاظ ذات الجرس الموسيقي مما جعل قراءتها غناءً ، فإذا ما قرأنا بصوت مسموع :

« وأخرى تداويت منها بهما »

ثم قرأنا بمدّه :

« وداوني بالتي كانت هي الداء »

ظهر ذلك جلياً ، وعرفنا سبب سيروية بيت أبي نواس على كل لسان ، وحمول بيت الأعمش .

وما ذكر أخذ المتنبي معاني ديك الجن إلا للاشادة بقيمة شعره ، وعلو كعبه ، فمن الفخر له أن يستحسن معانيه شاعر عظيم كالتنبي ، كما لا يضير المتنبي أن يأخذ معنى سبقه إليه غيره ، فهو كما قال (البديعي) صاحب كتاب (الصبح المنبي عن حيشية المتنبي) :

« والمتنبي وإن أخذ بعض معاني الأبيات التي أوردها (المبيدي) [وهو صاحب كتاب الأبيات عن سرقات المتنبي] فقد زاد من ألفاظها ما يخلو سماعه ، وتعذب أنواعه ويلطف بموقعه على القلوب ، ويصل إلى النفوس بلا تكلف ، ويمتزج بالأرواح بلا تمسف ، وكساها من هذه ملاحه ، فاستوفى شروط الكمال كلها » .

ورحم الله أيها المطيب فقد ملا الدنيا وشغل الناس منذ عصره حتى الآن . وهذا رصيفه ديك الجن يشغلهم في هذه الأيام .

دمشق - خيرالدين شمسي باشا

□ المراجع :

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| - ديوان الأعمش . | - الأبيات عن سرقات المتنبي . |
| - ديوان ماني الموسوس . | - ديوان أبي نواس . |
| - فصول التماثيل في تباشير الرور . | - ديوان ديسك الجن . |
| - الصبح المنبي عن حيشية المتنبي . | - ديوان المتنبي (العرف الطيب) . |
| - لسان العرب . | - ديوان أبي تمام . |